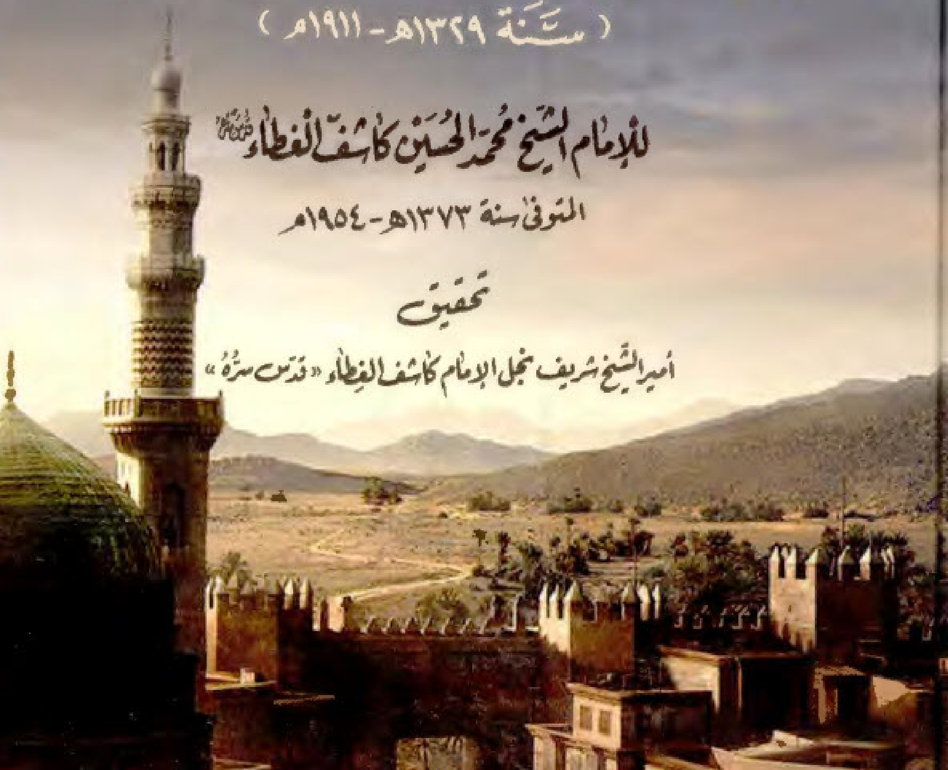
الرحلة الحجازية

أو

نهزة المسافر ونزهة المسامر

(سنة ١٣٢٩هـ - ١٩١١م)



للإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء

المتوفى سنة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م

تحقيق

أمير الشيخ شريف نجل الإمام كاشف الغطاء «قدس سره»

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحلة الحجازية

أو

نهزة المسافر ونزهة المسامر

(سنة ١٣٢٩هـ - ١٩١١م)

للإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء قدس سره

المتوفى سنة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م

تحقيق

أمير الشيخ شريف نجل الإمام كاشف الغطاء « قدس سره »

النجف الأشرف/ الهاتف المحمول: ٠٠٩٦٤٧٨٠١٢٧٣٣٨٤

Kashefalghtaa@gmail.com

كاشف الغطاء، محمدالحسين علي محمدرضا، ١٢٩٤ - ١٣٧٣ هـجري.

الرحلة الحجازية، او، نهزة المسافر ونزهة المسامر (سنة ١٣٢٩ هـ -١٩١١ م) / للامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء قدس سره ؛ تحقيق امير الشيخ شريف - الطبعة الاولى.- النجف [العراق] : مكتبة الامام كاشف الغطاء العامة، ١٤٣٧ هـ = ٢٠١٥م.

٣٢٥ صفحة ؛ ٢٤ سم

يضم مقدمة بعنوان : أدب الرُحلات النجفية لمحة عابرة / الدكتور محمد جواد الطريحي

المصادر : ص. ٣٠٩-٣٢٠ ؛ وكذلك في الحاشية.

١. البلاد الإسلامية - وصف رحلات. ٢. الرحالة العرب. ٣. كاشف الغطاء، محمدالحسين علي محمدرضا، ١٢٩٤ - ١٣٧٣هـجري - رحلات. ألف. كاشف الغطاء، امير شريف محمدالحسين، ١٩٨٢-، محقق. ب. الطريحي، محمدجواد محمدكاظم كاتب، ١٩٥٧م -.أدب الرُحلات النجفية لمحة عابرة. ج. العنوان. د. العنوان : نهزة المسافر ونزهة المسامر. هـ العنوان : أدب الرُحلات النجفية لمحة عابرة.

DS35.57 .K3 2015

الفهرسة والتصنيف في مكتبة العتبة العباسية المقدّسة

الكتاب: الرحلة الحجازية أو نَهزة المسافر ونزهة المسامر.

تأليف: الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء قدس سره.

تحقيق: الشيخ أمير الشيخ شريف كاشف الغطاء.

الناشر: مكتبة الإمام كاشف الغطاء قدس سره العامة «٢».

إعداد الفهرسة: علي كاظم خضير الحويمدي.

الإخراج الفني: محسن جعفر الجابريّ.

المطبعة: دار الرافدين ـ بيروت.

الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ١٠٠٠.

التاريخ: ٢١ محرم ١٤٣٧هـ/ ٤ تشرين الثاني ٢٠١٥م.

أدب الرِّحلات النجفية لمحة عابرة

للدكتور محمّد جواد الطريحي

في ضوء استقراء واقع الأدب الإنساني نكتشف محطّات هامة لِما كان يختزنه الإنسان في شعوره الباطن من التطلع لِما حوله وما يتصل بأحاسيسه تجاه المجهول من العالم.

فمنذ قدم التاريخ بدأ الولع بالرِّحلة استجابة لهتاف النفس البشرية في التأمل والإحاطة واستطلاع ما في أنحاء العالم من خلال السفر والتنقل من مكان لآخر، حيثُ ينعكس من خطاب (النص الرحلي) بيان الهوية الثقافية والاجتماعية والجغرافية والتربوية، وبالنتيجة ينتمي هذا النصّ إلى نوع من التعبير الأدبي الممتع بخصائصه الفنيّة بما يغنيه من معطيات بالإضافة إلى أنَّه يُعد وثيقة تاريخية تفتح للباحثين الاعتماد عليها في معرفة الرؤى الحضاريّة لأمة أو شعب أو جيل معين أو لسيرة شخصيّة .

وأما من حيث الإنسان الرّحالة فالرّحلة نصٌ ثقافي في إطار صورتي الذات والآخر من خلال تجليات الإبداع المعرفي لصاحب الرّحلة في صياغة الدلالات الفكرية بقدر الملكات والمواهب الذاتيّة التي يمتلكها فيما يحسنه من أداء التعبير عن مشاهداته وأحاسيسه وما يستلهمه من وعي طاقاته.

وفي ضوء ما اكتسب (أدب الرّحلات) من قيمة فنيّة فقد تميّز بالنظر إليه

مصدراً هاماً في دراسة تقاليد الأمم وعاداتها بما يفيد المعنيين بالدراسات المجتمعيّة، كما أن هذا اللون من الأدب اختلفت الإفادة منه من عصر إلى عصر؛ وذلك لأنَّ ما دوّنه الرّحالة القدماء يمثل مورد عنايتهم في الزمن الغابر مما تباين عنه في كل فترة زمنيّة[1] وما تتصف به من مؤثرات وظروف ومناهج تفكير دينيّة أو اجتماعيّة أو خلفية مذهبية وسياسية وما إلى ذلك.

وقد جرت قديماً وحديثاً سنة علماء الإماميّة وأدبائهم على الهجرة وإدراك معطياتها الايجابية مع اختلاف أسبابها بها، فقد هاجر الشّيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) من خراسان إلى بغداد ثم إلى النجف، وكان العلامة الحِلّي (ت٧٢٦هـ) يسافر ومعه المدرسة السّيارة، وسافر الشهيدان العامليان الأوّل (ت٧٨٦هـ) والثاني (ت ٩٦٥هـ) من سوريا إلى العراق ومصر وايران، وأسفار الشّيخ البهائي (ت ١٠٣٠هـ) وسياحاته مشهورة، كما اشتهرتْ هجرة الشاعر الخالد عبد المحسن الكاظمي (ت ١٨٦٥هـ) إلى ايران والهند ثم اتجه إلى مصر ليكمل سفره إلى اوربا إلا انّه مرض بها وتوطنها إلى وفاته واقباره بها بعد ان كان محل تقدير وتكريم علمائها لفضله وأدبه الرفيع.

---

(١) أشار الباحثون في هذا الصدد إلى أنَّ النظر باهمية دراسة نظرية أدب الرّحلات عند العرب والمسلمين بدأ منذ أكثر من الف عام وهو بداية ظهور هذا الجنس الأدبي في التراث العربي والإسلامي .

ويعد هذا الأدب - المختلف في نعته كذلك - نوعا من الانماط الخطابية وجنسا أدبيًا له شكله الخاص الذي يميزه عن باقي الأنواع الاخرى من حيث اعتبار الرّحلة خطابا له منطق خاص ولا نملك إلا ان نقرن الحديث عنها بنعت الطرافة لأنّها تسعى ان ترصد ما تراه عجيبا وغريبا بسبب تقمص الرّحالة شخصية القاص أو السارد.

وأما مدينة النجف الأشرف فقد شهدت عبر تاريخها الخالد العريق مضماراً واسع الأفق عريض الأطراف تتجلى صورته في ضوء ما تمتاز به وتحتله هذه (المدينة الحلم) من كونها تمثل في كيانها الحضاري بوابة معرفية عريقة تجتذب بسحر معطياتها الفكرية منذ تأسيسها في العصر الأوّل الهجري وعلى مدى القرون الأربعة عشر المتمادية إلى اليوم اجيالاً وشخوصاً تمتلك أدوات المعرفة الإنسانيّة، وملكات الألمعيّة والفضيلة فضلا عن اهتمام المسلمين بمختلف مذاهبهم ومشاربهم لبلوغ الغاية السامية بالمثول والتشرف بزيارة البقعة المقدّسة التي تضم ثرى المرقد المقدس للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بل والرغبة الطموح في المكوث والمجاورة والتوطن في الرحاب العلوي للتزود من العطاء الروحي الذي يمنح نفوس طلاب العلم والانتهال من المنهل العذب المُضَمَّخ بعطر الولاء والتعمق في دراسة علوم الشريعة الإسلاميّة وتنمية الملكة الاجتهاديّة وتطوير الرؤى الطامحة لاكتساب الخبرة العلميّة في العلوم الشرعيّة وآفاق الدراسات الأدبيّة والفكريّة وعلوم اللغة العربية.

ومن خلال ما عرضناه مختصراً من العمق التاريخي نستطيع التعرف على مرتسم الخارطة التي تشكلتْ منها آفاق الرِّحلات - من وإلى - مدينة النجف والتي يمكن تصنيفها فيه إلى أنواع بحسب الغايات التي سعى إليها الرّحالة في محاولتنا السريعة - هذه - لدراسة طبيعة الرِّحلات وميزاتها في هذه المدينة ونصل بتقسيمها إلى:

أوّلاً: الرِّحلة إلى مدينة النّجف وهي متعددة الغايات بين:

أ - المجاورة والهجرة:

حين تشرفتْ مدينة النجف بالثرى المقدّس لجدث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام اتجهتْ الأنظار من عامة المسلمين والمؤمنين خاصّة في التطلع إلى الهجرة وشرف المجاورة للعتبة العلوية المقدّسة وما ضمتْ معها وحواليها من قبور الأنبياء آدم ونوح عليهما السلام ضجيعي الإمام في قبره، وهود وصالح عليهما السلام في مقبرة وادي السَّلام، وقبور صحابة النبي صلى الله عليه وآله والتابعين[1] والأولياء والعلماء والصالحين فضلاً عمن تشرف بالدفن مجاوراً من الملوك والسلاطين والأمراء.

وأمّا الهجرة فقد امتدتْ منذ القرن الأوّل الهجري للاستجارة بالمرقد العلوي وإدامة السكنى أو المكوث لمدّة تطول عادة، خاصّة عندما بدأتْ بواكير نشأة الحوزة العلميّة وتطور النشاط الدراسي بعد ظهور القبر الشريف وازدياد عدد القاطنين واستقرار شيوخ الطائفة وسدنة العلم حتّى بلوغ الدور العلمي إلى مرقاة التقدّم التي بلغتْ أوجها بهجرة الشَّيخ الطوسي قدس سره سنة (٤٤٩هـ - ١٠٥٧م)، وفي كل المراحل التاريخية على قدمها إلى اليوم فقد تمثلتْ الهجرة من اجل طلب العلم برجال من كل أقطار شرق الدنيا وغربها، بالإضافة إلى مَنْ يقصد للتبرك بالزيارة العلوية، ومصداقها ما أشار إليه الشَّيخ كاشف الغطاء في هذه الرّحلة بقوله: (انَّ النجف فيها الأمم المختلفة والأنواع المتفرقة والعناصر المتغايرة ...

---

(١) ظ: كتاب (رجال من بقيع ثوية الكوفة د. صلاح مهدي الفرطوسي، الناشر: مركز دراسات هاني بن عروة أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به. الطبعة الأولى سنة ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

ومن لا يحظى بزيارة أهل الفضل منهم فليكن القصد زيارة أمير المؤمنين عليه السلام ...).

ب- التحصيل العلمي:

فقد عرفتْ مدينة النجف بأنَّها حاضرة العلم المتميّزة بأصالتها وعمق تواصلها مع البعد الحضاري للمنطقة من قديم تاريخها واستلهام ميراثها لمدينة الكوفة ومدرستها العلميّة التي أسستْ بالعطاء الرسالي وبنفحات ائمة أهل البيت عليهم السلام بما كان لهم من الدور الريادي من تأسيس البنى لدراسة علوم الشريعة الإسلامية وآداب اللغة العربية، ما حفلتْ به صفحات التاريخ قديماً وحديثاً من النتاج الخالد للعلماء والمفكرين ومجالس العلم وندوات الأدب العالي والمؤلفات والموسوعات في شتى فنون المعرفة الإسلاميّة من ثمرات أعلام النجف الذين ينتسبون إلى أقطار العالم، وفي ضوء هذه الحقائق نستفيد أهمية استيعاب مدينة النجف ممنْ ارتحلوا من بلدانهم وأقاموا في مدينة النجف فتَمَثَّلتْ بهم طبيعة التنوع الحضاري الكبير وديمغرافية المجتمع الإنساني بجامعيّة التحصيل العلمي في الحاضرة العلوية.

ج -الزيارة والاستطلاع:

ولما كانت النجف تضمُّ قداسة المكان فقد تهافتتْ إليه قلوب المسلمين بمختلف طوائفهم، وغير المسلمين في مختلف نزعاتهم وتوجهاتهم الفكريّة والدينيّة وأغراضهم ومصالحهم في ضوء ما نقرأه في مذكرات ومدوّنات الرّحالة

والمستشرقين[١] ورجال المعرفة وغيرهم، حيث نقف أمام محطّات هامة من الأفكار والمتبنيات والخواطر والصور والتصورات مما يغني الباحثين المعنيين بهذا المضمار الثقافي.

د- تجارياً وصناعيا:

حيث احتلتْ النجف الأشرف مكانتها الأقتصادية بحكم موقعها الجغرافي، فهي من قديم عهدها تستقبل الرواحل من البوادي وتجار البلدان المجاورة، كما يشار إلى ذلك فيما سميت بـ(المناخة) للأبل، إلى تطور الجانب التجاري اليوم باعتبارها محطة مهمة تستقبل الواردات وتنمي جانب صادراتها، وأصبح لكثير من الشركات العالمية والمحلية موقعاً فاعلاً ومؤثراً اقتصادياً.

---

(١) مثل ما أوردته الموسوعة الإسلامية الصادرة بالفرنسية عن النجف وما كتبه فكتور بيرار وبارون كارا دي فو. ـ وكتابات الرحالة مثل: جان باتيست تافرنييه وف. فونتانييه وادريان دوبريه وجان ديولافوي. وهناك كتابات للمستعربين من المستشرقين المعنيين بالشيعة وتاريخ النجف مثل جاك بيرك الذي يعشق النجف وأهلها وتقاليدهم وفكرهم وبيير جان لويزارد الذي يتبنى قضية النجف وكأنه وُلد فيها.

كما ننوه لما كتبه لويس ماسينيون والجيوبوليتيكي الفرنسي فرانسوا تيال في كتابه "جيوبوليتك التشيع" انظر بحث الدكتور قيس العزاوي: النجف كما وصفها المستشرقون الفرنسيون، الموسوعة الإسلامية الصادرة بالفرنسية عن ميزونف لاروز ١٩٧٩م، الدكتور رؤوف الانصاري: السياحة في المثلث الديني ،الدكتور حاتم كريم جياد : الإمام علي عليه السلام في كتابات المستشرقين.

ثانيا: الرِّحلة النجفيَّة:

ونقصد بها الرِّحلات التي انطلقتْ من النجف إلى أقطار العالم وقد تعددت من حيث غاياتها وحيثياتها بحسب ما تمثله من أهداف ورؤى وما سجّله أصحابها من مذكرات تشير إلى ما يعنيهم من قصد في رحلاتهم أو ما يستطيع الدارسون ان يطلعوا من خلالها على الشخصيّة العلميّة للرّحالة النجفيين ولذلك ننظر من هذه الزاوية إلى:

أ - رحلات الحجّ وزيارة الأماكن المقدّسة:

منذ أنْ صدع النبي الأكرمﷺ بالشريعة الإسلاميّة الغراء دأب المسلمون إلى أداء فريضة الحجِّ إلى بيت الله الحرام، امتثالاً لأمر الله تعالى، وقد توجهوا من بلدانهم على بعدها ومشقّة السفر في غابر التاريخ، وأما النجفيون فبالرغم من ممارستهم السفر من قديم تاريخهم لأغراض عديدة منها: التجارة والسياحة فقد تطلّعتْ أنفسهم إلى تحمّل مشاق الرِّحلات التي توجهوا فيها مستلهمين منها ما يغنيهم من خبرة ومعرفة وسعة اطلاع على ما عرف عنهم - بالذات - من دقة الملاحظة والانتباه والافادة، وما تسعه ذاكرتهم من مشاهدات يتواصلون في استذكارها من جيل إلى جيل وهو ما يفتح أمامنا أهميّة دراسة المدوّنات التي سطرها النجفيّون في رحلات الحجِّ وما فيها من المُلح والنوادر والحكايات المفيدة وما تصطف به هذه الميزة جنب ما يتطلّع إليه النجفي في رحلاته إلى تدوّين مسائل تتعلق بجوانب الدين والعقيدة والأدب والجغرافية والثقافة، وغيرها من جوانب المعرفة الإنسانيّة التي تتميز بها كل رحلة مجتمعة بهذه الموارد أو محدودة.

ومن أنموذج هذه الرِّحلات وليس على الحصر الرِّحلات الموسومة بـ(رحلات الحجّ) أو (الحجازيّة) ومنها رحلات السيد محمّد مهدي الطباطبائي الكبير بحر العلوم (ت ١٢١٢هـ) فكانت رحلته الأولى عام (١١٩٣هـ - ١٧٧٩م) وحيث لم يدرك موسم الحجّ صمم على البقاء في مكّة سنة كاملة، اجتمع عليه خلالها طلاب من المذاهب الإسلاميّة الأربعة فكان يدّرسهم في ضوء مذاهبهم وبادر إلى إقامة المشاعر وتحديدها في مِنى والمزدلفة وعرفات كما أشار إلى بناء المنائر الموجودة في المسجد الحرام لمساعدة الطائف على طوافه[1]، ثم تشرف بالحَجِّ مرات أخرى.

ورحلة الشّيخ جعفر الكبير كاشف الغطاء (ت ١٢٢٨هـ) ثلاث مرات وقد جرتْ له فيها مع علماء المسلمين حوارات وافادات علميّة، والشَّيخ محمّد طه نجف (ت ١٣٢٣هـ) وفي عودته إلى النجف ختم رحلته بقصيدته المشهورة ومنها:

تمام الحجّ ان تقف المطايا ... على أرض بها النبأ العظيم

وصي محمّد وأخوه منه ... كهارون يقاس به الكليم

ورحلة السيد أحمد حبيب زوين الحسيني (كان حيا سنة ١٢٤٧هـ) فقد توجّه للحجِّ عن طريق الحجِّ البري من النجف (عام ١٢٤٢هـ - ١٨٢٦م) ونظم أرجوزة ضمنها مناسك الحجّ وتعيين المقامات الشريفة في الحجاز وتاريخها وابنيتها، والشَّيخ سالم الطريحي (ت ١٢٩٣هـ) حيث قصد للحجِّ (عام ١٢٧٥هـ -١٨٥٨م)

---

(١) السيد فاضل بحر العلوم : مقدمة الفوائد الرجالية ، مركز تراث بحر العلوم .

وعاد إلى النجف وقد نظم أرجوزة وصف فيها رحلته والمواقع التي مرّ عليها، و(الرِّحْلَةُ المَكِّيةُ والنِّحْلَةُ المِسْكِيَّةُ) للفقيه محمد حسن كبه (ت١٣٣٦هـ - ١٩١٧م)، وللسيد محسن الأمين العاملي (١٣٧١هـ - ١٩٥١م) ثلاث رحلات حجازيّة، ورحلة السيد رضا الهندي (ت١٣٦٢هـ - ١٩٤٢م)، ورحلة السيد محسن الحكيم (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م) حيث استقبل بحفاوة رسميّة شعبيّة وتميّزت من حيث الأحداث السياسيّة التي كانت تمرّ بالعالم العربي والإسلامي عام (١٣٨٧هـ -١٩٦٧م)، وصحب السيد الحكيم صفوة من أعلام الدين في النجف عهدت لكل منهم مهمّات تتعلق بتيسير الأمور وعقد جلسات للحوار والاجتماع بالعلماء من شتى المذاهب الإسلاميّة، وقد دوّن تفاصيل الرِّحلة الحجّة الفقيه السيد محمّد جمال الهاشمي (قده) (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) في أرجوزة شعرية قاربتْ الألف بيت.

وباعتبار أنَّ السفر للحجِّ كان ربما يستغرق قديماً اشهراً تطول فتتوفر عندئذ الفرصة للأفاضل الأعلام ممن ذكرناهم في تحرير المسائل العلميّة والافاضة بالمذاكرات النافعة واستحضار المسائل بمختلف الأبعاد الثقافية.

وغير ذلك من الرِّحلات النجفيّة للحجِّ وهي كثيرة لا يسع المقام استقصاءها(١).

ولابد من التنويه إلى أنَّ رحلة الإمام كاشف الغطاء التي بين ايدينا خير مثال لهذه الرِّحلات مع تميّزها بنواحي يأتي الحديث عنها.

---

(١) أنظر (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) للشيخ الطهراني، ١٠: ١٦٨ -١٧١.

ب - رحلات التبليغ والواجبات الرساليّة والمشاركات العلميّة:

حيث أنَّ النجف كمدينة علميّة إذ يفد إليها طالب العلم فينتهل من مواردها العلميّة ثم يتدرج في مراحل دراساتها متخصصا بالعلوم الشرعيّة، ولما كان من واجبات خريجي هذه المدرسة العلمية أن ينتشروا في البلدان ليبلغوا الناس بما يهديهم إلى سواء السبيل في أمور دينهم، ومن هذا المنطلق الكريم فقد توجّه الأفاضل من أعلام النجف إلى تحقيق هذه الغاية الشريفة برحلات إما مؤقتة في مناسبات ومواسم معيّنة من أيام السنة كما في شهري محرم الحرام وشهر رمضان أو غيرها، كان يذهب البعض في العطل الأسبوعية إلى مدن معيّنة داخل أو خارج العراق بصفة الإرشاد والتبليغ أو أنّه يمارس نشاطه من خلال التزاماته بحكم تمثيله المهمة الرساليّة لانحداره من أسرة علميّة لها تاريخها من آبائه العلماء وفي الغالب يمتون بصلة النسب العشائري إلى المنطقة التي يقصدونها.

ولابد أن نشير إلى رحلات الخطابة الحسينية التي يقصد بها خطباء النجف إلى أقطار العالم منذ القديم، وما لها من الأثر الكبير في نفوس المجتمعات التي يقصدونها لما تُمثّل من أحاسيس ومشاعر فياضة نظراً لاهتمام تلك المجتمعات إلى ما يصدر عن حاضرة النجف ومرجعيتها من توجيهات وأفكار يحملها معه الخطيب النجفي الذي كان -آنئذ- لا يرقى المنبر إلا إذا مرّ بتجربة رائدة، يسهم بها في تقويم معلوماته وما يطرحه من رؤى وأبعاد حُضّار مجلسه في النجف من المراجع والعلماء الأجلاء وأهل الفضل، ولا أدل على ذلك من رحلات خطباء النجف الذين كسبوا سمعة وشهرة في البلاد العربية والإسلاميّة، وما قدّموه من خدمة جليلة لنشر المعارف الدينيّة والآداب الإسلاميّة.

وكان للشيخ جعفر الكبير كاشف الغطاء (ت ١٢٢٨هـ - ١٨١٣م) بالإضافة لسفرته بالحجِّ عدّة سفرات كان لها صدى بوجوده المبارك في تعزيز شأن الطائفة على المستوى الرسمي والشعبي منها رحلاته إلى خراسان وعموم عواصم ايران: كالأهواز وشيراز وتبريز وطهران وغيرها، وله في أكثر هذه العواصم والمدن والقرى التي مرَّ بها أحاديث ونوادر يتناقلها الخَلف عن السَلف، وكان كل القصد منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي كان شائعاً في ايران من الصوفية الزائغة عن الصراط المستقيم، المتطرفة في رفض الفرائض والنهج القويم، ما كان له من الأثر العظيم في تقويمهم وتعليمهم ونشر ألوية العلم والعدل وردع سلاطينهم عن التمادي في الجور والظلم وقد ألف كتابه الشهير (كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء) في بعض أسفاره إلى ايران وهو في الطريق وليس معه من الكتب سوى قواعد العلامة الحلّي ﵀ على ما نقله صاحب كتاب (روضات الجنات).

وقد كانت تعقد مؤتمرات أو ندوات علميّة في العالم فيدعى لها من يمثل النجف وتجري اثناءها حوارات ومناقشات علميّة وفكريّة تبرز فيها الهوية العلميّة للنجف وتظهر بها معالم الشخصيّة الحضاريّة وملامح الرؤية العقائديّة والثقافيّة.

ومن الرِّحلات المشهورة رحلة الشيخ عبد الكريم الزنجاني (ت ١٣٨٨هـ) إلى بلاد فلسطين والشام والقاهرة وما انتجته من إفادات وتطلعات فكرية.

ومن الأمثلة لهذه الرّحلات رحلة الإمام الشَّيخ فخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥هـ - ١٦٧٤م) إلى الحرمين (مكَّة والمدينة) والإقامة فيهما وانجاز بعض

تآليفه بها، ثم رحلته إلى أصفهان وفيها بدء تأليف كتابه الشهير(مجمع البحرين).

واما رحلات حركة الجهاد (١٩١٤م- ١٩١٧م) والتي دوّن الشّيخ كاشف الغطاء لها بعض المذكرات وما اعقبتها في النهضة الكبرى لثورة العشرين المنطلقة من النجف الأشرف بقيادة الزعماء والمراجع الدينية كالشّيخ شيخ الشريعة (ت١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م)، والسيد الحبوبي (ت١٣٣٣- ١٩١٤م)، وبلوغ البعض منها - في حركة الجهاد - إلى عمق الأراضي الإيرانيّة لمواجهة الاحتلال الانكليزي وشارك بها أعلام النجف كالعلاّمة المجاهد السيد عيسى كمال الدين (ت١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م)، والزعيم الديني السيد محمّد علي بحر العلوم (ت١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م) وغيرهم فقد سطرتْ صفحاتها بأحرف من نور بما حَقَّقتهُ من بناء صروح الاستقلال للدولة العراقية الحديثة.

ج - الرِّحلة إلى بلدان العالم:

منذ القدم مارس النجفيّون الرِّحلة إلى أقطار العالم بأهداف متعددة نتيجة ما تتميّز به طبيعة المجتمع النجفي إلى التشوق وحب الاستطلاع مما يمكن عده من آثار ما انطبع في ذاكرتهم من اعتبار مدينتهم محطّة واسعة الاستقبال للكثير من الزائرين لها والمقيمين فيها للمجاورة والدراسة، وهذه الظاهرة التي بدأت واضحة استدعتْ ان تبني في الشخصية النجفيّة اطاراً من البناء الايجابي لنفسية المجتمع النجفي وسمو روحيته والشعور بالأصالة والوقوف على المستوى اللائق لبناء الذات والمكانة الشخصيّة مما أصبحنا نفتقر إليه في المجتمعات المعاصرة عموماً والنادرة فيما اشرنا إليه بمستوى بلداننا المقدّسة بالخصوص.

وبناءً على ما عرضناه فقد كان للرّحالة النجفيين إلى العالم منطلقاتهم التي تتوزع بين الرِّحلة من الدراسة أو السياحة أو الهجرة أو الإقامة العلميّة بما يوفر مساحة معرفيّة نوعيّة تضاف إلى أفقهم العلمي أو ما يحقق في نفوسهم الهمة والحيويّة وما في الغربة من فوائد جمّة أهمها خلق الروح القياديّة التي هي نتائج تعزيز الثِّقة الكبيرة في النفس مما تلاحظ ملامحها في طبيعة المشاعر النجفيّة لأسباب كثيرة.

والشواهد كثيرة لا يمكن الإلمام بها - مع العجالة بالبحث - منها على سبيل المثال رحلة الحاج مهدي البهبهاني إلى دمشق الشام واهتمامه بالعناية لقبر السيّدة الحوراء زينب عليها السلام وتأسيسه مشروع انجازه تعمير المشهد الزينبي الشريف بدمشق، ورحلة الشاعر الكبير السيد احمد الصافي النجفي (ت١٩٧٧م) إلى ايران وانجازه تعريب رباعيات الخيام التي تعتبر أروع الترجمات العربية، ومن ثم هجرته إلى سورية ولبنان واقامته بهما وما بلغه من شهرة وصيتْ واسع ونشر آثاره الشعرية، ولابد من الإشارة إلى الرِّحلات العلميّة للبعثات الدراسية التي شارك بها ثلة طيبة من أبناء النجف لأقطار العالم في فترة زمنية مبكرة من تاريخ العراق الحديث كالدكتور عبد الرزاق محي الدين (ت١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، والاستاذ إبراهيم الوائلي (ت ١٩٨٨م)، والدكتور مهدي المخزومي (ت١٤١٤هـ - ١٩٩٣م) وغيرهم إلى مصر كما ان هناك نخبة من أفاضل الاساتذة الذين رحلوا إلى بلاد العالم الشرقي والغربي ممن تصدوا لتولي مناصب هامة، لا يسعنا على هذه العجالة تغطية أخبارهم، وفي جانب المشاركات العلميّة والوطنيّة في الندوات والمؤتمرات كما في رحلة الشَّيخ محمّد رضا الشبيبي (ت ١٩٦٨م) الذي كتب عنها بعنوان (رحلة

في بادية السماوة) ثم في نشاطه العلمي في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفي رحلته الموسومة (رحلة إلى المغرب الأقصى) واشترك معه بها الشيخ محمد رضا المظفر (ت ١٩٨٨م) للمساهمة بالاحتفالية الألفية لتأسيس جامعة القرويين.

الإمام الشّيخ كاشف الغطاء والرِّحلات:

تاقتْ نفس الإمام الشّيخ ﷺ للسفر والرِّحلة تعبيراً عما تحمله نفسه الزكية من طموح كبير في الإلمام والإحاطة بالمعرفة واستطلاع التجربة العلميّة والاستزادة المعرفيّة شأنه بذلك شأن المصلحين من عباقرة الرجال النوادر المتميّزين بالألمعيّة والأصالة فيما تحمل نفوسهم الكبيرة التي تعيش لتحقق المستوى المعرفي الأسمى لاستلهام الخبرة الإنسانيّة على الأفق الأرحب الذي يعيشه العالم الآخر، والافادة من ذلك في آفاق الدراسات والبحوث للعلوم الشرعية بما تتحقق به المصلحة الإسلاميّة العليا في التطوير النوعي للأساليب والوسائل التي تبني العقليّة الرائدة التي يتوخاها الدين الإسلامي من ثقافته وتطبيق تعاليّمَه الحقَّة.

وقد بدأ هذا المشوار في مقتبل عمره فكانت أوّل سفرة له إلى الحجاز التي دوّن بها هذه الرِّحلة وقد تمّ له ذلك وهو يسبر أغوار مراحل دراساته العلميّة والأدبيّة أنْ يقرأ ما عنّ له الاطلاع عليه من خلال مكتبة والده العلامة الكبير الشَّيخ علي صاحب الحصون المنيعة (ت ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م) الذي ذاع صيته بين الأوساط في عنايته واهتمامه الكبير بتنمية خزانة كتبه الشهيرة وسفراته المتواصلة إلى ايران والحجاز وتركيا والهند، من اجل الاطلاع على نفائس التراث بما يفيده خلال زياراته المتكررة للمكتبات الحافلة في الأقطار الإسلاميّة واستنساخ نوادر مخطوطاتها بيده

وقد رويتْ عنه في هذا الصدد حكايات ممتعة تصدى المؤرخون لإثباتها.

وإذا ما تعمّقنا في دراسة سيرة الإمام الشّيخ كاشف الغطاء ﵀ بتأمل هذه المحطّة الهامة من حياته فإنما نستشرف على مدى تأثير هذه التربية الأسرية التي اتسمتْ بآفاق وأبعاد واسعة مهدتْ السبيل أمامه للتطلع إلى سعة الأفق العلمي وتركتْ بصمات رائعة المعنى في صياغة شخصيّته التي امتلكتْ إضافات نوعيّة من الخبرة والمران في معرفته بالبلدان أو في ملتقياته مع الأفاضل من الأعلام الذين إلتقاهم أو حاورهم وهو ما يتضح جلياً لمن يستعرض مؤلفاته ويطلّع على فتاواه ويقرأ ما سجّله في رحلاته وما اثبته من مشاهداته.

وعندما نقف على مشارف رحلات الإمام كاشف الغطاء ﵀ في حياته نجدها قد تعددتْ بحسب مناسباتها والبلاد التي قصدها والمعطيات التي بلغها من خلال كل رحلة؛ وهي لذلك تتميّز بأنَّها في الغالب مدوّنة من قبله مع اهتمامه بخصوصيّات مقاصدها التي هدف إليها وقد أفاد واستفاد منها على ابلغ مستوى من النتائج التي كانت نفسه الطاهرة تطمح إلى تحقيق أهداف ضحى من اجلها بالغالي والنفيس من الجهد الجسمي والنفسي حتّى بلغ في تضحياته الكبيرة بروحه الغالية إلى ما يسمو نحوه من المثل العليا التي كانت حياته ضحية لها مما يعرفه الأفاضل ممَنْ تصدى لدراسة حياته.

وللحقيقة فقد كانت أوّل سفرة له خرج بها من النجف سنة (١٣٢٨هـ - ١٩١٠م) إلى مدينة بغداد، وأمّا رحلاته التي قام بها وكان لها من الأهمية بناءً على ما دوّنه فيمكن أن نلخصها بما يلي:

أوّلاً: رحلة الحجّ الحجازيّة (١٣٢٩هـ-١٩١١م)

وهي هذه الرِّحلة محل التقديم والعرض بهذه الصفحات، فقد بدأ بها من النجف يوم السبت التاسع والعشرين من شهر رمضان المبارك من السنة التاسعة والعشرين والثلاثمائة والألف هجرية وبعد أداء مراسم الزيارة للإمام الحسين وأخيه ابي الفضل العباس (عليهما اشرف الصلاة والسلام) في كربلاء وخروجه منها يوم الخميس الرابع من شهر شوال متجها إلى مدينة الكاظميّة، ومنها كانت الرِّحلة إلى الشام ثم أتمّها حيث توفق لأداء فريضة الحجّ كما دوّنها بما يتمتع القارئ اللبيب متنقلاً بين صفحاتها التي نمّقها الشَّيخ ﵀ بقلمه السيّال وأسلوبه السهل الممتنع وسنعرض لمزاياها.

ثانيا- رحلته في ربوع سورية ولبنان ثم زيارته إلى مصر وقد بدأها بعد الفراغ من مناسكه حيث عرج على دمشق وبقي فيها وفي بيروت زهاء شهرين، ثم ألقى عصا السير في صيدا وأستفرغ وسعه واستوعب وقته لطبع مؤلّفاته في مطبعة العرفان للاستاذ الفاضل الشَّيخ أحمد عارف الزين فطبع جزءين من كتابه (الدين والإسلام) وطبع في بيروت الجزء الأوّل من كتابه (المراجعات الريحانية) والثاني في صيدا بعد تعرفه بهذه السفرة على الفيلسوف الريحاني والمداومة والتناوب بينهما بتلك المراجعات البديعة، وساعد واشرف على نشر عِدَّة نفيسة من كتب الأدب النادرة كـ(الوساطة بين المتنبي وخصومه) للقاضي الجرجاني، و(ديوان سحر بابل وسجع البلابل) للسيد جعفر الحلي، و(ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي)، وله على كل منها تعاليق لامعة وشروح نافعة.

ثم سافر من صيدا إلى القاهرة وبقي فيها أكثر من ثلاثة أشهر وحضر على أكابرعلمائها كشيخ الأزهر الشيخ سليم البشري (ت١٣٣٥هـ - ١٩١٧م) وكان

مُعمّراً تجاوز التسعين، ومفتي الحقانية العلامة المحقق الشيخ محمّد بخيت المطيعي (ت ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م)، يقول الشيخ ﵀: لم أجدْ في مصر عالماً محققاً مثله يباحث أصول الفقه عصراً في جامع رأس سيّدنا الحسين ﵇ والتفسير بين المغرب والعشاء في الجامع الأزهر وله مؤلفات طبع أكثرها.

وكان الشّيخ كاشف الغطاء بعد الفراغ من درس شيخ الأزهر بالتماس جماعة من طلبة الأزهر يباحث في الفقه مرة وفي الفصاحة والبلاغة أخرى وتجتمع في حوزة درسه الجماهير وقد لمسوا منه علماً جماً جديداً، وأسلوباً طريفاً ومنهم القاضي الشرعي في تلك الآونة الاستاذ احمد محمود شاكر(ت ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م)، ودراسة النجف وان كانت تشابه دراسة الأزهر من ناحية لكنّها تختلف عنها في نواح كثيرة.

وكان سماحته مدّة توقفه بمصر يهجم على نوادي التبشير التي كانت تنعقد كل ليلة في كنيسة من كنائس الأمريكان ومدارسهم، ويعترض على الخطيب المبشر ويرد عليه مطاعنه على النبي ﷺ وعلى القرآن في اثناء خطبته بمحضر جماهير المستمعين من النصارى والمسلمين، وفي إحدى الليالي التمسه القسيس الأكبر ان يقطع المعارضة حتّى ينتهي خطيبهم من برنامجه المقرر ويفسح له المجال بعد ذلك للجدال، وبعد أنْ فرغ ذاك من خطابته تقدّم سماحته إلى منصّة الخطابة وفنَّد كل ما رمى به الإسلام من الافتراء واخذ في نقد مذهب النصارى وذكر أنَّ أساسه يبتني على أمرين:

أحدهما- مستحيل عقلاً وهو التثليث (ثلاثة أقانيم) اله واحد والواحد بالضرورة لا يكون ثلاثة والثلاثة لا تكون واحداً إلا على التركيب والوحدة

الاعتبارية، والتركيب يقتضي الفقر والإمكان وهو ينافي الوجوب.

أالـــه مركـــب مـــا ســـمعنا   بآلـــه لذاتـــه أجـــزاء

فأين هذا من دين الإسلام دين التوحيد الخالص شهادة ان لا آلـه إلا الله وان محمّداً عبده ورسوله صار عبداً فصار رسولاً بالعبوديّة.

وثانيهما- خرافة لا تقبلها بسائط العقول وهي: ان لا اله سلط عباده الأشقياء على نفسه فصلبوه ليكفّر خطيئة أبيهم آدم وخطيئات بني آدم ثم صار ملعونا لأنّه قال: ملعون كل من يصلب على الخشبة كما هو النصّ في الاناجيل.

ثم أفاض في ذكر مثالب الاناجيل وسخافة ما فيهما من المهازل -التي أشار إلى بعضها في كتابه (التوضيح في بيان ما هو الأنجيل ومَنْ هو المسيح؟) الذي طبع جزؤه الأول في القاهرة، والثاني في بغداد- وبينما هو منحدر كالسيل في هذه الأساليب جاء إليه احد أكابرهم وقال: يجب ان تنتهي لان الوقت هنا محدود وقد تجاوز الحد فلم يعبأ به وبقي مستمراً في خطابه فكبسوا على زر الكهرباء وأطفأوا المصابيح وصار الناس في ظلام دامس يسحق بعضهم بعضا، وأحاطتْ النصارى به ووقعتْ عليه تريد الفتك به وما نجا إلا بلطف من الله تعالى، وبعد اللتيا والتي خرج من الكنيسة التي كانت اكبر نوادي التبشير وخطيبها (منصور القبطي) المشهور عندهم ونجا من الخطر وعزم على مغادرة مصر آخر صفر سنة (١٣٣١هـ - ١٩١٣م) فالتمسه الشَيخ محمّد بخيت المطيعي (مفتي الحقانية) على البقاء إلى نصف ربيع الأول كي يشاهد مراسيم الحفلات التي تقام في عيد المولد النبوي الشريف وهو من أيام القاهرة الزاهرة وتقصده السواح من اوربا وغيرها وفي آواخر شهر ربيع قفل راجعا إلى صيدا وفي أواخر شهر رجب رجع إلى العراق.

ثانيا: الرِّحلة الجهادية (١٣٣١هـ-١٩١٣م)

في ٩ تشرين الثاني نوفمبر ١٩١٣م أرسلت السلطات العثمانية من البصرة برقية إلى علماء الدين في المدن المقدّسة تخبرهم بخطر الغزو من قبل البريطانيين، وفي ١٤ تشرين نوفمبر الموافق ٢٥ ذي الحجة ١٣٣٢هـ تم احتلال القوات البريطانية للفاو، وفي ٢٨ من الشهر المذكور تحرك المجاهدون عن طريق بغداد بقيادة كل من شيخ الشريعة (ت١٣٣٩هـ- ١٩٢٠م)، والسيد علي الداماد (ت١٣٣٦هـ - ١٩١٧م)، والسيد مصطفى الكاشاني (ت ١٣٣٦هـ - ١٩١٧م)، وموفدوا المرجع السيد محمّد كاظم اليزدي (ت ١٣٣٧هـ - ١٩١٨م)، وهم كل من ولده السيد محمّد (ت ١٣٣٤هـ- ١٩١٥م)، والشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء (١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م)، والسيد إسماعيل اليزدي، وبعض الطلبة للتصدي للاحتلال البريطاني.

وحينها بدأت حركة جهاد العلماء أبان الحرب العالميّة العامة لمناهضة الاحتلال الانكليزي الذي حاصر العراق بجيشه على مدينة البصرة وقد توجّهت جموع المجاهدين بصحبة العلماء نحو محاور متعددة في المدن العراقية، وكانت مساهمة الإمام كاشف الغطاء خلالها توجّهه إلى مدينة الكوت تلبية لنداء الجهاد بصحبة شيخ الشريعة، والسيد محمد نجل السيد اليزدي ﷺ وقد حوصر الانكليز فيه، والقائد يومئذ خليل باشا.

ثالثا: رحلة المؤتمر الإسلامي في القدس الشريف (١٣٥٠هـ - ١٩٣١م):

حيث وردت للإمام كاشف الغطاء ﵀ الدعوة من المجلس الأعلى في فلسطين لحضور المؤتمر الإسلامي ليلة المبعث فلبى الدعوة وسار ليلة أوّل رجب وضربت الخيام خارج النجف وخرج العلماء والأفاضل وجميع الطبقات لمشايعته وسارتْ معه أكثر من ثلاثين سيارة إلى بغداد ونزل الحسينية الكبرى في الكرخ، وبعد ثلاث ليال خطب في احداهن خطبة ارتجاليّة استغرقتْ ثلاث ساعات بحفل حاشد ثم سار إلى القدس واستقبله المفتي محمّد أمين الحسيني (ت١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م) وجميع العلماء والأعيان ونزل في تكية البخارية التي يتولاها الشّيخ يعقوب البخاري بجوار المسجد الأقصى، ثم تتابع مشاهير علماء الإسلام الذين دعتهم اللجنة التحضيرية للمؤتمر من الأقطار الإسلاميّة من الغرب والشرق وبالأخص من مصر والشام ولبنان وبغداد والهند والحجاز واليمن وايران، كالعلامة السيد حبيب العبيدي (ت١٩٦٣م) مفتي الموصل، والسيد محمد زيارة ممثل إمام اليمن (ت ١٣٨١هـ -١٩٦١م)، والسيد رشيد رضا (صاحب مجلة المنار) (ت ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م)، والشّيخ نعمان الأعظمي (ت ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م)، ومحمّد بهجت الاثري (ت ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)، والواعظ حسن رضا، وفخامة ضياء الدين الطباطبائي رئيس وزراء ايران (ت ١٩٦٩م)، وشوكت علي الهندي (ت ١٩٣٨م)، والشاعر محمد اقبال لاهور الهندي (ت ١٩٣٧م)، وغير هؤلاء من أعلام علماء الإسلام وقد بلغ عدد أعضاء المؤتمر زهاء مائتين ثم تواردتْ الوفود من فلسطين والأردن والعواصم الكبرى مثل حيفا ويافا ونابلس وجنين وغيرها، حتّى بلغ الجميع سبعين الفاً اجتمعوا كلهم في المسجد

الأقصى، وامتدتْ صفوف المصلين إلى خارجه وبعد الفراغ من المغرب ارتأى كبراء ذلك الحفل ان يرقى المنبر احد أعضاء الوفد ويخطب في ذلك الجمع ويشغل فراغ الوقت بين المغرب والعشاء، وبعد المداولة وقع الاختيار على الإمام كاشف الغطاء ﷺ فاتاه سماحة المفتي محمّد أمين الحسيني، ومفتي نابلس الشّيخ محمّد تفاحة وكان من اكبر علماء فلسطين سناً وشهرةً وصلاحاً ومعهما المراقب في المسجد الأقصى، وطلبوا أنْ يصعد المنبر ويخطب فاعتذر بعدم الاستعداد ولاسيّما في مثل هذا الحشد العظيم الذي يرتج فيه أفصح البلغاء مع التهيؤ والاستحضار فكيف مع المفاجأة، فلم يسمحوا له بالمعذرة ولم يجدْ بدا من الإجابة فرقى المنبر وذلك الحفل الحاشد كلّه أبصار شاخصة إليه وآذان صاغية له، والحق انَّه موقفٌ رهيبٌ يخرس من هيبته كل خطيب، ولكن لانقطاعه إلى الله - جل شأنه - وطلب المعونة منه أفاض الله عليه ففتح خطبته بقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (الاسراء: ١) واستمر يفيض بسحر البيان حول قوله عزّ شأنه: (باركنا حوله)، وذكر أنواع البركة وشرحها بشرح وافٍ ثم قال: ومنها هذا الاجتماع الخطير من الجم الغفير من مختلف الأقطار النائية والذي لم يخطرْ على بال ولم يقعْ في التصور، واستوفى ما هو الغرض منه وما الهدف الذي يرمي إليه والآثار التي ترتبت عليه ومضى على هذا في مُدّة ساعة ونصف يرتجل الكلمات البليغة ارتجالا ويوالي بين المعاني المبتكرة سجالاً لم يقفْ ولم يتلعثمْ في ذلك الحفل الرهيب حتّى جاء وقت العشاء ولوحوا له بذلك، ولولا مزاحمة الفريضة لاستمر في خطابه إلى ما شاء الله؛ ولما انحدر من ذروة المنبر اجتمع أكابر الجمع

يشكرونه وقالوا له: قد تقرر بتصويب الأكثريّة أنْ تكون أنت الإمام والجميع يقتدي بك في جميع الفرائض اليوميّة ما بقينا في القدس، فتقدّم وصلى بهم صلاة العشاء واقتدتْ به الألوف من الصفوف وصار حدثاً تاريخيّاً لم يسبقْ له نظير ولم يتفقْ أنَّ علماء الإسلام جميعاً على اختلاف عناصرهم ومذاهبهم اتفقوا على الاقتداء بإمام من الإماميّة مع تباعدهم عن هذه الطائفة من أوّل يوم الإسلام إلى هذا اليوم، وكانت له ضجة في الآفاق وصدى بعيد في العالم وحسبتْ له الدول الغربية أكبر حساب وإذاعته في ساعته الصحف البرقية واللاسلكية.

ثم خطب أيضاً خطبته التاريخيّة أثناء انعقاد المؤتمر التي طبعت عِدَّة مرات، وبعد خمسة عشر يوماً أمضاها في القدس تجوّل في ضمنها في حيفا ويافا ونابلس ثم قفل راجعا إلى جنين وصور فبيروت فدمشق وبغداد وفي كل منها تقام له الحفلات والدعوات والهتافات ويصلي بهم ويخطب فيهم بعد كل فريضة، واستقبله رتل من السيارات من النجف وكربلاء وبغداد من الفلوجة والرمادي، ونزل أيضاً في حسينية الكرخ الكبرى واجتمع الجماهير فيها ليلاً وفيهم جمع من العظماء والوزراء والأعيان والصحافيين والأدباء وخطب خطبة بليغة استغرقتْ ساعة واحدة استهوى بها الألباب، وخطب في الليلة الثالثة خطبته التي استغرقت ثلاث ساعات، وفي الليلة الرابعة من شهر رمضان ورد كربلاء وخطب في دار السادة آل الشهرستاني في اجتماع عظيم وخطبة خطبة عظيمة، وفي الليلة الخامسة ورد النجف وجلس لوفود التهاني في دار آبائه الكبيرة عدّة ليالي وتليتْ غرر القصائد وقد أبدع الشعراء في تهانيه وتفتقت قرائحهم بهذا الفتح المبارك والظفر الكبير، وقد جمع من احسن ما قيل في تلك الحفلات من

قريض وزجل أكثر من عشرة آلاف بيت وأشادوا وأجادوا في الإشارة إلى إمامته واقتداء علماء المذاهب في المسجد الأقصى كقول الشّيخ محمّد علي اليعقوبي (ت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م) من قصيدة غراء:

قد قدموك أمامهم بصلاتهم ... علما بأنّك في الأنام إمام

وقبله معالي الشَيخ محمّد رضا الشبيبي (ت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م) من قصيدة أبدع فيها كل الإبداع:

تقدم إماما في العلوم مصلّياً ... وقل لصفوف العالمين بي ائتمي

ويقول في جملتها:

رسا هضبة حلم الحسين محمّد ... فقل هو بحر العلم أو هضبة الحلم

مليك ولكن بالجلال متوج ... وان مثّل العليا بصورة معتم

تطرف يسعى للمكارم جده ... ولم يتكل فيها على الجد والعم

وفي العاشرة من شهر رمضان أقام له سيّد الأشراف المرحوم السيد محمد علي بحر العلوم (ت ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م) حفلة باهرة في المسجد الهندي، وخطب سماحته في الجماهير أروع خطبة، وفي شوال أقام له أهالي مدينة الكوفة احتفالاً في المسجد الأعظم في الكوفة حضره أكابر العلماء والوجهاء من النجف والكوفة وخطب خطبته الموسومة (خطبة الاتحاد والاقتصاد).

رابعا: الرِّحلة إلى ايران (١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م)

حيث غادر الإمام كاشف الغطاء ﭫ النجف قاصداً التشرف بزيارة مرقد الإمام علي بن موسى الرضاﭺ في مدينة مشهد المقدّسة، وهي أوّل سفرة له، وقد توقّف في كل بلدة من ايران وخطب بعد صلاة الجماعة واقتداء علمائها به مثل مدينة كرمانشاه وهمدان وغيرهما، وعاد من خراسان إلى طهران ثم منها إلى مدينة قم، وقام بضيافته آية الله آلشَّيخ عبد الكريم الحائري اليزدي (ت ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م) وقدّمه ليلة لصلاة الجماعة في الصحن الشريف للسيّدة معصومةﮆ وخطب بعد الصلاة خطبة أعجب بها علماء قم كل الإعجاب، ثم عرج على مدينة اصفهان وأصيب بنكبة تردي السيارة التي يستقلها من الجبل في طريقه إلى مدينة شيراز فبقي فيها للمعالجة أكثر من شهرين في دار السيّد الجليل الرضوي، وصلى في جامعها الأعظم مسجد الوكيل يوم وفاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالبﭺ واقتدى به جميع علمائها وأهاليها ومَنْ حولها من القرى وصلى بهم صلاة العيد وخطب خطبة باللغة الفارسيّة، وأخرى باللغة العربية.

وفي أوائل شهر ذي القعدة خرج من شيراز إلى كازرون ثم إلى بوشهر وأبحر منها إلى المحمرة وعبادان وبقي ثلاثة أيام في المحمرة وصلى وخطب فيها وفي حسينيّة عبادان، ثم توجّه إلى البصرة فاغلقتْ أسواقها وهرعت على بكرة أبيها لاستقباله على حدود ايران وفي طليعتهم المرحوم العلامة الشّيخ عبد المهدي المظفر (ت١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م)، ونزل في داره وصلى وخطب في مسجد مقام أمير المؤمنين عليﭺ، وثانية في جامع الإمام ثم توجّه إلى الناصرية بالقطار وصلى وخطب في جامعها وكان في ضيافة الوجيه الحاج طالب ومثل ذلك في

الديوانية والحلة حتّى وصل النجف.

ولابد من الاشارة إلى أنَّ زياراته إلى ايران تعددت بعد هذه الزيارة ففي سنة (١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م) سافر مرة ثانية عن طريق مدينة كرند القريبة من قصر شيرين بحدود العراق وكانت له التفاتة طيبة فقد اطلع على مسجد لم يبق من آثاره إلا تل من التراب فسعى إلى تشييده بأحسن بناء وما خرج من البلد حتّى صلى فيه جماعة عشرة أيام، وجاء من أهالي كرمانشاه جمع غفير من تجارها وأخيارها يحملون الأعلام بالتهليل والتكبير قبل طلوع الشمس من يوم عيد الفطر، فصلى بهم صلاة العيد وخطب بالفارسيّة أبدع خطبة وصنع لهم وليمة فاخرة الزعيم أمير احتشامي.

وكانت له سفرة ثالثة إلى ايران سنة (١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م) لزيارة الإمام الرضا عليه السلام وكان بضيافة السيد صالح الشهرستاني (ت ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) وفي الإياب عند سيّد العراقيين وقد كان الاحتفاء به على المستويين الشعبي والرسمي بحفاوة بالغة.

خامسا: الرِّحلة العلاجيّة إلى لبنان (١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م)

حيث وصلها لمراجعة الأطباء والاصطياف بربوعها، وحل ضيفاً عند الزعيم أحمد بك الأسعد، وقد احتفلت به الأوساط العلميّة والشعبيّة وعقدتْ ندوات ومحافل بحضوره.

سادسا: الرِّحلة إلى باكستان (١٣٧١هـ - ١٩٥١م)

وردتْ إليه دعوات متكررة من علماء باكستان فأجاب الطلب خاصّة وأنَّها دولة إسلاميّة حديثة، فشخص إليها رغم ما ألم به من وهن وضعف، وكثرة انشغاله بمهمات مرجعيته ومسؤولياته الواسعة، فتوجّه إلى بغداد ثم منها إلى البصرة حيث سافر بالطائرة إلى كراجي فاستقبله في المحطّة أكابر علمائها، ثم خطب في مؤتمر العلماء خطبة عصماء ترجمت إلى سبع لغات في الهند وطبعت بالعربية، وكان لها اكبر الأثر في عموم الهند، ثم رغبت إليه الحكومة الباكستانية أنْ يتجول في كبرى بلدانها بضيافتها، فتوجّه إلى مدينة لاهور ثم إلى راول بندي ثم إلى كشمير الحرة (مظفر آباد) ثم إلى بيشاور ثم عاد إلى كراجي ومنها آبَ عائداً إلى البصرة فبغداد ووصل النّجف بعد أربعين يوماً.

وحينما نستقرئ هنا هذه الرِّحلات التي قام بتحمّل ثقل أعباء السفر فيها الإمام كاشف الغطاء فانما نكتشف مدى تطلّعه إلى اكتشاف واقع الأمة الإسلاميّة والعربية آنذاك والشعور بما تحتاجه المجتمعات فيها من حلول للمشاكل، وما تعصف بها من ظروف صعبة مليئة بالمحن والفتن خاصّة وأنَّ الفترة الزمنيّة التي تنقل بها كانت تمثّل أهميّة كبرى لما كان يستجد على ساحاتها من مؤامرات ومكائد تُحاك من قبل الدوائر الاستعمارية بغية الوقوف تجاه حركة النهضة واليقظة في عالمنا الإسلامي وتأخير عجلة التقدّم والتطويرعلى المستوى الفكري والعملي بمختلف توجهات الطموح الرائد التي كان للإمام كاشف الغطاء أمله الكبير بتجاوز الواقع الأليم الذي آلت به إلينا اليوم الفجائع والكوارث التي تحرق الحرث والنسل.

سابعا: الرِّحلة الأخيرة إلى ايران (١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م)

كان لشعوره الفيّاض بثقل المسؤوليّة التي تَحمّلها من خلال زعامته الدينيّة ومرجعيته المتميّزة ومعالمها في التصدي لمواجهة التيارات الضالة والحاقدة على الشيعة والتشيع، وإحساسه بالواجب الديني في التوجيه والتعاطي مع الأحداث بروح الإخلاص والتضحية والتفاني المبدئي - شأن أساطين المرجعية الدينية - كل ذلك فضلاً على إصراره بانجاز أعماله وما اعتاد عليه مما سبب له الإجهاد بالإضافة إلى شيخوخته، فكانتْ هذه العوامل سبباً في تردي صحته مما اضطر الأطباء بالنصح والاشعار له بضرورة اخضاعه للفحوصات فادخل مستشفى الكرخ ببغداد قبل شهر من وفاته، ثم لظروف فسرت بخضوعه للنقاهة والإبلال من المرض - بالرغم من امتناع الأطباء عن السماح له بالخروج - كان ان سافر الشّيخ إلى ايران ليلة السبت ١٦ شهر ذي القعدة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م فوصل إلى قرية (كرند)، ومن أروع ما نستذكر هنا استمرار دفقه الأدبي وعدم نضوبه بعد ان اشغلته الزعامة الدينية، ففي هذه السفرة على قصرها وجلوسه على عين فوارة أهاجت حسّه الأدبي فانطلق يغرد بقصيدة تعرب عن خواطر عميقة في حياته، وبعد نظمه لها بعشر ساعات فاضتْ روحه وقد بدأ النظم بقوله: (إنَّ قريحةَ الشاعر كعين الماء ان استعملت فارت وان اهملت غارت)، وقد اخترنا من القصيّدة بعض الأبيات :

يدهش اللب من كرند جبال ... مثل قلب البخيل جلمود صخره
كم دروس منها استفدتُ فكانت ... فكرة ثم عِبرة ثم عَبره
ياجبال الأجيال والدهر يعدو ... للفنا وهي في البقا مستقره

وقفــت والزمــان يمشــي عليهــا   راكضــاً وهــي في البقــا مشــمخره

إلى قوله:

إنَّ هــذا الوجــود بحــرٌ ولكــن   أيــن مَــنْ في الوجــود يسبر قعــره

ولهــذي الحيــاة معنــى ولكــن   علمنــا بــالمهات نعــرف سرّه

وما ان مضتْ عليه ليلتان فيها حتّى اعتراه عارض مفاجىء ارتحلتْ روحه الزكية إلى بارئها راضية مرضية صباح ليلة الاثنين ١٨ ذي القعدة ١٣٧٣هـ ونقل جثمانه إلى بغداد وحمل على أعناق المؤمنين بحضور مهيب وفي مقدّمته مختلف الطبقات الرسميّة والشعبيّة من منطقة السيّد سلطان علي إلى محطّة القطار متوجهين به إلى كربلاء وكانت مدينة متأهبة ومتحمسة تموج بالازدحام من المشيعين ومواكب العزاء، وكذلك حين وصول الموكب إلى مدينة النجف الأشرف حيث دفن في مقبرته الخاصّة التي أعدها في وادي السلام، وطويت بموته صفحة مشرقة بالعظمة والاصالة العلميّة والأعمال الصالحة، وانطوت بفقده راية الإصلاح والجهاد الديني ومن الحق لعظم المصاب ان نختار بعض ما أرَّخَهَ الشَّيخ علي البازي بقوله:

هتف النعي بفقد من كشف الغطا   للمسلمين وقد اذيع بيانه

فتنكّست أعلامها لمصابه   واغبر من افق العلى كيوانه

وتعطّلت أحكام شرعة أحمد   والدين أعول مذ قضى عنوانه

والشرع أذهله المصاب ووقعه   إذ جلببته بالشجى اشجانه

كتب القضا مُذْ أرخوه (ببابه   بعد الحسين تهدمت أركانه)

الميّزات الفنيّة للرِّحلة:

ومن استقراء فصول الرِّحلة الحجازيّة الممتعة (نهزة المسافر ونزهة المسامر) في اطار الأسلوب الذي سجّله الشَّيخ بما كان يضفيه من براعة بيانه الفني واستعمال السجع الذي هو كالسهل الممتنع، والوصف البارع والإشارة إلى بعض المعاني والملامح العرفانيّة مع امتياز الرِّحلة بالمذاكرات العلميّة والمباحثات التي توفرت أسبابها بوجود أستاذه الشَّيخ المازندراني، وتدوين ما اطلع عليه الشيخ من التعرّف على المشاهد والمزارات والمساجد لأهل البيت‍ﷺ وللصحابة والأولياء، كما تضمّنت نظم الأبيات أو القصائد الشعرية في موارد متعددة، وكان الشَّيخ يبادر بنفسه إلى الاستطلاع شخصيّاً بما يحكيه مثلاً لما يشاهده فيقول: (ولا تسل عن انبهار البابنا والاكثار من تعجبنا وما ادري ماذا اصف وماذا أقول .. ومهما كتب البليغ أو قال فما هو ببالغ إلى الحكاية عن بعض صورة الحال ... وفي أوّل هذا الموضع اقنعتُ زميلي فنزلنا وترجلّتُ من قبتي الخشبيّة وبقيتُ أتأمل وأتصفح واتفحص وأعجب وأبتهر من عمل الطبيّعة بأمر ربها ...[1] الخ.

حيث يمكن ان نلخص استعراضنا لما امتازت به بما يلي:

أوّلاً: اهتم الشَيخ بالاستطلاع في كل مدينة أو قرية يدخلها ويسجّل بدقة واستيعاب موارد واستنتاجات وربما مقترحات كما أشار لها في رحلته، حيث يثبّتْ في أسلوبه الأخاذ إفادات جغرافية وآثاريّة وتاريخيّة، ومنها عندما مرّ على مدينتي هيت وعانة قوله: (واقسم لو أنَّ أهل العراق أمعنوا واكبوا على هذه البقاع واستصلاحها واستخراج ثمراتها لأوجبت لهم الثروة الطائلة على سائر الأمم

---

(١) ينظر: ص٦٧ من الكتاب.

ولكن - أصلحك الله - أين وأهل العراق اليوم أحوج من تلك المعادن التي في تربتهم إلى مَنْ يقوم بتربيتهم ويعنى بصالحهم ويسعى في تقويم أودهم في انفسهم...)(١)

ثانياً: واشارته الهامة إلى افادته من هذه الرّحلات حيث يعبّر عن ذلك (وحصل لي من الفكرة والعِبّرة هناك ما لم يتهيأ لي في مطالعة الكتب ومراجعة الكتب على ممر السنين وطول الليالي والأيام)(٢).

ومن ذلك قوله (وكانت الشمس قد أزفت ان تغيب فانتهيت إلى عينين هناك شاهدتُ فيهما عجائب الحكمة وغرائب القدرة وسبحت لرب الطبيعة كل جوارحي وأعضائي وحواسي ومشاعري ... .

ثالثاً: مما تميّزت به هذه الرّحلة تواصل الشّيخ كاشف الغطاء في أثناء السفرة بالمذاكرات العلميّة التي توفرتْ له من خلال الحوار بينه وبين احد الأعلام الذين صحبهم وهو الشّيخ المازندراني(٣) وقد تضمّنت محاور متعددة في العقيدة والتفسير والفلسفة والفقه والأدب.

رابعاً: ارتسمت على ما دوّنه الشّيخ في رحلته سمات الفصاحة والبلاغة في الأُسلوب والتعبير والأداء البارع في براعة التدوين وسلاسة العبارة وايضاح الفكرة ودقة الملاحظة مما هو معلوم لمن توفر لدراسة هذه الجوانب الفنيّة

---

(١) ينظر: ص٦٦ من الكتاب.

(٢) ينظر: ص٦٧ من الكتاب.

(٣) من اساتذة الشيخ كاشف الغطاء ترد ترجمته في الرحلة.

خاصَّة للدارسين لسيرته الفكريّة والمعنيين بتسجيل الحياة الحضاريّة في عصره في ضوء افاضاته ومقالاته وخطبه ورسائله وكتبه بما عُرف عنه في التميّز والإبداع من جوانب ألمعيته التي انفرد بها عن أقرانه في المكانة العلميّة بما كان يمثل نسيجاً وحده، فقد كان يعد من ابرز أئمة البيان في عصره الذي ربما لا يجود بهم الزمان إلا نادراً.

خامساً: في غضون صفحات الرِّحلة سنكتشف أنَّ الشّيخ كاشف الغطاء كانت له محطّات تأمل فيها مستعرضاً ما عَنّ له مشاهدته لأمكنة مرَّ عليها في طريقه ووقف عندها واصفاً لما حلتْ فيها من مقامات ومزارات لأهل البيتعليهم السلام ومنها: مقام كف الإمام عليعليه السلام في هيت ، ومقام الإمامعليه السلام في الزاوية قرب آلوس، ومقام آخر في منطقة نهيّه، وما شاهده في الجامع العمري الذي أفاد بأنَّه تفوح فيه نصف الليل ونصف النهار عند الظهر رائحة طيبة وذلك لانَّ رأس سيّد الشهداء الإمام الحسينعليه السلام قد وضع فيه من نصف الليل وارتحلوا به نصف النهار حين ساروا به إلى الشام.

ومما أشار إليهرحمه الله بمشاهداته في الحجرة النبويّة بوصف دقيق ومن ذلك ما يصف به ناحية الوجه الشريف بوجود فوهة مفتوحة من الستار أطول من شبر تتكشف عن مشكاة في الصندوق الشريف فيها جملة من الجواهر النفيسة منها (اليتيمة المعروفة) وهي بقدر بيضة الحمام تتلألأ في الليل من أضوية داخل الحجرة تلألأ باهراً، ومكتوب فوقها هذا قبر رسول الله ... ثم يشير إلى قبر الصديقة الزهراء (صلوات الله عليها) في صندوق مستقل خلف الظهر عند الرجل

داخل الحجرة قبالة بابها وتحت الرجلين عرض اسطوانة في طول أربع. وهناك مقام جبرئيل وبابه ومهبط الوحي وبيت النبي صلى الله عليه وآله منه إلى موضع قبره الشريف عرضاً، والى قبر بضعته الزهراء عليها السلام طولاً وبيت أمير المؤمنين عليه السلام من موضع قبر الصديقة الزهراء عليها السلام إلى باب النساء عرضا وبين بيته وبيت النبي فاصل قليل بقدر عنزة كما ورد في بعض الأخبار - والعنزة أطول من العصا واقصر من الرمح -.

سادساً: وقد قام بعمل إحصائية دقيقة للمحطّات التي كان يمرُّ عليها القطار حينما استقله بسفره من المدينة إلى سوريا.

وأما المذاكرات العلميّة التي اشرنا إليها فيمكن اجمال عناوينها إلى:

١- مسألة علم الله تعالى بالحوادث والجزئيات مع تغيّرها وتبدلها.

٢- مسألة أنَّ الحقَ -جل شأنه -الوجود المطلق بشرط لا أو مطلق الوجود لا بشرط.

٣- دليل التضايف.

٤- مذاكرة في تفسير آية الحجّ (ولله على الناس ...) .

٥- مباحثة في مسائل الحجّ بكتاب الدروس للشهيد الأول.

٦- مذاكرة في استطاعة النذر.

٧- افادة في فلسفة معنى الوتد وحقيقته وما في الوتديّة من الحكم والأسرار في الجبال.

٨- مسائل الشافعي في المسح في الوضوء، والاستحالة، ودليل المتعة، والرؤية لله تعالى، ومسألة الوحدة الإسلامية، ومذاكرة عن شعر الإمام الشافعي في أهل البيت.

٩- تأملات في ديوان حافظ الشيرازي (لسان الغيب) وانّ لله تعالى علمين مخزون ومكنون وعلم متصل بسلسلة الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات.

١٠- مذاكرة حول مسألة الأسماء الألهيّة والصفات الربوبيّة.

١١- شرح الحديث القدسي (كنت كنزاً مخفياً ...).

١٢- شرح حديث (حُبب إلي من دنياكم ثلاث ....).

١٣- مناظرة مع احد الاسماعيلية البهرة من اليمن.

١٤- مذاكرة مع السيد محسن الأمين في دمشق حول جواز اجراء عقد البيع بالفارسيّة، ومسألة النون في قوله تعالى (واياي فاتقون)، ومسألة عن آية الوضوء.

١٥- مذاكرة في عمرة التمتع.

١٦- مسألة الأسماء والصفات وحدوثها وقدمها.

إلى غير ذلك من الافاضات العلميّة.

وخشية الاطالة أود ان احيل الأخ القاريء الكريم إلى ما تضفي عليه قراءة (النهزة) الغالية بما يسعده من (نزهة) وبهجة تدخل القلب وهو يتنقل بين سطورها التي أبدع بصياغتها القلم الخالد باسلوبه السهل الممتع الممتنع، وبيانه الرائع، وبلاغته الرائقة بما عرف به بين الأوساط العلميّة وما عمّت الآفاق شهرته قدس سره.

وأخيراً وليس آخراً ارفع اكف الضراعة للمولى القدير بالتسديد والتوفيق وحسن الختام لما فيه خدمة العلم والعلماء.

مع تقديم الدعاء والشكر للأخ الفاضل الشَّيخ أمير كاشف الغطاء - حفظه الله- على صبره وتفانيه في خدمة تراث الآباء ولحسن ظنّه بالداعي المحب .. .

محمّد جواد الطريحي

العتبة الحيدرية الشريفة (على مشرفها الصلاة والسلام)

غرة شهر رمضان المبارك ١٤٣٥هـ - ٢٩-٦-٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يسِّرْ بعونك ومعونتك.

بين يدي القاريء الكريم رحلة احسب أنّها من أهم كتب أدب الرِّحلات عن مدينة النجف الأشرف - ينبوع العلماء والمجتهدين ومدرسة الشيعة الكبرى - وقد رأيتُ من واجب الوفاء أن أقدمها لما احتجنت بين دفتيها من معلومات علميّة وأدبيّة وأخرى عقائديّة.

ولم اشأ أن أترجم لمؤلفها الإمام الشيخ محمّد الحسين كاشف الغطاء (قده) فهو - كما احسب - لا يحتاج إلى تعريف، وقد كتبتْ عنه الكثير من الدراسات الرصينة، ونوّهت بشخصيته العديد من كتب التراجم، والأدب.... .

عنوان هذه الرِّحلة:

قال الشيخ كاشف الغطاء في كتاب (عقود حياتي): (... وكتبتُ في سفري هذا رحلتين إحداهما:

عامّة سمّيتُها (نهزة السفر ونزهة السمر) ونسختها موجودة عندنا لم تطبع لهذا التأريخ.

والثانية: خاصّة في مصر وما شاهدتُ فيها من العجائب والآثار، ومَنْ لقيتُ بها من العلماء والأدباء، وهي رحلة نفيسة أخذها مني بعد رجوعي من مصر إلى بيروت (باترماولي) صاحب (جريدة المراقب) لينشرها في عدده الممتاز، فشنق

مع شهداء سوريا بظلم جمال السفاح، ولم تكن عندي نسختها وبالأسف إنها ذهبتْ سُدى، واستمر سفري هذا الذي خدمتُ فيه الدين والعلم والأدب خدمات جلى زهاء ثلاث سنوات...)[1].

وقد ذكر الشيخ محب الدين الخطيب شيئاً عن رحلة الشيخ إلى مصر في تحقيقه كتاب (المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال) ١٨٨ - ١٨٩، نذكر نصّه مع تحفظنا على ما ورد فيه من رؤى تكذبها الشواهد، قال: (زار القاهرة قبل الحرب العالمية الأولى الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، وكنتُ أنا وهو في صدر شبابنا، فكان يتردد يومياً على مكتبتنا وكانت حينئذ في شارع عبد العزيز؛ لأن نزعة العروبة كانت تجمع بيننا وكان يملي عليّ ما ينظمه في شكوى العرب من الترك.

ومن ذلك قصيدة له:

فيا قريش الحمس يالغالب ... ويا ليوث تغلب ووائل

ما ترك الترك لكم حمية ... وما أفادوكم سوى التخاذل

ألا مساعير يثورون لها ... بسلة البيض وهز الذابل

وهي طويلة.

وتعرّف عندنا بشيخنا الشيخ طاهر الجزائري وأحمد تيمور باشا (رحمهما الله) فدعانا أحمد تيمور إلى قضاء يوم في منزله بعين شمس، وفي أثناء السمر هناك توسع كاشف الغطاء في الحديث عن أدباء الشيعة ومؤرخيهم وشعرائهم، وافتخر

---

(١) عقود حياتي: (٩٩ - ١٠٠).

بان عددهم أكثر من نسبة عدد الشيعة إلى مجموع أهل السنة، فقال له الشيخ طاهر: ليس العبرة بكثرة عدد الأدباء والمؤرخين والشعراء، بل بكثرة من يقيم الحق ويتحراه صادقا مخلصا أينما ذهب به الحق ولو خالف مذهب طائفته، قال الشيخ طاهر: ونحن قد راقبنا سيرة أهل العلم والأدب في مختلف الطوائف فرأينا أكثر ما خولف به الحق تعصباً وتعنتاً كان من ناحيتكم؛ بل لاحظتُ أنَّ كل أديب ومؤرخ منكم يرى فرضاً عليه أنْ يخترع ما لم يسبقه إليه سلفه من خبر موضوع أو قصّة مخترعة تشويها لسيرة السلف، فإذا رجعنا إلى الكتب المتقدّمة عليه لا تجد لذلك أثراً، فكان الواحد منهم يرى من زكاة تشيعه أنْ يخترع ما يشين سيرة خيار المسلمين ليتناقله الناس بعده ويحسبه الجاهلون حقاً. ولو شئنا أنْ نعد في رجالكم من تنطبق عليه هذه الأوصاف لا نكاد نجد أحداً)[١].

وقد وقفتُ على جملة من مراسلاته مع أعلام مصر، وفيها ذكر شيئاً عن رحلته إلى مصر والدرس في حوزتها.

وللرِّحلة التي نقدّمها أسماء متعددة منها: (نهزة السفر ونزهة السمر، ونزهة المسامر ونهزة المسافر، والرحلة الحجازية).

وفي كتاب (الدين والإسلام أو الدعوة الإسلاميّة) قال عنها في الهامش مانصّه: (وقد ذكرنا بعض هذا الكلام في هذا الحديث في رحلتنا الحجازية

---

(١) ظ: (المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض أهل الرفض والاعتزال وهو مختصر "منهاج السنة"). تأليف: تقي الدين أحمد بن تيمية (٦٦١ – ٧٢٨هـ)، اختصره الحافظ أبو عبدالله محمد بن عثمان الذهبي (٦٧٣ – ٧٤٨هـ)، حققه وعلّق حواشيه ووقف على طبعه (محب الدين الخطيب).

الموسومة بـ(نهزة الأسفار ونزهة السمّار)[١]، وفي كتابه (الآيات البينات في قمع البدع والضلالات) قال: (سانحة سفر ومانحة ظفر، في رحلتنا الحجازية التي أنشنأها لحجٍّ بيت الله الحرام ولنشر الدعوة الإسلامية...)[٢].

والمشهور والشائع الغالب في تسميتها (نهزة السفر ونزهة السمر)، وهو ما اخترناه عنواناً لها.

وقد اشار الشيخ الطهراني إلى هذه الرِّحلة في كتابه (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) إشارة عابرة وبسيطة أحال فيها إلى كتاب الدين والإسلام[٣]، وأشير إلى أنَّ الشيخ الطهراني صاحب (الذريعة) لم يذكرْ الكثير من مؤلفات الشيخ كاشف الغطاء المطبوعة والمخطوطة في كتابه (الذريعة)، وربما عاد السبب إلى عدم وقوفه عليها.

وصف النسخة

النسخة المعتمدة في التحقيق

١- اعتمدتُ في تحقيق هذه النسخة على النسخة المحفوظة في خزانة مخطوطات مكتبة المؤلِف العامَّة برقم (١١٦٠)

نستعليق، بخط المؤلف ﵀، سنة ١٣٣٠هـ =١٩١٢م، كتبها على اوراق مختلفة، وقد سلّمت - والحمد لله- من طوارق الحدثان، عدا سقوط نصٍّ منها أشرتُ إليه

---

(١) ظ: الدين والإسلام أو الدعوة الإسلامية، ١: ٢٧٧).

(٢) ظ: عقود حياتي (٩٩ -١٠٠).

(٣) ظ: الآيات البينات في قمع البدع والضلالات (رد الملاحدة والطبيعية) ص٢٢.

في محلّه، وفيه وصف لـرجوعه من المدينة ودخوله إلى الشام.

الصـفحات الأربعـة استنسـخها مـرتين، كتـب علـى الصـفحة الأولـى أبيـات للحماني علي محمّد العلوي الكوفي (ت ٣٠١هـ = ٩١٤م)، وإسحاق بـن إبـراهيم الموصلي، وبعد صفحات كتب أسم الرِّحلة (نهـزة المسـافر ونزهـة المسـامر) ثـم كتب الآية الشـريفة (قـل هـو الـذي يسـيركم فـي البـر والبحـر)، عليهـا علامـات الشخط على بعض الكلمات والعبارات وتصحيحها، كما أضاف بعض الهوامش. عليها ختم صاحب (الحصون المنيعة) البيضوي، وختم مكتبة ولده الشيخ محمـد الحسين كاشف الغطاء.

٩٥ق. ٢١س مختلف. ٢١،٥ طول مختلف× ١٣،٥سم عرض مختلف.

٢. النسخة الثانية في كشكوله (الكناشة) وهي غير تامة.

منهجية التحقيق:

١-تخريج الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة في النصِّ.

٢-ضبط النصّ والتعريف بإيجاز بالأماكن الواردة فيه، وبحسب ما تيّسر لدي من مصادر.

٣-التعريف بالأعلام والكتب الواردة في النصّ.

٤-وضع العناوين المناسبة لفقرات النصّ.

٥-وضع الفهارس الفنيِّة للاماكن والأعلام.

شكر وتقدير

مكتب سماحة الإمام السيّد علي الحسينيّ السيستانيّ (دام ظله) في النجف الاشرف.

فضيلة الشيخ الوالد الشيخ شريف كاشف الغطاء (حفظه الله).

ومن واجب الشكر والامتنان الشكر والتقدير لكل من ساندني وساعدني في تحقيق هذه الرِّحلة وأخصّ بالذكر منهم:

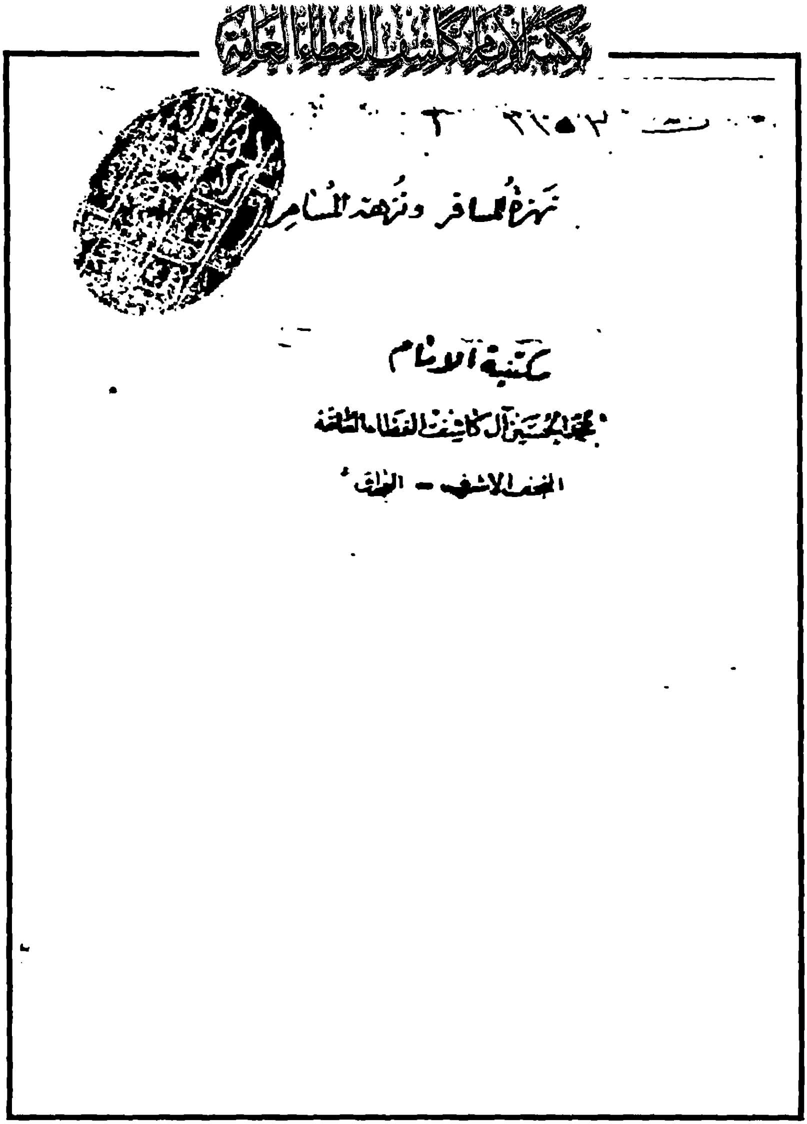
الأخ الاستاذ الفاضل محمّد رضا القاموسي لمواكبته ومتابعته معي في التحقيق، والاستاذ الدكتور عباس هاني الجراخ، والأخ العلاّمة السيّد عبد الستار الحسني الذي أفدتُ منه بعض الملاحظات.

وجزيل الشكر للأخ الدكتور محمّد جواد الطريحي على تفضّله بكتابة مقدّمة الكتاب، وسماحة السيد مهدي البحراني والاستاد حيدر الجد.

الأخ الأستاذ المحقق الفاضل عبد العزيز العال الذي زوّدني الكثير من المصادر المهمّة وبخاصّة الكتب التي عنيت بمعالم الحجاز، والأخ المحقق الاستاذ أحمد علي مجيد الحلي.

وفقنا الله لإحياء تراثنا ومنه نستمد العون والتوفيق.

نماذج من النسخة المعتمدة



صورة الصفحة الأولى من المخطوط

٦. [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم هو الذي يسيركم في البر والبحر قال سبحانه من قائل لخليله ابراهيم (ع)
وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق قال الشاعر العربي القديم

اذا كنت معنياً بأمر تريده فما للمضاء والتوكل من مثل
توكل وحمّل امرك الله ان ما تراد به يأتيك فاقنع بذي الفضل

١٣٤٩

خرجنا من النجف بعون الله تعالى وتسهيله لحج بيته الحرام ضحوة يوم السبت ٢٥ من شهر الله المبارك
حتى تشرفنا بلثم اعتاب سيد الشهداء (ع) وخرجنا من كربلاء عصر الخميس ٤ شوال حتى لثمنا اعتاب
الامامين الكاظمين (ع) وبعد مساعدة الاستخارة ومعاضدة الاستشارة عدلنا عن البحر وعزمنا
على البر ودخلنا في حمل الحاج عظيم دوشي حلاد من اهل الكاظمية بمقطع ثمانية وثلثين ليرة
على حمل الخشبتين لنفرين مع حمل وزنة اسباب من الكاظمية الى تمام المعارج في مكة المشرفة

وعقب تهيئة لوازم سفر البر من الخيام والتعريفات والمزادا والازواد وغيرها ما يطول بيانه
وتلك شؤون تشتت اللب جمعها ولم تجتمع الا بتفريقها كلاً

وفي نهار الخميس الحادي عشر من شوال ضربنا الخيم خارج واحضرت الرحل والرواحل والزوامل والزاد
وخرجنا ليلة الجمعة بعد وداع الامامين والالتجاء في طلب النجاح الى الله جل شأنه بهما فبتنا في
خارج المخيم تلك العشية وقد احضرت لوازم التشريفات للزائرين من الحلويات والقهوة
واقبل المودعون من ذوي الشرف والنجابة من اهل بغداد والكاظمية على اختلاف الاصناف
من العلماء والافاضل والتجار والاماثل وفي ذلك اليوم تحرك عزم بعض الشبان من ارحامنا
من عائلة آل كبة فالتحق بنا هو ووالدته ودخل في اياليتنا وحملنا على التسليم ... علينا
فكانت عناية وتوفيق من الله جل شأنه في دعوته ولم يكن بين نيته وعزمه وبين سيره وجزمه الا
سويعات وجاء معه من بغداد جماعة من المشيعين فبتنا تلك الليلة في الوادعة والمناجاة
والسمر والسهر الى ان مر الهزيع من الليل وربما وضعنا على الارض جنوبنا طلباً للراحة
وقبل ان تنطبق على الكرى جفوننا اقمنا قيام القطار واصوات الظعن لحمل الاثقال

الصفحة الثانية من المخطوط



صورة الصفحة الأخير من المخطوط

اللهم باسمك الساري السائر

الباطن الظاهر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [سورة يونس، من آية ٢٢]

قال سبحانه من قائل لخليله إبراهيم عليه السلام:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [سورة الحج، آية ٢٧]

قال الشاعر العربي القديم:

إذا كنتَ معنيّاً بأمرٍ تُريدُهُ ... فما للمضاءِ والتَّوكّلِ مِن مثلِ

توكّلْ وحمّلْ أمرك الله إنَّ ما ... تُراد به يأتيك فاقنع بذي الفضل[1]

النَّجف الأشرف - كربلاء المقدّسة - الكاظمية المقدسة

خرجنا من (النَّجف) بعون الله تعالى وتسهيله؛ لحجّ بيته الحرام ضحوة يوم السبت ٢٩ من شهر الله المبارك سنة ١٣٢٩ هـ[2]؛ حتّى تشرّفنا بلثم أعتاب سيِّد

(١) البيتان لظالم بن عمرو (أبي الأسود الدؤلي) ت ٦٩ هـ.
أنظر: (الأغاني ١١: ١٠٥ و ١١١، وديوان أبي الأسود الدؤلي ٢١٠).

(٢) ١٣٢٩هـ = ١٩١١م.

الشهداء ﷺ وخرجنا من (كربلاء) عصر الخميس ٤ شوال حتّى لثمنا أعتاب الإمامين الكاظميّن ﷺ، وبعد مساعدة الاستخارة ومعاضدة الاستشارة عدلنا عن البحر وعزمنا على البرّ، ودخلنا في حمل الحاج عطية دوش ـ حملدار[١] من أهل (الكاظميّة) ـ بمقطع ثمانٍ وثلاثين ليرة على حمل الراحلتين الخشبيتين لنفرين مع حمل وزنة أسباب[٢] من (الكاظميّة) إلى تمام العمل في (مكّة المشرفة).

وغَبَّ تهيئة لوازم سفر البر من الخيام والقريوغات[٣] والمزاد[٤] و الأزواد[٥] وغيرها مما يطول بيانه.

وتلك شُؤونٌ شتّت اللُّبَّ جَمْعُها ... ولم تجتمعْ إلا بتفريقها مالي[٦]

الخروج من الكاظميّة المقدّسة

وفي نهار الخميس الحادي عشر من شوال ضربوا الخيم خارج [البلدة]، وأحضرتْ الرحل والراحلة، والزوامل[٧] والزاملة[٨]، وخرجنا ليلة الجمعة بعد وداع الإمامين والالتجاء في طلب النجاح إلى الله - جل شأنه - بهما، فجلسنا في

---

(١) الحملدار: المتعهد بالقافلة وإدارة شؤونها.

(٢) الوزنة: هي من المقادير والأوزان باصطلاح أهل العراق ومقدارها ٢٤ حقة، والأسباب: أسباب السفر من اللوازم والحاجات التي يحتاجها المسافر.

(٣) القريوغه (القريولة): كلمة تركية تطلق على الاريكة المستخدمة للمنام، والجمع قريولات.

(٤) المزاد: اناء حمل الماء وحفظه اثناء السفر.

(٥) الزاد (الزوادة): ما يتم حفظ الطعام فيها اثناء السفر.

(٦) لم أعثر على قائله.

(٧) الزوامل جمع الزاملة: وهو البعير المزَمَّل بالأحمال.

(٨) زاملة: متاع.

خارج المخيّم تلك العشيّة وقد أحضرتْ لوازم التشريفات للزائرين من الجاي[١] والقهوة، وأقبل المودّعون من ذوي الشرف والنجابة من أهل بغداد، والكاظميّة على اختلاف الأصناف من العلماء، والأفاضل، والتجار، والأفاضل[٢]، وفي ذلك اليوم تحرّك عزم بعض الشبان من أرحامنا من عائلة (آل كُبَّة)[٣] فالتحق بنا هو ووالدته، ودخل في ايالتنا وحملنا على التسليم والرضا بكل ما لنا وعلينا فكانت عناية وتوفيق من الله - جلّ شأنه - في دعوته؛ ولم يكن بين نيّته وعزمه، وبين سيره وجزمه إلاّ سويعات، وجاء معه من (بغداد) جماعة من المشيّعين فبقينا تلك الليلة في المودعة والمشايعة، والسمر والسهر إلى الساعة السادسة من الليل (غروبية)، وريثما وضعنا على الأرض جنوبنا طلب الراحة، وقبل أن تنطبق على الكَرى جفوننا، أقعدنا قيام القطار وأصوات الظُّعُن لحمل الأثقال، فودّعنا مَنْ بات معنا هنالك من الخاصَّة، وركبنا بتسهيل الله - جلّ شأنه - والاتكال عليه، وسرنا في السابعة من تلك الليلة، وأخذنا على نقطة المغرب من (الكاظميّة) بخط،

---

(١) يريد (الشاي) لا بالجيم الفارسية، وأصل التسمية غير عربية.

(٢) كذا وفيها تكرار.

(٣) آل كُبَّة: من الأسر العربية العريقة بالمجد والسؤدد ينتهي نسبها إلى ربيعة، ويرجع عهدها إلى أيام الدَّولة العباسيّة، ولرجالها يد بيضاء في تشجيع الحركة الأدبيّة، وكانت أفراحهم واتراحهم مواسم أدبيّة وأسواق عكاظية تتسابق فيها الشعراء، وألف فيها السيد مهدي بن داوود الحلي (ت ١٢٨٩هـ - ١٨٧٢م) كتاباً سمّاه (مصباح الأدب الزاهر)، وألف ابن أخيه السيد حيدر الحلي (ت ١٣٠٤هـ - ١٨٨٦م) كتابيه (دمية القصر في أدباء العصر)، و(العقد المفصل في قبيلة المجد المؤثل)... .

ظ: (ديوان السيد موسى الطالقاني ص١٤).

والدته من (آل كُبَّة) وهي بنت الوجيه جعفر كُبَّة، كانت خطيبة النساء في المحافل.

ظ: (عقود حياتي ص ٢٩ - ٣٠).

وقبيل الفجر عبرنا (نهر الوشّاش)[١]: وهو النهر الّذي ينتهي إلى (الخرّ)[٢] ويبتدئ مجراه من مفاضة (هورعَقَرْقُوف)[٣] الممتدة من زيادة الفرات. وبعد ساعتين من طلوع الشَّمس نزلنا في فلاة على قرب تلك المفاضة من كثب التل المعروف بـ(تَلّ عَقَرْقُوف)[٤]، الّذي يُرى ما عليه من العمارة القديمة من مسافة فراسخ، وكان رِواؤنا ذلك اليوم من ماء تلك المفاضة، وأرضها مالحة وماؤها مجّ وبئ.

الـفَلّوجَة

وعلى هَنٍ وهَنٍ قَضَيْنَا نهارنا هناك وجملة من اللَّيْل إلى الثالثة منه حتّى أتينا (الفَلُّوجَة) أزيف طلوع الشَّمس وصلّينا في شرقي الفرات فريضة الصبح، ثم عبرنا راجلين إلى جانبه الغربي على جسر أوهى من بيوت العناكب لا يستطيع أن

---

(١) قال (الو مسيل) في كتابه الفرات الاوسط ص٢٢٣: (إنَّ فرع الوشاش من طريق نهر القرمة ، ويتفرع هذا النهر نفسه من الفرات عند الصقلاوية وتقع بين هذه القرية والوشاش مجموعة قرى وحقول...).

(٢) نهر الخر: ويُسمّى شطيطاً سابقاً، كان نهراً كبيراً يمتد تأريخه إلى العهد العباسي، بعد أن كان بعرض (٢٠ م) قبل فترة الستينيات تقلص ليصبح بعرض (٥ م) في السبعينيات، ثم تم طمره نهائياً عام (٢٠٠٢م) بعد أن جف الماء فيه وأصبح مجمعاً للفضلات والمياه الآسنة.
ظ: (الموسوعة الحرة، وكيبيديا).

(٣) هور عقرقوف: هو هور للفيضانات التي تتسرب من نهر الفرات في نهر عيسى فتملأ (هور عقرقوف)؛ فتهدد الجانب الغربي من بغداد بالغرق؛ فاستخرج لها في أيام الأتراك العثمانيين مجرى يمتد نحو الجنوب فيتصل بدجلة... .
ظ: (دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً، لـ مصطفى جواد وأحمد سوسة، هامش ص٢١٦).

(٤) تل عقرقوف: بقايا المدينة الكشية (دور كوريكالوز) التي أسست أوائل القرن الخامس عشر ق. م.
ظ: (دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً ص٥).

يمشي عليه الراجل فضلاً عن الراكب، وضربنا الخيام على جانبه الغربي، ورجعنا عصراً إلى البلد للسياحة فيها والوقوف على بعض شؤونها، وكان في ذلك الحمل وتلك القافلة شيخنا العارف المتألّه الربّاني صاحبنا القديم الشَّيخ (علي أصغر الهزارجريبي المازندراني)[١]، - أدام الله لي أيام افاداته ومتعني بثمار العلم والمعارف من صحبته وبركاته - وكان من أحد أسباب اختياري لذلك الحمل طلب الحظوة بصحبته والحرص على طول الزمان بخدمته، وكان له عليّ في القديم حقِّ التعليم[٢]، وكانتْ من إحدى العنايات من المولى - جلّ شأنه - ان قدّر وقضى له بالحجّ في هذه السنة، ويسّر لنا الاجتماع واطلاع كلّ على عزيمة الآخر؛ فكنّا - بفضله ومنّه - ننزل في منزل واحد ونظعن في ظعن واحد، ولا نكاد نفترق، وكلٌّ منّا آنسٌ بالآخر أشدّ الأنس، وقد وجدتُه كما عهدتُه هو وتمام صحابته ومن معه من عشرائه ورفقائه على اقتراح المُقتَرح في كرم الأخلاق، ولطافة الطباع، وكلّ ما يطلب ويراد من الرفيق في الطريق، فنسأله -

---

(١) عالم وعارف وفاضل جليل، (توفى حدود سنة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م).

تربى في حجر والده الشيخ علي أكبر (ت ١٣٢٠هـ) واخذ عنه المقدمات، ثم قرأ الفقه والأصول على السيد عبد الكريم اللاهيجي، والحكمة والكلام على الشيخ علي النوري، والميرزا هاشم المدرس، ثم تشرف بالنجف الأشرف فمكث ثلاث سنين حضر على الشيخ محمد كاظم الخراساني والسيد كاظم اليزدي.

كان يمتاز بالأنصاف والأذعان إلى الحق وحسن التعبير، ودقة الملاحظة وصفاء الذهن، وعدم الجنوح إلى المراء والجدل السفسطي.

ظ: (طبقات اعلام الشيعة، نقباء البشر ١٦: ١٥٧٨).

(٢) قال الشيخ كاشف الغطاء عنه في عقود حياتي ص ٦١: (ثم أستوفيتُ أكثر (شرح المنظومة) عند النحرير الفاضل الشيخ علي أصغر المازندراني...).

تعالى - أن يسفر سفرنا هذا عن أحسن الوجوه وأسنى الغايات والمقاصد بوجهه الكريم وفضله العميم - إن شاء الله تعالى - وكنّا بحمد الله وتوفيقه في أكثر الأوقات لا ننفك عن مذاكرة علميّة حكميّة أو غير حكميّة، وكانت مذاكرتنا عصر ذلك اليوم في مسألة علمه - تعالى - بالحوادث والجزئيات مع تغيّرها وتبدّلها وعدم لحوق التبدل والتغير بكل أنحائه لذاته المقدّسة ولا لصفاته؛ ولهذا قال بعضهم: - معاذ الله - بعدم تعلّق علمه تعالى بالجزئيات؛ استصعاباً للمسألة وعجزاً عن حلّ هذه المعضلة، وبالجملة فقد خضنا فيها وإن لم نأتِ على تمامها.

ثم نهضنا للعبور والدخول في البلد ونحن نتجاذب البحث في مسألة أخرى جرّنا الخوض إليها وهي: (أنَّ الحقَ - جلّ شأنه - هو الوجود المطلق بشرط لا أو مطلق الوجود لا بشرط) وهذه من أمهات مسائل التوحيد، وهي التي انساق النزاع فيها وقام على ساق بين أكابر العرفاء ومشايخ العرفان والحكمة العصريين الكبيرين (الشيخ علاء الدَّولَة السمناني)[١]، و(الشيخ محيي الدين الأعرابي)[٢]،

---

(١) أحمد بن محمّد بن أحمد بن محمّد البيابانكي: الشَّيخ ركن الدين علاء الدولة السمناني (ولد سنة ٦٥٩ هـ - وتوفي سنة ٧٣٦ هـ أو ٧٤٦ هـ)، العارف الصوفي.
له مؤلفات منها: العروة الوثقى، وتفسير القرآن (مدارج السالكين) وغيرها.
ظ: (الذريعة ٩: ٧٣٣).

(٢) أراد به (ابن عربي): وهو محمّد بن علي بن محمّد ابن العربي، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقب بالشَّيخ الأكبر، فيلسوف من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسية بالأندلس سنة (٥٦٠ هـ = ١١٦٥م)، وتوفي في دمشق سنة (٦٣٨هـ = ١٢٤٠م).
له نحو أربعمائة كتاب ورسالة، منها: (الفتوحات المكّية - ط) عشر مجلدات، في التصوف وعلم النفس، و(محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار - ط) في الأدب، مجلدان، و(ديوان شعر - ط) أكثره في التصوف، و(فصوص الحكم - ط)، و(مفاتيح الغيب - ط) وغيرها.
ظ: (الأعلام ٦: ٢٨١ - ١٨٢).

حيث ذهب الأوّل إلى الأوّل والثاني لمثله، وطالتْ الخصومة تحريراً بينهما، وقد ذكر صدر المتألهين[١] في (الأسفار)[٢] جملة من محاوراتهما، وببالي أنّه في الآخرة سلك مسلك الصلح بينهما، وكان السمناني يقول: إنَّ الوجودَ بشرط لا ذاته، ولا بشرط فعله، وبشرط شيء أثره.

وقول العلاء (السمناني): هذا عندي أسمى وأعلى وأشدّ انطباقاً على ظواهر الشرائع. أما شيخنا الفاضل المتقدّم فكان يميل إلى الثاني وأقام على ذلك برهاناً طال بيننا الردّ والإيراد وبقي كلٌ على اختياره.

ثم دخلنا (الفلّوجَة) عصراً فوجدناها قرية صغيرة على شرقي الفرات على قرب المرحلتين ونصف من (بغداد) وهي ناحية ترجع إليها، وآثارها تنبيء عن قدمها واتساعها؛ بيد أنَّها اليوم خربةٌ باليةٌ وفيها جامع للجمعة فيه مأذنة عالية وإمام جماعة هو مدرّس، وخطيب ومؤذن، وأهلها بين شيعة وسنة من الإسلام، ويهود ونصارى من غيرهم، لهم العمارات الأنيقة على (الفرات) كما هو الشأن في كل بلاد الإسلام.

وتلك لعمر الله إحدى المصائب

---

(١) صدرالدين محمّد بن إبراهيم بن يحيى الشهير بملا صدرا الشيرازي، (المولود ٩٧٩ هـ - المتوفى ١٠٥٠ هـ)، كان من تلاميذ الشيخ البهائي، والمحقق الميرزا الداماد.
ظ: (الطبقات، القرن الحادي عشر ٨: ٢٩١-٢٩٢).

(٢) (الاسفار الأربعة) أو (الحكمة المتعالية) قال ملا صدرا فيه: إنَّ للسلاك من العرفاء والأولياء أسفاراً أربعة: أحدها: (السفر من الخلق إلى الحق)، وثانيها: (السفر بالحق في الحق)، وثالثها: (السفر من الحق إلى الخلق) ورابعها (السفر بالخلق في الحق).
ظ: (الذريعة، ٢: ٦٠).

ورأينا على جرف (الفرات) المركبين المُعدين للسير إلى مسكنه.

أحدهما: مطروح معيب، والآخر: لا يسير لقلة الماء. وبين (بغداد) و(فَلُّوجَة) نقطة للحكومة فيها عِدَّة من المبدرقة[1] (الجندرمة) لمحافظة الطريق.

ثم رجعنا وصاحبنا إلى محطّتنا ونحن نتذاكر في (دليل التضايف) الّذي تمسّك به صدر الحكماء على اتحادّ العاقلُ والمعقول ودفع ما أورده عليه (المحقق السبزواري رحمه الله)[2]، ومع الخوض الطويل فالإشكال بعدُ لم يندفعْ بتاتاً.

الرمادي

ثم بعد أداء المكتوبة وتناول العشاء والنوم القليل رحلنا ليلة الأحد ١٤ شوال، أواخر أيلول وسرنا عامَّة ليلنا حَتّى وصلنا بعد الشَّمس بساعتين إلى (الرّمادي)[3]: وهي قرية كبيرة أو بلدة صغيرة قضاء من أقضية (بغداد)[4] ببعد ميل عن الفرات تقريباً، وفيها عمارات كثيرة بالجص والحجارة مرتفعة أنيقة وأكثر بيوتها قروية

---

(١) البدرقة: - من الكلمات المولّدة - وهي الجماعة التي تتقدم القافلة وتكون معها، تحرسها وتمنعها العدو... .

ظ: (مجمع البحرين ٥: ١٣٧).

(٢) محمّد باقر بن محمّد مؤمن الخراساني السبزواري (توفي سنة ١٠٩٠هـ)، كان عالماً فاضلاً حكيماً متكلماً، وفقيهاً أصولياً، محدّثاً نبيلاً، أصله من سبزوار وسكن أصبهان إلى أن اعتلى أمره عند السلطان الشاه عباس الصفوي الثاني، ففاز بامام الجمعة والجماعة ... .

ظ: (الكنى والالقاب، القمي ٣: ١٥٩ — ١٦٠).

(٣) الرمادي: مصرّها مدحت باشا والي بغداد، سنة (١٢٨٦ هـ/١٨٦٩م - ١٢٨٨هـ/ ١٨٧٢م)، ظ: (العراق قديماً وحديثاً، عبد الرزاق الحسني، (الرمادي) ص٢٦٧ — ٢٦٩).

(٤) محافظة الرمادي: تعرف اليوم بـ(الأنبار) ولا تُعَد من اقضية بغداد.

بالطين والطوب[١]، وأكثر أهلها عرب من (الدليم)[٢] وهي على غربي الفرات تستقي من جدول منه كان قد جفّ يوم ورودنا، وكان السير إليه من (الفلّوجَة) على خط المغرب في الجانب الغربي من الفرات المُسَمَّى (بطرف الشاميّة)، والشرقي بـ(الجزيرة)، وأكثر أراضي (الرّمادي) مزارع وفيها قليل من البساتين والنخيل، وأهلها بين إسلام وهم الأكثر وكلّهم من السنّة والجماعة، وبين يهود ونصارى، ودخلنا البلد عصراً وجلنا في أوساطها وأطرافها وإذا هي في غاية السعة والنزاهة، والعمارات الشامخة الأنيقة، والأسواق الكبيرة الواسعة؛ ولكنها على وضع القرى حُجر مفتوحة على الأزقة العريضة الغير المسقفة. ثم رحلنا منها ليلة الإثنين الرابعة من الليل وأخذنا ما بين المغرب والشمال والجدي والفرات عن أيماننا، وسرنا ليلنا كلّه فوصلنا [قبل] طلوع الشَّمس إلى جبال من الصخر القوي المعروف بـ(المرمر) فقطعنا تلك الأهوال على أشق الأحوال، وكانت تلك الجبال مطلّة على سفح أنيق زاهٍ بالرمل النديّ والخضرة اليانعة، والفرات ينساب انسياب الايم[٣] في الرمال ويتلوى تلوي الأفاعي.

---

(١) الطُّوبُ: الآجر (الطين).

(٢) الدليم: قبيلة كبيرة تقطن على طرفي الفرات بين فلوجة والقائم، ويقول الدليميون: أنَّهم جاءوا من جزيرة العرب من الموضع المسمّى الدليميات في نجد قبل خمسة قرون، وهم على قسمين: النزَّالة، والرحالة.

ظ: (العراق قديما وحديثا ص٢٦٦).

(٣) الايم: من الحيات، الأرض الملساء اللطيفة الناعمة.

هيت

فما زلنا نعلو ونهبط حتّى وصلنا قريب الظهر إلى (هِيت)[١] وهي: قرية كبيرة على جبل صخري عال صلد يطلّ على شط الفرات، والماء يضرب في أصله.

و(هيت) ناحية ترجع إلى (الرمادي) وفيها بساتين كثيرة أكثر غرسها النخل تستقي من نواعير منصوبة على الفرات، وهي في غاية الغرابة وعجيب الصنعة من العلوّ والارتفاع والسَّعةِ، كل واحد منها يبلغ قطره ثلاثين متراً؛ ولهذا يسقي البساتين المرتفعة عن الشط بعداً شاسعاً تعجز النواضح وغيرها عن جرّ الماء إليه، وهو يسقي تلك البساتين والمزارع ليلاً ونهاراً من دون مؤنة مال ولا مواظبة أحد بل يحرّكه الماء بقوة التسكير[٢] بالصخور فيحمل الماء إلى العلوّ ويلقيه في الساقية، وهكذا لا ينقطع ليلاً ونهاراً، ولا يعمل فيه أحد وهي من صنع أهل تلك البلد، أمّا البلدة ففي غاية الضيق والاستقذار والعفونة، وأكثر أزقّتها ضيقة منحدرة مسرّحة تنتهي إلى الشط، وفي البلد جامع[٣] وفيه مأذنة قديمة عالية جداً يراها الرائي من مسافة فراسخ في قُنّتها صخرةٌ فيها أثرٌ موضع كف يزعمون أنه كفّ (أمير المؤمنين عليه السلام)، أمّا تشريفه لـ(هِيت) فغير بعيد في غزواته إلى (صفين)؛

---

(١) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير و خيرات واسعة، سمّيت بذلك؛ لأنها في هوّة من الأرض، و ذكر أهل الأثر أنها سميت باسم بانيها و هو (هيت بن السبندى)... .

ظ: (معجم البلدان ٥: ٤٢٠ – ٤٢١).

(٢) تسكير الماء: ردّه عن سننه في الجري.

(٣) يعرف بـ(جامع الفاروق)، وكان إمامه وخطيبه السّيد الشيخ هشام ابن السّيد الشيخ ضياء الخطيب الهيتي، ومازالت المنارة قائمة إلى يومنا هذا سنة (١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م). (ع.الحسني).

لأنَّها أمَمٌ من تلك البسيطة المتسعة وأمّا انَّ الأثر موضع كفّه فالله أعلم.

ويحيط بالبلد جبل متصل واحد وله سفح فيه ربوات وتلال، وعلى كثير من تلك التلال قبور مُشيّدة مُعلّمة بقباب قديمة البناء يزعمون أنّ في (هيت) ونواحيها أربعين من الأولياء الشهداء، وأكثر يمين أهل البلد بهم فيقولون: وحقّ الأربعين كان أو ما كان كذا. وكان منزلنا على بعض تلك التلال القريبة من البلد وفيها قبر مُشيّد وإلى جنبه قبور يزعمون أنَّه قبر (عبد الله المبارك)(١) ولعله العارف المشهور(٢). ويقولون: هذا قبر (نجم الدين)(٣)، وذاك (نور الدين)(٤)، وذاك فلان وفلان، وعن قبر أنَّه قبر (أيوب النَّبي ﵇).

وذلك السفح والوادي محصور بين الجبل الواحد المستطيل وبين الجبل الّذي عليه عمارة البلد، وفي ذلك الجبل والسفح بل كل تلك الجبال والتلال والمسايل معادن عظيمة من النورة، والجص، والبورك، والزرنيخ، والقير،

---

(١) عبد الله بن المبارك: أبو عبد الرحمن المروزي مولى بني حنظلة . (ولد سنة ١١٨ هـ أو ١١٩هـ - وتوفي سنة ١٨١ هـ) كانت أمه خوارزمية، وأبوه تركي، وكان عبداً لرجل من التجار من همذان من بني حنظلة . وقد جمع الحديث، والفقه، والعربية، وأيام الناس، ووصف بالشجاعة والسخاء، والمحبَّة عند الفرق، مات سحراً في شهر رمضان المبارك لعشر مضين منه، ودفن بهيت.
ظ: (تاريخ مدينة السلام رقم ٥٢٥٩، ج١١ :٣٨٨ -٤١٠).

(٢) لم يُعْرف عنه أنه من طبقة العرفاء بل كان محدثاً فقيهاً زاهداً من تابعي التابعين، ومن آثاره كتاب (الزهد) وهو مطبوع، وقبره في (هيت) بلا ريب وقد زرته أكثر من مرة.
(عبد الستار الحسني).

(٣) أنظر: (القباب المخروطية في العراق، عطا الحديثي، هناء عبد الخالق، قبة ضريح نجم الدين، ص٧٣ -٧٤).

(٤) أنظر: (دائرة المعارف الإسلامية ٧: ٣٤٨ - ٣٤٩).

والزفت، وخرجتُ عصراً إلى تلك الجبال التي هي في غربيّ البلد لمعاينة تلك العيون وسياحتها ومعي جماعة خافوا فرجعوا وانطلقتُ وحدي.

وما الخوف إلا ما تخوّفه الفتى ... وما الأمن إلا ما يراه الفتى أمنا[1]

وكانتْ الشَّمس قد أزفتْ أن تغيب، فانتهيتُ إلى عينين هناك شاهدتُ فيهما عجائب الحكمة وغرائب القدرة، وسبّحتْ لربّ الطبيعة كل جوارحي وأعضائي وحواسي ومشاعري، وكانت العينان في حفيرتين وسط قُنة الجبل تفوران فوران القدر المتأججة تحتها النيران ومنبعهما كالشاذروان[2]، ويطفو على الماء القير الحرّ، والزفت الخالص، اللذان لا يحتاجان إلى تصفية وعمل، فيأتي بعض زبانية تلك العيون الجهنميّة ويدخل في العين بسرعة ويحوي ذلك القير ويضعه في جوالق من خوص حتى تمتلئ الجوالق فيذهب بها إلى البلد، وماء العين في أشدّ ما يكون من الحرارة، وهو شديد الزرقة يفيضونه من العين إلى سواقي تجري إلى تلك البرحات[3] التي هي في سفح الجبل، وقد صنعت ألواحاً كألواح المزرعة، فلا يأتي الصبح على ذلك الماء في تلك الأرض إلا وقد انعقد أعلاه ملحاً أبيضَ أشدّ بياضاً من الثلج وأصفى من البلور، وتحته طبقة من القير الخالص المتناهي في شدّة التماسك والصفاء والسواد، وحول تلك الحفاير التي فيها العيون معامل نار تسمّى في الدارج (كورٌ) جمع كورة: هو بيت نار يشرج عليه

---

(١) البيت للمتنبي

ظ: (شرح ديوان المتنبي، للبرقوقي ٤: ٣٨٢).

(٢) شادروان أو شاذروان: ينبوع ماء مع حوض، وناقورة ماء، وخزان ماء صغير للتوزيع.

ظ: (تكملة المعاجم العربية ٦: ٢٢٢).

(٣) البرحات: جمع البراح: وهو المتسع من الأرض.

قطع كبيرة من معدن النورة، يُنحت من تلك الجبال ويحرق في تلك المعامل من غير حاجة إلى حطب أو فحم؛ بل بذلك القير المتراكم العتيد هناك، فتجد البلد قد أحاط بها الدخان الأسود المنتن برائحة القير والنفط؛ بحيث قد غطّى البلد واستدار عليها من جميع نواحيها ومن فوقها فتكاد الروح أن تزهق فيها لكثرة ذلك الدخان من كثرة تلك المعامل (الكور)، أما أهل البلد فهم فرحون بذلك زعماً منهم أنّ ذلك الدخان وتلك الرائحة تدفع عنهم الأمراض الموبئة، والهواء الأصفر، ويبعث نشاطاً وقوة، وترى هذه الروائح المزعجة تستقبل الوارد من مسافة أميال قبل البلد، أما رائحة العيون نفسها فأشدّ بأضعاف، وكنتُ المُدّة القليلة من مكثي هناك قابضاً أشدّ القبض على شامّتي، بحيث لو نفذ شيء من هوائها إلى الدماغ أحسستُ بالهلكة، وحدّثوا أنَّ نفوساً كثيرة أضحتْ ضحايا تلك العيون ريثما وقفوا في وسط العين قليلاً فأحرقتهم نوافحها الكبريتيّة فسقطوا أمواتاً؛ فلا جرم كان الدخول فيها محتاجاً إلى حذاقة ومهارة حتَّى إذا أحسّ بأوّل النَفْحَة وثب بعيداً خارجاً عنها.

وبالجملة فمن مسافة فراسخ عن (هيت) إلى عدّة منازل فوقها بل إلى (عانة)[1] وهو قريب من ستين فرسخاً كلّها جبال، ووهاد، وأودية، وانجاد، وكلّها كنوز من الذهب مخبوءة في تلك المعادن التي لا تجد شبراً هنالك إلا وهو معدن من المعادن طولاً على الفرات وعرضاً إلى الغرب إلى ما الله أعلم به.

ولقد كنّا نمرّ على أرض بيضاء في وسط قُنن الجبال عريضة طويلة، وفي

---

(١) عانة: بليدة صغيرة بين هيت والرمادي، وهي كثيرة الأشجار والثمار والكروم.
ظ: (اثار البلاد واخبار العباد ص ٤١٨).

موضع ممرّ القطار وهو الجَادَّة قد حفرتْ الحوافر منه قليلاً فوجدناه من الجص التي عملتْ فيه الحرارة حتّى استغنى عن الإحراق، ولا يوجد في شيء من الجص المحروق المتداول مثله في البياض والنعومة والخلوص عن الرمل والأحجار، وهو أدق نعومة من الكحل، وهذا في مواضع كثيرة لا تحصى، واقسم لو أنّ أهل العراق أمعنوا واكبّوا على هذه البقاع واستصلاحها واستخراج ثمراتها لأوجبتْ لهم الثروة الطائلة على سائر الأمم؛ ولكن - أصلحك الله - أين وأهل العراق اليوم أحوج من تلك المعادن التي في تربتهم إلى مَنْ يقوم بتربيتهم، ويُعنى بصالحهم وتهذيبهم ويسعى في تقويم أودهم[١] في أنفسهم!، وعلى أيٍّ فقد لبثنا بائتين في مخيّمنا ليلة الثلاثاء ١٦ شوال إلى التاسعة من الليل.

ثم أسري بنا فأدلجنا[٢] بين جبال شاهقة، ووهاد سحيقة، وأودية عميقة، كان أعجب ما فيها سلامتنا من مهاويها، فانّه كان كثيراً ما يوافي بنا السير إلى جَادَّة على شفير وادي عميق، والجَادَّة في غاية الضيق والتسريح، مشحونة بالصخور والحجارة تحت حوافر البغال، بحيث لو زلّتْ قدم حيوان واحدٍ أدنى زلةٍ لهوى في تلك المهاوي العميقة إلى حيث...[٣]، ولَخرّ ممزقاً بتلك الأسنان الناتئة[٤] من تلك الجبال في أثناء الوادي، فكنتُ أرى أنّ سلامة كل تلك القوافل والقطار في تلك الجَادَّة التي لا تسع إلا مرور محمل واحد إنما هو من الحفظ الإلهي الخارج عن الأسباب الظاهرة ومجاري العادة، وما زلنا نتخبط في تلك المصاعب حتّى

---

(١) الأود: العوج.

(٢) أدلج: اذا سار أخر الليل.

(٣) هذا من باب الاكتفاء، وفيه تلميح إلى قول الشاعر القديم: إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم.

(٤) نتأ: النتوء : خروج الشيء من موضعه من غير بينونة، فهو ناتيء معلّق.

وصلنا أوّل الزوال إلى شاطئ الفرات، وبقينا نسير أكثر من ثلاثة أميال في جَادَّة من الصخر منحوتة في أثناء تلك الجبال الشاهقة لا تسع إلا مرور حيوانٍ واحد، والجبل مطلٌّ من فوقها والفرات يَلطُّ[١] بالجبل من تحتها، والراكب بين الخطرين لولا الحفظ الإلهي، وكأنَّ تلك الجَادَّة حدثتْ مما رسمته الإبل والبغال بحوافرها وأخفافها، وفي أوّل هذا الموضع أقنعتُ زميلي فنزلنا وترجّلتُ من قبّتي الخشبية وبقيتُ أتأمّل وأتصفح واتفحّص في طبقات تلك الجبال، وأعجب وابتهر من عمل الطبيعة هناك بأمر ربّها، وكيف عقدتْ تلك الجبال من الطبقات الحجرية، والأغشية الصخرية، والرمول المنجمدة، وفي وسطها المغارات والشعاب الهائلة.

وبالجملة حصل لي من الفكرة والعبرة هناك ما لم يتهيأ لي في مطالعة الكتب ومراجعة الكتاب على ممرّ السنين وطول الليالي والأيام، ومضى القطار والقافلة أمامي حتّى ضربوا الخيام في سرحة على شاطئ الفرات في سفح تلك الجبال، وللفرات هناك منظر وسيم وبهجة رائعة؛ لسعته وصفاء فضائه وإشراف الجبال عليه، وخضرة ذلك السفح المتصل به، فوصلتُ بعد مطالعاتي الطويلة وجهدي الجهيد غَبَّ ساعتين عن الزوال إلى موضع محطّ القطار وهو موضع خال من العمارة المعتدّ بها سوى بيوتات بين نخيلات.

أخنى عليها الّذي أخنى على لبد[٢]

---

(١) يلط: يلزق.

(٢) عجز بيت للنابغة الذبياني وصدره:

أمست خلاء وأمسى اهلها احتملوا

ظ: (ديوانه: ص١٦).

قد تبوأت تلك النخلات والبيوت ما سمحتْ به تلك الجبال من الوهاد والمساحب الوطيئة، ويسمّى هذا المنزل بـ(البغدادي) وفيه عدّة من المبدرقة (الجندرمة)؛ لمحافظة النُزّال فيه من أذايا أوباشه وهيهات، وعلى الشط بعض النواعير الواسعة ولكنّها ليستْ على اتقان نواعير (هيت) ولا بكثرتها وَعِظَمِهَا، وعلى أيّ فقد أقمنا بقيّة نهارنا ونصفاً من ليلة الأربعاء ثم غلّسنا[١] السادسة من الليل، وأدلجنا السرى في فلوات قاحلة هيماء[٢] لا ماء فيها ولا كلاء، فبيناً نحن ننتظر الفرج بالخروج منها إلىٰ البسيطة إذ القتنا في لهوات أودية عميقة لا ترتقي العصم إلى ذرواتها، فصرنا نهبط وادياً ونعلو جبلاً لا كما يُظن؛ بل من تلك الجبال المرمرية التي هي في غاية الصلابة؛ وكأنَّ القوافل بمرورها على مرور الليالي والأيام قد رسمتْ فيها جَادَّة منحدرة إلى تلك الأودية، فقل إلى أعمق مسافةٍ من أعمق آبار هذه الكرة السيّارة، بيد أن تلك الجَادَّة المنحدرة مملوءة بنحيت تلك الصخور المختلفة أنواعاً صغراً وكبراً، وخشونةً وملاسةً، واستدارةً وتربيعاً، فتراك تسمع لوقع الحوافر عليها قعقعةً وفرقعةً[٣] تتفرقع لها قلوبنا، وتَجبُ[٤] لها جنوبنا، وهذه المرحلة من أعظم ما سبق لنا لا ما لحق، وكلّها كانت أودية وهضاباً، وانجاداً وأغواراً، نعم كان من أعظم أوديتها ثلاثة أودية هائلة:

أوّلها: شرقياً (وادي حوران) الشهير: وهو شق عظيم واسع في تلك الجبال

---

(١) الغلس: الظلمة آخر الليل.

(٢) الهيماء: مفازة لا ماء فيها.

(٣) القعقعة: صوت السلاح. والفرقعة: صوت الآنفجار. وتتفرقع قلوبنا: تتلوى.

(٤) تجب: تضطرب.

الهواضب الصخم[١] الصم[٢]، حفرته تلك السيول الجارفة بعرض ثلاثين متر تقريباً وعمق خمسين كذلك، وأمّا امتداده إلى ما بين المغرب والجنوب، فأهل تلك المنازل يقولون: لم يقفْ أحدٌ على مبدئه سوى أنّه يتجاوز غربيّ (الشام) بمراحل، وانّه في نيسان قد يمتد مُدّة امتلائه بالسيل المنصبّ إلى الفرات سبعة أيام أو ثلاثة متّصِلة؛ وانّه هو السبب الأعظم في زيادة الفرات تلك الزيادة التي تكاد أن تأتي على (العراق) بطوفانه الطامي، وكلّ تلك الأودية تنتهي مجاريها ومصابّها إلى الفرات، وهي أعظم سعة وعمقاً منه، وهي كشطوط واشجة به تخرج أفواهها وصدورها منه، وتجري عنه، والأمر بالعكس.

الثاني: (وادي دغدان): وهو كسابقه في السَّعة والعمق سوى أنّه ينتهي في أوّله بمسافة غير طويلة.

الثالث: (حلجان): وهو كالثاني سوى أنَّ في صدره ممّا يلي الفرات عين ماء غزيرة تجري في جدول ينصبّ ماؤه إلى الفرات، والوادي يمتلئ بالسيول أيام ابّانها فنقول: (جرى الوادي فطمّ على القريّ)[٣].

وهذه الأودية الثلاثة مهما بلغ قلم البليغ أو بالغ في تصويرها فما هو ببالغ تمام الحكاية عنها وتمثيلها كما هي، وللعيان أثر لا يحيط به البيان مهما كان، وما كنتُ أحسب أنّ لنا طاقة على تحمل تلك الشدائد ومقاساة هاتيك، ولكن ولله

---

(١) الصخم: المنتصبة القائمة.

(٢) الصم: الأحجار الصلبة.

(٣) مثل يضرب عند تجاوز الشر حدّه.

ظ: (مجمع الأمثال ١ : ١٥٩).

المنّة والفضل.

قـد هـوّن الصـبر منّـا كـل مصـعبة ولـيّن العـزمُ حـدّ المركـب الخشـن[١]

وما زلنا على ذلك ومثله حتّى نزلنا حَديثَة الفُرَات[٢]

(الحديثة)[٣] وهي سرحة على شاطئ الفرات فيها بعض البيوتات وعِدّة من البساتين الباسقة النخل وبعض المزارع من الدُّخن والذُّرَةِ، وهي ناحية فيها مديرٌ وقدرٌ من (الجندرمة) وعلى الشط نواعير كثيرة تسقى لبساتينها ومزارعها، والشط كلّه سكور من تلك الصخور المبتذلة، فتسمع للشط قبل أميال دويّاً هائلاً من السكور والنواعير هذي بنعيرها وتلك بخريرها، والجبال مُطلّة على الفرات من جانبيه طولاً إلى ما الله أعلم به.

وفي تلك الجبال مغارات ودخائل واسعة في أسفله يلجأ إليها سكان تلك الناحية إذا اجحف السيل[٤] بمنازلهم فيأوون عندئذٍ إلى كهوف منيّعة وحصون حصيّنة؛ إذ هي في جهة مجرى السيل لا في قبالته، وعلى تلك الجبال قبور مُعلّمة

---

(١) البيت للمتنبي: وفي الديوان (نازلة) بدل (مصعبة).

ظ: (شرح ديوان المتنبي، للبرقوقي ٤ : ٤٣٥).

(٢) حديثة: حديثة الموصل، وحديثة الفرات.

(٣) حَديثَة: وتعرف بحديثة النورة: و هي على فراسخ من الأنبار، وبها قلعة حصينة في وسط الفرات والماء يحيط بها، قال أحمد بن يحيى بن جابر: وُجّه عمّار بن ياسر أيام ولايته الكوفة من قبل عمر ابن الخطاب، (رض)، جيشا يستقري ما فوق الفرات عليهم أبو مدلاج التميمي فتولى فتحها، و هو الذي تولى بناء الحديثة التي على الفرات... .

ظ: (معجم البلدان ٢ : ٢٣١).

(٤) أجحف السيل: إذا جرف كل شئ وذهب به.

بقباب من الأبنية القديمة كبناء قبة (ذي الكفل)[١]، في شرقي العراق ولكن هذه أصغر من تلك، ويزعم أهل تلك النواحي أنّ هذا فلان وذاك فلان مما لا نحيط بعلّمه، نعم أشاروا إلى قبر أنّه قبر (السيِّد محمَّد) من أولاد (موسى الكاظم عليه السلام) ويسمّونه بالشَّيخ حديد؛ لكرامة يذكرونها: أنّ بعض الحراثين ممّا يلي مرقده على قُنة الجبل في أثناء حراثته انكسرت حديدة فدانه[٢]، فخرج السيِّد إليه في السرّ وأصلحها بيده حتّى عادت كما كانت ثم غاب عنه، وتواتر نقلهم ونقل من يليهم من القرى أنّ في شباط تأتي أنواع السموك من شرقي الفرات مُغربَةً زرافات زرافات وجماعة جماعة إلى العين المتقدّمة، وقبره في الجبل مطلّ عليها فتبقى في العين وتأتي الأعراب فتصيدها قبض اليد بلا آلة وعمل؛ ويرون أنّها تأتي لزيارة السيِّد ولهذا خصّصوا ما يأتي ويُصاد ليلة الجمعة لقيّم قبره، وليس للسمك في أيام السَنَة أثر ولا عين، أما في شباط فله موسم عظيم.

هكذا ذكروا والله أعلم. ثم قضينا بَقيَّة يوم الأربعاء في (الحديثة).

مذاكرات علميّة في التفسير

وكان مما تذاكرنا فيه كريمة قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] في حيث إعرابها وانّ [لله]، و[على الناس]، ما محلّهما؟، وأين متعلقهما؟، وما محلّ

---

(١) ينظر عنها: مئذنة الكفل، عطا الحديثي، (مجلة سومر) ج ١ - ٢ (١٩٧٢م)، ١٢١ - ١٣٢.
انظر: الذخائر الشرقية، (الكفل) ١: ٣٨٨.
وصف بيبليوغرافي، لأهم ما كتب عن الكفل من مقالات.

(٢) الفدان: آلة الثورين للحرث.

الموصول؟، والذي حصل الاتفاق بعد المجاذبة في البحث أنَّهما متعلقان بمحذوف كثابت ولازم ونحوهما، وانَّ الموصول بدل بعض من كلّ، ومن حيث فقاهتها انَّ مؤداها هل هو التكليف أم الوضع؟ والمرجّح أنّه تكليفٌ بلسان الوضع لمزيد الاهتمام، قد يتفق في بعض الأحكام عكسه من الوضع بلسان التكليف، وبقي السؤال في التهديد على تاركها وإدخاله في الكفر بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كفر﴾ وبماذا استحق الحجّ هذه المزية على سائر الواجبات المهمَّة كالصلاة ونحوها؟؛ إذ ليس تاركها بقول مطلق مما يقع أسم الكفر عليه، ولم يتحصَّلْ بعد وجه يستحسن الاقتناع به والله أعلم.

وتلاه الخوض في جملة من المسائل الحكميّة والعرفانيّة وآيات قرآنيّة منها قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة : ١٨]

وأنَّه ما وجه الدّلالَة في التعذيب؟ على عدم كونهم أبناء وأحباء مع أنَّ الأب والمحب قد يُعَذِّب ابنه وحبيبه لتأديبه وتهذيبه؛ فزعم صاحبنا الفاضل: أنَّ التأديب غير التعذيب، وأنَّ التعذيبَ لا يكون مع المحبَّة، وأطال في تقريبه ولا أراه رأياً نضيجاً، ومنها آيات أخرى كثيرة لا يسع الوقت ذكرها.

ورحلنا من (الحديثة) الساعة التاسعة من ليلة الخميس ١٨ شوال، فوقعنا في الطريق وإذا هو كالذي قبله في المشاق، والمصاعب، والوهاد، والهواضب، والصخور الهائلة العظيمة؛ حتّى إنَّ بعض القطعات العظيمة قد انخزلتْ[(١)] من

(١) انخزل الشئ، انقطع.

الجبل الممتدّ المستطيل فهي ملقاة في السفح على الجَادَّة وهي جبل في نفسها؛ كأنّها تطلب استقلالها الذاتي على سُنن النواميس الطبيعيّة التي أودعها رب الطبيعة في سائر مصنوعاته، نعم ومن الغريب انّه - جلّت حكمته - فَطَرَ فيها هذه الجبلّة وقاومها بإيداع ضدّها في الطباع من ميل كلّ جزء إلى كلّه، ونزوع كل شيء إلى أصله، فكلّ كائن يطلب لذاته الاستقلال لنفسه ومع ذلك ينزع إلى اللحوق بأصله والاتصال بكلّه، فهو ابديّاً في هذا التنازع والتجاذب، حكمة بالغة وقدرة باهرة فلولا حبّ الاستقلال لبقيتْ العوالم في كنزها المُخْفَى، ولما حصلتْ الكثرة، ولولا ذلك النزوع لما تحقق يوم القيام والجمع ولما حصلتْ الوحدة.

فتدبره لمحة من الأسرار الإلهيّة ولمعات التوحيد شطح بها القلم في غير محلّها.

ورأينا حول تلك الجبال صخوراً منها منحوتة بآلات حديدية على انتخاب صناعي على شكل مربّع مستطيل في تمام اللياقة واللطافة، وهي كثيرة متراكمة على مسافة ميل، سألنا عنها، فقيل: هي من عمليات مهندس سدّ الفرات ينتظر زيادة الفرات ليحملها في الشخاتير إلى موضع السدّ، ثم لم نبرحْ على مقاساة تلك الزلازل وطيّ هاتيك المراحل

الفحيمي

حتّى نزلنا قريب الظهر من يوم الخميس ١٨ شوال على برحة تتصل بشاطئ الفرات وفي شرقيها على الشط (نقطة) قلعة صغيرة محتقرة، وفي قبالها من الجانب الشرقي قرية صغيره تسمّى بـ(الفحيمي)[١]، وكان موضع مخيّمنا غربيّ

---

(١) لم أعثر على تعريفها.

تلك النقطة، وليس في هذا الجانب الغربي عمارة ولا خضراء ولا نضراء سوى المنابت الطبيعية من الشوك والعاقول وأمثالها، نعم في الجانب الشرقي بعض ما لا يعتدّ به من النخيل والقرية فيه وراء تل قد حجبها عن الرائين على قربها من الساحل فهي (أهون من تبالة)(١).

وريثما ضربنا الخيام وأخذ كلّ منا مقره ومستراحه جاءنا أعراب ذلك الجانب يعبرون الشط سبحاً ومعهم بعض البطيخ الأخضر (الرقي) وهو إلى اليقطين في الحقيقة أقرب منه إلى ذاك، ومعهم بعض الدجاج والخبز الّذي لا يعلم من الحنطة هو أم من الشعير أم من غيرهما؟!، وفي غضون ذلك أتانا لمخيّمنا بعضهم يحملون من تلك البضاعة الضائعة الكاسدة إلاّ ذلك اليوم، وكان في جملتهم غلامٌ - يعلم الله - أنَّه مليح الشمائل تام المعاني متناسب الخَلق والخُلق، قد مزجتْ بداوته بحضارته، وبياضه بسمرته، ودعجه بغنجه، لحديثه حلاوة وفي حضارته نوع بداوة، فلو رأته غلمان الحاضرة قاموا له على الرؤوس وقالوا الفضل للبادي(٢) فلما تكلم عجبنا ولحسنه وجماله طربنا وقلنا:

---

(١) أهون من تَبَالَة على الحجَّاج: يعني الحجَّاج بن يوسف، وتبالة: بلدة صغيرة من بُلدان اليمن، وهذا مثلٌ من أمثال أهل الطائف. زعم أبو اليقظان أنَّ أوّل عمل وليه الحجاج عمل تبالة، فسار إليها فلما قرب منها قال للدليل: أين هي ؟ قال: سترتها عنك هذه الأكمَة، فقال: أهون عليَّ بعمل بلدة تسترها عني أكمَة، ورجع من مكانه، فذهبت مثلاً ...

ظ: (مجمع الأمثال٢ : ٤٠٨ رقم ٤٦٢٩).

(٢) البيت لسراج الورَّاق:

فلو بدتْ لحسانِ الحضر قُمْنَ لها ... على الرؤوس وقلن الفضل للبادي

ظ: (فض الختام عن التورية والاستخدام، للصفدي ص٨٥).

من أين الّف هذا الشادن العربا[١]

فسألناه: من أين هو؟ وما الّذي جاء به إلى هذه الأمة الوحشيّة وآنسه بهذه الأرض الموحشة؟!

فقال: أنا سيِّد وابن سيِّد إلى الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ونحن من أب وجدّ نسكن هذه القرى والنواحي لتعليم هؤلاء الأعراب القرآن وسُنة جدّنا فجاذبناه أطراف الملاطفة: وسالتْ بأطراف الحديث الأباطح[٢] وسألناه هل يقرأ القرآن؟ فقال: نعم، فأخرجته من غلالتي وقلتُ: هاك أقرأ لنرى كيف قراءتك فأخذه وفتحه ثم ردّه، وقال: لستُ على وضوء و ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] فَقُلْتُ لهُ: أقرأ ولا تمسَّه، فقال: جئت لأبيع الرقي لا لأقرأ القرآن، فَقُلْتُ: أقرأ ونحن نشتري منك فأخذه وقرأ تجويداً بصوت جيّد وكان معه رقيّتان أخذناهما على اقتراحه؛ لأنّه كان على اقتراحنا، فمددنا المُدى[٣] عليهما وفلقناهما بحضوره فكانت حمرتهما في خدّيه، وبياضهما من ثغره، وبعد أن أقام عندنا ساعتين قام وكلٌّ منا يودّ لو جالسنا إلى يوم القيام، حتّى قال القائل منّا: لله هذا الغلام (باعني الرقي وملك رقّي). وأقمنا بقيّة يومنا في ذلك المنزل المعروف

---

(١) عجز بيت للمتنبي واصله هو:

مَرّتْ بنا بَينَ تِربَيْها فقُلتُ لَها ... من أينَ جانَسَ هذا الشّادِنُ العَرَبا

ظ: (ديوانه ١: ١٢٨).

(٢) البيت للمضرَّب، وهو عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى.

أخذنا بأطْراف الأحاديثِ بيْننا ... وسالتْ بأعناقِ المَطي الأباطح

ظ: (أمالي المرتضى ١: ٤٥٧- ٤٥٨).

(٣) المُدى: السكين.

بـ(الفحيمي) وهزيعاً من ليلة الجمعة على شظف من العيش وقناعة من القوت.

ثم رحلنا اوائل ليلة الجمعة الرابعة من ١٩ شوال، وكان الطريق على مثل المنازل السابقة من الصعوبة والمَشَقَّةِ، وفي أطراف (الفحيمي) قُرى صغيرة في ذلك الجانب مثله، وفيها وفيه قبور كثيرة على رؤوس الجبال، وشُعف[١] الأودية وأشاروا إلى موضع بالقرب يُسمّى بـ(آلوسة)[٢] ولعل (الطائفة الآلوسيّة)[٣] منه، وفيه مقام مُعَلّم يزعمون أنَّه قبر أو مقام (حبيب النجار)، وآخر أنَّه الشَّيخ (محمَّد الآلوسي) في قرية تسمى بـ(الزاوية)، ومقام لعليﷺ في قرية (المعاضيد)، و(ابن نوح) في جبلين وهكذا.

عانة

ولم نزلْ نجدّ السير تمام ليلتنا حَتّى أتينا قريب طلوع الشَّمس إلى بلدة (عانة) وهي بلد كبيرة من أقضية (بغداد)[٤] على غربي الفرات، فوجدناها على أغرب شكل وأعجب وضع؛ فانّها بلدةٌ مستطيلةٌ مقدار ثلاثة فراسخ، ممتدة على شط

---

(١) شعف الأودية: أعلاها.

(٢) آلوس: وقيل أَلوس بغير مد كما ورد اسمها بصورة آلوسة وأَلوسة، وهي اليوم بُليدة تقوم على جزيرة صغيرة في نهر الفرات قرب عانة، تابعة لناحية الحديثة في قضاء عانة، ومن لواء الدليم (اسمه الإداري اليوم محافظة الأنبار) في العراق.
ظ: (الذخائر الشرقية، جمع وتقديم وتعليق، د.جليل العطية ٣: ٧٩).

(٣) الآلوسية من الأسر العلميّة المعروفة في بغداد في العصور الأخيرة. وقد نشأ من أبنائها من ذوي الفضل، فيهم: المفسر (أبو الثناء شهاب الدين محمود ت ١٢٧٠هـ)، وحفيده الأديب (محمود شكري ١٣٤٢هـ)...
ظ: (م. ن. ٣: ٢٤٥ - ٢٤٩).

(٤) اما اليوم فهو قضاء تابع لمحافظة الأنبار.

الفرات في عرض قليل لا يزيد على ثلاثمائة متر، وهذا المقدار هو الّذي سمحتْ لها به تلك الجبال الشم، والصخور الصمّ، والمياه الفعم[(١)]، فهي عبارة عن زقاق واحد بتلك المسافة والاستطالة، وفي جانبيه دور وبيوت من الطين والصخر، جانب منها يتصل بالفرات، والآخر يتصل بالجبل، وفيها بساتين أنيقة زاهرة جداً على نواعير عظيمة كنواعير (هيت)، وسكور كثيرة وبساتينها مشتبكة مع دورها فكل دار إلى جنب بستان أو فيها جُنينة زاهرة، وجنيناتها تشتمل على أكثر الفواكه حَتّى الزيتون، وهناك رأيناه حاملاً زيتونه الأخضر وشجره وورقه كالخلاف[(٢)] إلاّ أنَّ الخلاف أرق منه وأزهى، وأكثر ما فيها النخيل وفيها مزارع من القطن واليقطين ولا يسمّونه إلا القرع والبادنجان وغيره، والنخل هناك يُصافح الجبل ويلتصق به، فالوقوف على الجبل منظر رائق بديع ينعش الأرواح برؤية البساتين على الفرات، والأرض الخضراء تحته والسواقي كلّها تجري في الأزقة على مرتفعات من الأبنية المحكمة؛ لأنّ بساتينها فيها وكلّ بلادهم إسلام وأكثرهم شافعيّة، وفي طرفها الشرقي محلّة لليهود، ولكن في المسلمين - وحاشا الإسلام - شبه تام بهم من حيث اللسان واللهجة، والدم وشعر الرأس، فلو رأيتَ أحداً منهم أو كلّمته لا تشك أنّه من أمة النّبي موسى عليه السلام وهو من أمة النّبي محمَّد صلى الله عليه وآله. وفيها رقي جيد لا يسمّونه إلاّ بالحَبَحبِ[(٣)]، ولكن يحمل إليها من

---

(١) الفعم: الممتلئة.

(٢) الخلاف: صنف من شجر الصفصاف.

(٣) حَبْحَبَة: البطيخ الشامي، الذي يسمّيه أهل العراق (الرقي)، والفرس تسمّيه الهندي؛ لأن أهل العراق يأتيهم من جهة الرقة.

ظ: (معجم أسماء النبات، جمع وتحقيق: محمود مصطفى الدمياطي ص٣٨).

(الدير)[1] في الشخاتير.

وبالجملة فهي بلدةٌ وسيمةٌ زاهرةٌ وكان منزلنا ببرحة (فضوة) في وسطها على حافة الفرات في قبالها وسط الشط جزيرة خضراء فيها نخل وغيره، وصنعة أهلها الزراعة والحياكة، وعرضوا علينا من العبي البريسم ما يشبه عبي (النَّجف) الجيدة، وهي من عملهم، والأسباب الظاهرة تقضي بأنَّهم ذوو ثروة طائلة؛ لكثرة المزارع والمغارس، ولكن وجدنا في صبيانهم ونسائهم بل ورجالهم من الدَّناءة والجشع الموجب للتكدّي والطلب الحريص، ما لم نره في محلّ أبداً فيبيعونا الرقية الواحدة بأغلى ثمن، ثم يجتمع حولنا من عدّة البنات والصبيان ما يسلب راحتنا، فنلتجئ إلى كسرها وأكلها وهم ينظرونا ونفوسهم تتقطع، فبئست الأكلة، ثم نرمي لهم بالقشور وهي على النصف فتكاد تقع الفتنة من تهالكهم وتكالبهم عليها، وبالجملة لهم حال غريب في ذلك وهذه أيضاً شنشنة (يهودية).

وبقينا هناك تمام نهار الجمعة وأكثر ليلة السبت ٢٠ شوال، ورحلنا في سحرها فشاهدنا أيضاً من الجبال بل هو ذلك الجبل المطلّ على (عانة) وصرنا نسير في السفح والجبل فوق رؤوسنا قد ظللنا بمثل الرواشن[2] والأجنحة الهائلة، بحيث يظن كل أحد أن سوف ينطبق عليه، وكثيراً ما نمرُّ بقطعة عظيمة قد

---

(١) قال الشابشتي في كتابه (الدّيارت): (دير ماسرجيس) وهذا الدير بعانة، وعانة مدينة على الفرات عامرة، وبها هذا الدير: وهو كبير حسن كثير الرهبان والناس يقصدونها من هيت للتنزه فيه، وهناك كروم وبساتين وشجر، والموضع في غاية الحسن...)
ظ: (الدّيارات، للشابشتي، تح. كوركيس عواد ١٤٧ – ١٤٨).

(٢) الرواشن: جمع روشن، وهي أن تخرج أخشاباً إلى الدرب، وتبني عليها، وتجعل لها قوائم من أسفل.

انفصلتْ منه ومالتْ عنه وهي قائمة على تعاظمها على شلخ[١] ضعيف وهي مائلة على الجَادَّة؛ كأنَّها شاهرةٌ سيفَ المنون (حفظه الله) عليها، ومع ذلك جزنا بأسفلها ولم أبالِ بشيء من ذلك.

لأنّي ما انتفعتُ بأن أبالي[٢]

أمّا أكثر القافلة وكل رفقائي فكانوا غير منتبهين لذلك؛ ولكنّي رفعتُ ستار محملي كعادتي في التطلّع والتمتع بتلك الأجواء والأودية والجبال والوهاد على ضوء القمر الزاهر في نسائم تلك الأسحار المنعشة المدهشة - فتبارك الله رب العالمين - ولم نزلْ على هذا ومثله؛ حَتّى صعدنا الجبل إلى أعلاه وهناك وجدنا لذة السير في الأرض الوطيئة السهلة وعن يسار الطريق رأيتُ قبةً عاليةً مشيّدةً حولها صحن واسع قد تهدّم سوره إلاّ بقاياه وهو عال منيع، فوددتُ لو ألقيتُ نفسي من محملي لاكتشافه والنظر، ولم أجدْ خبيراً أسأله عنه.

نهيّة

حتّى وصلتُ المنزل ضحوة السبت والمنزل أرض خالية لا أكل ولا كلاء فيها سوى الماء ويسمّى بـ(نهية) فسألنا عن ذلك المقام المشيّد فقيل: أنَّه مقام عليّ عليه السلام، وهو من العمارات المتقادمة، أمّا المنزل فلا مطعوم فيه ولا مشروب سوى ماء الفرات، والنسيم العذب، وبقينا نتعلل ببقايا أزوادنا وهي ونحن على

---

(١) الشلخ: الأصل.

(٢) عجز بيت للمتنبي، صدره:

وهانَ فَما أُبالي بالرّزايا

ظ: (ديوانه ٣: ١٧٣).

شفا، وفي الإمساك العافية والشفا - إن شاء الله - وسألنا عن سبب تسمية المنزل بذلك الاسم؛ فذكروا أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام جاء إلى هذه النواحي وكانت منزلاً للمشركين قبل الإسلام وهم تبع القياصرة، وهراقلة الشام، فغزاهم - سلام الله عليهم - داعياً إلى الإسلام وليس معه سوى سريّة نزيرة العدد فنهاه جماعة في هذا المحل عن السير إلى ذلك الوجه فأبى وسار فسمّي بـ(النهية) وسيأتي لهذا الحديث المرسل تتمة بحسب المنازل الآتية. وكُنَّا ليلة السبت في (عانة) شرعنا في مباحثة بـ(حجِّ الدروس)(١) وكانت معي منه نسخة جيّدة قلميّة ابتعتها من الكاظميّة، ووقع الإشكال في بعض عباراته مثل قوله في مسألة الزاد والراحلة: «ويكفي البذل في الوجوب مع التمليك أو الوثوق به وهل يستقر الوجوب بمجرد البذل من غير قبول إشكال من ظاهر النقل وعدم وجوب تحصيل الشرط...»(٢)؛ فإنَّه لا يكاد يظهر وجه التقابل إذ عدم وجوب تحصيل الشرط إنما يحسن أن يكون وجهاً لعدم وجوب القبول بعد الفراغ من عدم كفاية البذل في استقرار الوجوب؛ حيث إنَّه على ابتناء القول بعدم الوجوب بالبذل قد يقع الكلام في أنَّه هل يجب عليه أن يقبل أم لا؟. ووجه الثاني عدم وجوب تحصيل الشرط ويمكن أن يكون مراده قدس سره باستقراره بمجرد البذل أنَّه يجب عليه أن يقبل ولو بالقبول الفعلي والمضي إلى الحجِّ، والمخالف يدفعه بأنَّه تحصيل للشرط ولا يجب. ولا يخفى ما فيه، والحاصل أنَّ العبارةَ تحتاج إلى تأمل لم يتسعْ له

(١) الدروس الشرعية في فقه الإمامية: للشهيد الأول محمّد بن مكي العاملي (ت ٧٨٦هـ)، خرج منه إلى كتاب الرهن فأدركته الشهادة قبل اتمامه.
ظ: (الذريعة ٨: ١٤٥).

(٢) ظ: (موسوعة الشهيد الأول (الدروس الشرعية في فقه الإمامية/١) ج٩: ٢٢٥.

المجال، والتحقيق كما عليه أهله أنّ البذلَ غير محتاج إلى القبول كما في الهبة؛ لأنّ البذل محقق للاستطاعة بنفسه وقد صار به واجداً لها كما لو جاءه مال من ميراث أو غيره من القهريات، بخلاف الهبة فإنَّ الإيجاب غير مملّك والقبول تحصيل فلا يجب والعجب فيما نقله عن ابن ادريس حيث قال: «وابن ادريس قال: لا يجب الحجّ بالبذل حتى يملكه المبذول...»[1] ولم يُعلمْ ما المراد بالتمليك، هل هو بمثل الصلح والهبة من العقود؟ وقد ظهر عدم الوجوب به أم بغيرها، وليس هو سوى البذل ومثل هذه الفقرة فقرات أخر وقع فيها الكلام لا تسمح مَشقَّة السفر لتحريرها.

القائم

ثم رحلنا من (النهيّة) السادسة من ليلة الأحد ٢١ شوال؛ حَتّى أتينا إلى منزل يُسمّى بـ(القائم)[2] الساعة الرابعة من نهاره، وكان مسيرنا عشرة ساعات وعلى هذا أغلب منازلنا: وهو موضع [يبعد] عن حافة الفرات بما يقرب من ميل ليس فيه سوى قلعة وهي نقطة لنفرين أو لثلاث من (الجندرمة)، لم نسمعْ حسّهم ولم نرَ

---

(١) م. ن.

(٢) القائم: تل أثري على قمته بقايا جدار قائم فيه معالم درج يرتقي إلى اعلاه من الداخل كالادراج التي نشاهدها في المنائر أو الابراج، ويعتبر من المواقع الأثرية التي حافظت على اسمها القديم، فلقد عرفه العرب باسم (القائم الأقصى)... .
ظ: جولة في انحاء القائم، صبري سكري، مجلة سومر ٦ (١٩٥٠) ص ٢٤٤ – ٢٤٨.
ناحية القائم: تقع على الحدود السورية في موضع يبعد عن عانة (٩٥) كـ، بني فيها محل للحكومة، ومخفر للشرطة، ودائرة للكمرك، وعدد من الدور والحوانيت القروية، مع مدرسة أولية، ومستوصف صحي.
ظ: (العراق قديماً وحديثاً ص ٢٧٢).

شخصهم، وإلى يُمنتها (خان قديم) وإلى يسارها (خان جديد) بعدُ لم يكمل، فنزلنا قريباً من تلك العمارات على فلاة بيضاء لا زرع فيها ولا ضرع وهي مرتفع ينحدر إلى وادي متسع ينتهي إلى الفرات كلّه مشحون بالغابات (الزور)، وليس فيه سوى شجر الطَّرْفاء[1] وهي هنالك أشجار عالية في ضخامة وعظمة تشْبِهُ شجر الصفصاف والغَرب[2]، وتلك الغابة تمتدُّ طولاً على الشط ما يقرب من ثلاثة أميال، وعرضاً ما يقرب من ميلين، وهي مشتبكةٌ واشجةٌ أشدّ الاشتباك تتصل أشجارها بالجبل المطل، وعلى سفحه كان منزلنا ومحطّ القافلة منّا، والقلعةُ والعمارتان على تل عالٍ فوق ذلك السفح، وفي ناحية الشرق عنّا جبال عالية وتلول مرتفعة وعلى ارفعها عمارة شاهقة تُرى من مسافة أميال وهي من الآثار القديمة، فذهبتُ عصراً مع الصفوة من أصحابنا للصعود إليها واكتشافها فوصلوا إلى نصف الطريق وحاذروا لِوعورة الطريق وخوف الغوائل وأصرّوا على منعي فأبيتُ، ولكن دفعتُ إليهم ما معي من ساعتي والدراهم، وانطلقتُ وارتقيتُ إلى موضع العمارة فلم أعرفْ بَقيَّة أيّ شيء هي سوى أنّ الباقي منها مربّع كالأسطوانة في عرض أربعة أذرع مبنيٌّ بالصخور العظيمة والجصّ وفي صفحته إلى جهة الفرات بعض النقوش النابته من العمارة بالجص والحجارة، وفي أسفله مغارات مظلمة كأنّها محفورةٌ جديداً للإطلاع على أساسها أو للعثور على بعض النفائس فيها، ثم رجعتُ إلى منزلي بعد الغروب بقليل، وبعد أداء الفريضة

---

(١) الطَّرْفاءُ: شجرٌ، وهي أربعةُ أصناف منها: الأثل، وهُدْبه مثلُ هُدْب الأَثْل، وليسَ له خَشَبٌ، وإنّما يُخْرِجُ عِصِيّاً سَمْحَةً في السَّماء، وقد تَتَحَمَّضُ به الإبلُ إذا لم تجِدْ حَمْضاً غَيْرَه ... .

(٢) الغَرَب: شجرٌ لا يثمر لتباعده عن الثمرات.

وتناول العشاء وقضاء ما تيسّر من مذاكرة مباحثة (الدروس) أخذنا مضاجعنا فأيقظتنا أجراس الرُّكَّابِ وأصوات الصحاب، وإذا بالمُكارين المَكّارين والحملدارية الحيّالين يتلادمون ويتلاومون ويتشاتمون فقلنا: ما الخبر؟ فقيل: قد سرق من الحمل رزمة قريوغ بكل ما فيها، وإذا هي رزمة المسكين صاحبنا الحاج علي خلف الحاج عبد الهادي كُبَّة[1] الّذي عزم يوم مسيرنا وفيه جميع لوازمه وأسبابه، وليس له ولوالدته سواها، فقدّرنا ما فيها من العبي، والجُبَب، والأقبية الإبريسميّة، وغير ذلك فكانتْ على الأقل خمس عشرة ليرة، فالتزم الحملدار بتغريم المكاري ثمنها، وأبقى ابنه توفيقاً للشكاية عند المدير وقبض أعراب تلك النواحي وحتّى الآن لم تحصل نتيجة.

في أبي كمال

ثم رحلنا السابعة من ليلة الأثنين ٢٢ شوال، حتّى أتينا بلداً صغيراً فيه قائمقام وإدارة قضاء على صغرها تُسمّى البلد بـ(أبي كمال)[2]، وفيها جامع ومنارة على أحدث طرزها، وسوق على مناسبتها، وقبل الوصول إلى البلد نفسها أبصرنا - والله الحفيظ - أعلاماً صفراً عثمانيّة، فراعنا ذلك فتحققنا ذلك وإذا هو الحَجْر الصحي، والحبال منصوبة، والأعلام على أخشابه المائلة قائمة - نكّسها الله ولا أقامها، ولا أرانا إيّاها أبداً إن شاء الله - فاستقصينا الخبر حيث كان ذلك في غاية الغرابة عندنا؛ لأنّنا من حين خروجنا من (الكاظميّة) لم نسمعْ لذاك الموحش

---

(١) علي ابن عبد الهادي ابن مهدي ابن محمد صالح كُبَّة، من التجار.

(٢) قضاء أبي كمال: بدير الزور إحدى محافظات الجمهورية السورية.

بخبر، ولم نجدْ له لا في قوافل الحُجَّاج ولا في المنازل أثر، فذكروا سبباً غريباً: وهو أنّ القافلة المتقدمة قبلنا بيوم ضلّ منها في الغابة غريب إيراني دخلها ذاهباً إلى الشطّ فلم يعد إلى بعد الظهر فافتقده أصحابه وحدسوا أنَّه غابَ في الغاب، فتنادى الحمل والحملدار وجعلوا يفحصون ما بين تلك الأشجار الواشجة وينادونه فما وجدوه إلا قريب الفجر، والحمل تقدَّم أمامهم على ميعاده من الحركة عند طلوع القمر وبقي أنفار في طلبه فلما أصابوه وجدوه في آخر رمق من الحياة من الخوف والجوع والنصب، فجاءوا به من (القائم) إلى المنزل الّذي بعده (أبي كمال) فلما جيء به صار لمجيئه والتقاطه هَمَاهِم[١] وضجَّة في الحاجِّ على العادة، حَتّى بلغ ذلك الدكتور فجاءه وقال: ان تعافى هذا إلى أربع وعشرين ساعة يلزم الحجر والمراجعة، فما كان - أطال الله لكم البقاء - إلا قليل حَتّى توفّي فحبسهم في غربيّ البلد، ثم وضع الحبال على الشرق من جهة ورود الحاج، فلما وردنا منعونا من دخول البلد حَتّى جاء الطبيب وفتش على الرفقة فلم يجدْ إلا الصحَّة والسلامة، فرشَّ عليهم تلويثة ورفع الحجر، وصار الرَفقة يدخلون البلد ويمتارون وبقي الركب إلى طلوع القمر.

في الصالحية

فارتحل الساعة الثامنة من ليلة الثلاثاء ٢٣ شوال إلى أن أتينا الساعة الرابعة من نهاره إلى فسحة على الفرات ليس فيها سوى المنابت الطبيعية من الشوك و(شجر) الطرفاء وأمثالها وعلى الخصوص الطرفاء، فإنّها كانت متَّصِلة من مسافة

---

(١) هماهم: جمع همهمة، وهي ترديد الصوت في الصدر.

تسعة أميال على جنبي الجَادَّة؛ ولكنَّها غير واشجة كما في ذلك الغاب، ويُسمّى هذا الموضع بـ(الصالحية) وفيه خان معدّ للأجرة على المترددين في ذلك الطريق، وهو صغير ساقط في السفح والجبال مجلّلة له، وبينه وبين الشط فسحة يملؤها الفرات عند أوّل زيادته، وإلى جنب ذلك الخان نقطة فيها بعض الجندرمة، وكان فيما يقابلنا من شرقي الفرات جبالٌ شاهقة وتلال عالية تُرى عليها عماراتٌ مرتفعة تكاد تناطح النجوم وهي كأمثال الأسطوانات والمناير، ومثل هذا كان في (أبي كمال) أيضاً، فسألنا عن هذه المواضع فقالوا: هي بلاد قديمة قبل الإسلام للافرنج والروم فلما ظهر الإسلام جاء الإمام علي عليه السلام فدعاهم فأبوا، وفي (النُهيّه) نُهي، وفي (القائم) قامتْ عليه قبائلهم وجنودهم فقاتلهم؛ حَتّى أفناهم وبادتْ ديارهم وبقيتْ اثارهم، وأهل تلك النواحي على هذا لهجة واحدةً لا يختلفون فيه ويُسمّون تلك المواضع بالناغوز والناغوزات بالزاي أو بالسين، وهذا الّذي يذكرونه ليس له شاهد من التواريخ أصلاً، ومن المظنون القريب جداً أنَّ هذه بلادٌ وأمصارٌ لهراقلة (الشام) قبل الإسلام؛ ولكنّها في حروب (مؤته)[١]، و(تبوك)[٢] وأشباهها مما هو في حياة حضرة صاحب الرسالة

---

(١) مؤته: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وقيل: مؤتة: من مشارف الشام وبها كانت تطبع السيوف، وإليها تنسب المشرفية من السيوف، بعث إليها النبي صلى الله عليه وآله جيشاً سنة ٨ هـ وبها قبر جعفر بن أبي طالب (رضوان الله عليه) ... .
ظ: (معجم البلدان ٥: ٢٢٠).

(٢) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، وقيل بركة لأبناء سعد من بني عذرة، وقال أبو زيد: تبوك بين الحجر وأوّل الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي (صلى الله عليه واله وسلم) ... غزاها النبي صلى الله عليه وآله سنة ٩ هـ).
ظ: (م، ن ٢: ١٤).

وبعدها بادتْ وخربتْ لِتفاني أهلها وهجرتهم عنها، وأنَّ فيها كنائس عظمى وفي الكنائس نواقيس عظيمة، وهذه المرتفعات الباقية هي المنارات التي تُنصب عليها النواقيس كما هو العادة من إحكامها واتقانها وارتفاعها، ويكون هذا تحريفاً من الأعراب حيث يسمّونه الناقوس (بالناغوز) والنواغيز ويساعد ذلك في الجملة ما يذكرونه من أنّهم يجدون في قرب تلك التلال التي عليها تلك العمارات قبورهم، وقد أخرجوا كثيراً من عظامهم وأكفانهم منها، وهي أكفان على ما نقلوا عجيبة؛ فإنّها من كرباس غليظ جداً معمول ببعض الشمع والأدهان التي تخصّه بأن لا يبلى، وهذه الأحوال تشهد بأنَّها قبورُ ملوكهم أو بطارقتهم؛ فإنّ مدافنَ هؤلاء في الكنائس أو إلى جنبها حتّى الآن.

وأقمنا في (الصالحية) بياض نهار الثلاثاء وزُلْفَة [1] من ليلة الأربعاء، وفي غضون ذلك جرينا في ميدان المذاكرة الموظفة فكان مما وقع الإشكال فيه من عبارة (الدروس) قوله: «والظاهر أنّ استطاعة النذر شرعية لا عقلية، فلو نذر الحجّ ثم استطاع صرف ذلك إلى النذر، فإن أهمل واستمرّت الآستطاعة إلى القابل وجبت حجّة الإسلام أيضاً» [2].

ومحلّ السؤال أنَّه ما وجه تقديم حجّة النذر؟ مع أنَّها قبل الآستطاعة هي وحجّة الإسلام في رتبة واحدة واجبان معلقان على شرط واحد وهو الإستطاعة، فعند حصوله يتزاحمان، فينبغي تقديم الأهم والأهميةُ لحجّة الإسلام بالضرورة، ثم على تقديره ما وجه قيد الإهمال؟ فإنّ الآستطاعة لو استمرتْ وجبتْ حجّة الإسلام سواء

(١) زُلْفَة: سَاعَاتُ اللَّيل الآخِذَةُ مِن النَّهَار، وسَاعَاتُ النَّهَار الآخذَةُ من اللَّيل.

(٢) ظ: (موسوعة الشهيد الأول (الدروس الشرعية في فقه الإمامية/١) ج٩: ٢٣٣.

أهمل حجّة النذر أم لم يهملها، وأمّا احتمال أنّ حجّة النذر لو فعلها ولم يهملها فهي مسقطة لحجّة الإسلام أو متداخلة معها بخلاف ما لو أهملها، فإنّهما تحبسان معاً وتقدّم حجّة الإسلام في هذه الصورة، فهو وإن كان غير بعيد عن العبارة ولكنّه بعيد عن الأصول والقواعد جداً. هذا ما حضر لدي بادئ التأمل. والله أعلم بالحقيقة.

ثم انتقلنا إلى بعض المسائل الحكميّة منها الإشكال على البرهان الّذي تمسّك به صاحبنا الفاضل[1] المتقدّم على كون الواجب هو الوجود لا بشرط لا الوجود بشرط لا. والبرهان: إنّ طبيعة الوجود من حيث هي مع قطع النظر عن سائر الحيثيّات والمغايرات موجودة بالضرورة الذاتيّة الأزليّة من غير حيثيّة تقيديّة ولا تعليليّة، ضرورة ثبوت الشيء لنفسه، والعدم ليس بموجود في نفسه حتّى يكون علّة لوجود غيره، ولا ثالث للوجود والعدم وكلّ موجود كذلك فهو واجب الوجود، فطبيعة الوجود واجبة.

والإشكال: إنّ لازم هذا البرهان أن لا تتحقق الموجودات؛ بل تكون كل الموجودات واجبة وهو باطل بالضرورة، فأجاب بأنّ الموجودات الامكانية ليستْ من طبيعة الوجود وإنما الإمكانية هي ظهورات تلك الطبيعة وشؤونها وتجلياتها وأفعالها، ولا ضير أن تكون الطبيعة واجبة وظهوراتها وأفعالها ممكنة. فقلتُ: لا ثالث بضرورة العقل للوجود والعدم، فالممكنات الوجوديّة أما أن تكون من طبيعة العدم وهو محال، وأما من طبيعة الوجود فجاء المحذور.

فلم نزلْ نتجاذب أَعِنّة المراجعة والردّ والإيراد حَتّى نُودي فينا بالرحيل، فركبنا

---

(١) الشيخ علي أصغر الهزارجيبي المازندراني.

قبابنا وسيقتْ رواحلنا في الرابعة من الليل ليلة الأربعاء ٢٤ شوال، فسرنا في ليلة دهماء بفلاة هيماء والسحاب الأسود من قزع[١] الخريف قد غشى جملة من السماء وكانت الأرض أرض زرع كلّها عثرات وعقبات والظلمة شديدة إذا أخرج بها الرائي يده لم يكدْ يراها[٢]، فلم يكنْ بدّ من إشعال السرج والفنرات[٣] فقيدتْ كل دابة ومعها سراج فامتدتْ الأضوية قطاراً على طول القطار في عرض تلك الفيافي القفار؛ وصار لها منظراً أنيقاً، وما سرنا إلا قليلاً حَتّى أصابتْ الرواحل الجَادَّة المستقيمة في أرض سمحة سهلة، وطالعتنا عن يسارنا تلك الشمّ الهواضب الّذي يرتد البصر عن ذراها خاسئاً حسيراً[٤]، وهو يحدّ تلك الجَادَّة ويتصل بها اتصالاً محدوداً على ميزان قاسطٍ لا يتجاوزه ولا يتعدّاه، فبقي ذلك الجبل الصلد الأصمّ يُسايرنا ونسايره وأنا أفتَكِرُ[٥] فيه وابتهر حَتّى بلغنا إلى فُوَّهَةٍ فيه وشعب منه، فاستبان أنّ طريقنا منه، وأنَّه يلزمنا الصعودُ عليه بمحاملنا وأثقالنا، وكان وقوعه إلى جنبي يملأ بالرعب والهيبة قلبي، فكيف بارتقائه من أرضه إلى سمائه ولكن:

هي النَّفْسُ ما حَمَّلْتَها تَتحَمَّلُ[٦]

---

(١) القزع: قطع السحاب، الواحدة قزعة وهي رقيقة الظل تمر تحت السحاب الكثير.

(٢) أفاد من قوله تعالى: ﴿إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لم يَكَدْ يَراها﴾ سورة النور: ٤٠.

(٣) الفنرات: كذا، والصحيح: الفنارات، جمع فنار: المشعل.

(٤) أفاد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ سورة الملك : ٤.

(٥) أتأمل.

(٦) صدر بيت، لعلي بن الجهم، وعجزه:

وَلِلدَّهْرِ أَيّامٌ تَجور وتَعْدِلُ

ظ: (ديوانه ص١٦٢).

حقيقة الوتد التكويني

وعلى العلات صعدنا من تلك الفُوَّهَةِ فوجدناها مسرّحة سراحاً حسناً، ولم نجدْ فيه كثير مشقة - بحمد الله - وكانت الجبال منضودة بعضها على بعض، فإذا ارتقى الراقي إلى جبل وجد في أعلاه سرحة وإلى جنبها جبل فوق الأوّل، فيسير قليلاً حَتّى ينتهي إلى فُوَّهَةٍ يصعد منها إلى الأعلى، وهكذا ثلاثاً أو أربعاً، وكانت الثانية أحسن تسريحاً من الأولى، وهي شعب في الجبل الثاني قد عمل فيه العَمالون وبنوا طرفيها بالصخر والحجارة، وحفروا فيهما نهرين يميناً وشمالاً لا يبلغ عمقهما نصف متر وعرضهما، كذلك وضع الساقية، وهما متصلان بسفح الجبل وأسفله ليكونا مصبّاً لمجاري السيل وتسلم الجَادَّة وهي في عرض حسن بقدر محملين، وأرضها من نفس أرض الجبل لا تجد فيهما شيئاً من الحجارة وغيرها لا قليلاً ولا كثيراً بل ولا من التراب، والحاصل هي ألطف صنع وأحسن نظام فسألنا عن العاملين في هذا المشروع الخيري فقيل: أرباب العجلات من أهل حلب والشركة التي كانت بينهم وبين البغداديين التي انحلّت؛ ولو دامت لأصلحت أكثر الطريق هذا الإصلاح لكنّها لم تربحْ سوى الخسار، وهذه الجبال أعظم ما شاهدتُه هذه المُدّة في تلك المراحل بل في الحقيقة هي الجبل الواحد الّذي تلقّانا من عن يسارنا من فوق هيت، الّذي هو ثاني منازلنا من الكاظميّة، ولكن ذلك الجبل يعلو تارة وينحطّ أخرى وطوراً يتجافى ويبعد عنا، وفي حال آخر يتدانى ويقرب منّا، وهو متصل متسلسل في أكثر من مائة فرسخ حسب الّذي أبصرناه وما خفي علينا منه أعظم، هذا من الجانب الغربي. وفي الجانب الشرقي مثله وبمعاينة هذه المواضع والتدبّر فيها اتضح لي وجه كون الجبال

أوتاداً للأرض كما نطق به الذكر الحكيم[١] وكانت تخطر هذه الآية الذهبية على بالي فلا ينفتح لي فيها الوجه المقنع فارجع إلى الجمود والتقليد واقتنع بهما منها، حَتّى فتح لي بابَها صانعها الحكيم المدبر العليم؛ فانَّ فلسفةَ معنى الوتد وحقيقته هو الحافظ لهيئة الشيء المؤلّف من أجزاء عن تلاشي هيئته وتفرق أجزائه سواء كان من الشيء أو خارجاً عن الشيء، هذا حقيقة معناه ولبه على وجهه الجامع الواسع كلّ شيء بحسبه وفي كل مقام ما يليق به، ولما قضت العناية الأزليّة أنْ تكون الأرض للإنسان بل لسائر الحيوان مقراً وموضعاً لانتفاعاته وقضاء حاجياته ولوازم تعيشه بل ومماته ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥] فلا جرم جعلها - جلّت حكمته - ملائمةً مطاوعةً باجتماعها من أجزاء وذرّات بسيطة أو مركبة فكانت وهي على هذه الصورة معرضاً للتلاشي والتفرق، ويوشك أنْ تصبح هباء في أيدي الرياح والزعازع[٢] فلا محالة فتّق الجبال منها وأرساها فيها ووصل بعضها ببعض وبسط قِطع الوهاد الفسيحة بها التي تكون موضعاً للحرث والغرس وسائر الانتفاعات الطائلة التي تكون بها مواد الحياة وبها تمام النظام، فكانت تلك الجبال المستديرة على تلك الفساح كائنةٍ تحفظ ما فيها عن التفرق والتشتت، وجعلها مرتفعة عن الأرض لِتُكافح بصلابتها تلك المعصرات التي تؤثر في السحب فتعصر ماءَها فكيف لا تؤثر في الأرض فتغرق أجزاءَها، ولكن هذه الرعان[٣] الشامخة في الأجواء المناطحة نجوم السماء هي التي تقوى على تمزيق

---

(١) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ سورة النبأ، آية ٦،٧.

(٢) الزعزعة: الجمع زعازع، تحريك الأشياء لشدتها.

(٣) الرعان: جمع الرعن: أنف الجبل المتقدم.

تلك الأهواء، هي التي تكون مجناً[١] للأرض وأوتاداً ومَدرءً[٢] لها، وبها ترسو وترسب في تلك التيارات الجارفة، وإنْ تحركت بحركتها الطبيعية عند قابلها فإنَّ ذلك غير ضائر فيها ولا مضرّ بها بخلاف تلك العواصف التيارة، فالجبال هي الأوتاد التي تحفظ الأرض عن تفرق أجزائها وزوال هيئتها، تربط وتشدّ بعضها إلى بعض، وهل الوتد إلاّ هذا ؟! . وهذا الوجه هو الظاهر البديهي للمتأمل مع العيان والمشاهدة لتلك الآيات الباهرة والمخلوقات العجيبة وهو من فوائد السير في الأرض، الّذي أمر الله به في كتابه الكريم[٣] فيما لا يحصى من المواضع لتَحصل الفكرة بعظمته وقدرته، والعِبرة بآياته الشاهدة على عظيم علمه وحكمته.

هذا ما حصل من مراجعة الكتب التكوينيّة والمطالعة الانفسيّة، وما أدري ماذا تقول الكتب التدوينية من اللغة والتفسير؟! فإنّي لا أستحضر شيئاً ولا يحضرني شيء منها؛ ولعل الحقيقة وراء هذا، وهذا الوجه الّذي ذكرناه في الوتدية هو أحد الحكم والأسرار في الجبال، وفيها هناك منافع وحكم تقصر العقول دونها، أوليست هي خزائن الله ومعادن الثروة الطائلة؟، وقد أردنا هنا تفسير هذا المعنى ليكون شارحاً لقولهم‰ (يا من في الجبال خزائنه)[٤] ولكن طال بنا المقام وخرجنا عن القصد كثيراً.

---

(١) مجناً: ستراً.

(٢) المِدْرَأُ بالكسر: ما يُدفع به.

(٣) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ سورة الحج: ٤٦ .

(٤) وردت في دعاء (جوشن الكبير) المروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

في الميادين

فنقول: إنَّ تلك الجبال المتراكمة المتعالية ألقتنا إلى أرض بسيطة وسيعة مدّ البصر ما وجدتُ [مُدّة] عمري أرضاً أبسط واسبط[١] وأسهل منها، لا تجد فيها ولا قدر إنملة من حجارة أو صخرة أو ما يوجب زلة أو عثرة، وفيها صلابة ملائمة يعلوها من ناعم التراب ودقيقه قدر ما يوجب سهولة المشي.

وبالجملة هي أحسن أرض لطراد الخيول ومنازلة الأبطال وتُسمّى هذه الأرض بـ(الميادين)، وهي (ميادين صِفّين)[٢] تلك الوقعة التي تستك[٣] منها المسامع، ويحق لو تخرّ لها العيون قبل المدامع التي ضحّتْ ملايين من النفوس الإسلاميّة، وعلى الآخرة لم ينتصرْ الحق فيها من الباطل.

وكان على يسارنا تلال ترابيّة كثيرة متَّصِلة، بقيتْ منها آثار قديمة وعمارات فوق التلال مرتفعة من جدران ومنارات وغيرها، تَشهد تلك الآثار أنَّ هذه التلال كانتْ بلاداً فبادتْ وعمرانات فخربتْ.

فسبحان مَنْ لا يدوم إلاّ وجهه ولا يبقى إلا ملكه وسلطانه.

ثم دفعتنا تلك الصحراء الوسيعة بعد السير قريب ثلاث ساعات فيها إلى بلد

---

(١) اسبط: امتد وانبسط.

(٢) صِفّين: وهو موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، وكانت وقعة صفين بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية (لعنه الله) في سنة ٣٧ هـ في غرة صفر، وكانت الوقائع تسعين وقعة، وقد أكثرت الشعراء من وصف صفين في أشعارهم ... .
ظ: (معجم البلدان ٣: ٤١٤ – ٤١٥).

(٣) تستك: استكت مسامعه إذا صُمّ.

تُسمّى باسم تلك الأرض (الميادين)، فنزلنا خارجها الساعة الرابعة من نهار الأربعاء ٢٤ شوال وهي قضاء ترجع إلى متصرفية (الدير)، وتشهد الآثار بقدمها، وفيها عمارات مستجدة جيدة وغير جيدة، وفيها جوامع ومنارتان قديمة وحادثة، وهي على شاطئ الفرات الغربي، وفيها سوق إلى المدن أقرب، وقد دبّتْ فيها بعض نسائم التمدنَ وهيهات ! فكان فيها مكينة طحين ولكنَّ أهلها في غاية التوحش والهمجيّة وهم مع الإيرانيين على طرفي نقيض وكلاهما سواء في الخشونة وعدم الآداب.

خرج إيراني وقت الغروب فأذّن وأنت تعرف ما مقدارهم في الجهل وعدم المعرفة، فأنصتَ له رجل منهم حَتّى قال: (أشهد أنَّ إمامنا إمام المتقين وقائد الغرّ المحجلين...) إلى آخر الزيارة (عليّاً وليُّ الله...)، فقال له الرجل: (تعلاوة على قلبك) وسبَّه ومضى وأقمنا ذلك النهار.

وفي الساعة السادسة من ليلة الخميس رحلنا في مثل تلك الأرض في سهول لا ترى فيها عِوجاً ولا امتاً[1]، وما مرّت بنا مرحلة أسمح أرضاً وأوطى ظهراً وأقوم طريقاً من تلك البسيطة؛ حَتّى أنّا لم نجدْ فيها إلى غايتها ربوة ولا تلعة ولا عقبة ولا عثرة، أما سلسلة تلك الجبال والتلال فقد ترامت عن يسارنا بأميال، وهذه الأرض أيضاً من (ميادين صِفّين)؛ ولكنَّ العجب كلّه أنَّه لم نجدْ فيها على سعتها وطولها مرقداً مشيّداً ولا مقاماً مُعلّماً، مع أنّ الحال يقضي بكثرة قبور شهداء (صِفّين) فيها من أكابر الصحابة والتابعين الذين انجلتْ تلك المعركة وهم ضحاياها؛ ولعلّ مواضع دفنهم غير مواضع مصالهم[2] ونزالهم.

---

(١) أفاد من قوله تعالى: ﴿لا تَرى فيها عِوَجاً وَ لا أَمْتا﴾ طه، آية: ١٠٧.

(٢) مصالهم: مكان صولاتهم في الحرب.

في الدير

وعلى أيٍ فقد وصلنا بمنّه تعالى الساعة الرابعة من نهار الخميس ٢٥ شوال إلى بلد (الدير) وكان ركوبنا إلى هذا المنزل والذي قبله عشر ساعات وأثنى عشر ساعة ركوباً واحداً وحقّاً (انّ المعونة تنزل على قدر المؤونة)[١]، ما كنتُ أحسب أنَّ هذا الضعيف تدوم صحَّته على أقل من النوم الضروري الطبيعي المقدّر بست ساعات من مجموع الليل والنهار، وفي طول هذه المُدّة ما اتفق لي النوم أكثر من ثلاث ساعات من تمام الأربعة وعشرين، أمّا الليل فأكثر سيرنا فيه، وإذا دخلتُ محملي أذهبتْ حركتُه وهزّتّه كلّ سِنّة ولو كنتُ قد سهرتُ سَنه، على عكس كافة أصحابي فإنَّه لهم كهزة المهد يرقدون حَتّى ينزلون، وأمّا النهار فما كان يتسع الباقي منه بعد السير وقضاء الضروريات لأكثر من نوم ساعتين، وعلى النادر ثلاث؛ ولكنَّ - الفضل والمنّة لله - لم أجدْ له في وهن صحتي أثراً. وقبل الوصول إلى نفس (الدير) بأربعة أميال فأكثرُ طالعتنا مناراته العالية الأنيقة فعددناها فكانتْ ست منابر كلّها بيض على طرازها الحديث.

ثم غَبَّ يسير لاحتْ لنا البلد بتمامها وذلك لبساطة الأرض وتسطيحها، ثم تلقّانا الفرات بذلك الوجه الطليق والمنظر الأنيق فسايرنا قدر ميل؛ ولكنّه في عمقٍ عن أرض الجَادَّة، شاسع لارتفاع الأرض وانخفاضه، ثم انحرف عنّا أو انحرفنا

---

(١) قال الإمام الصادق عليه السلام والذي بعث جدي (صلوات الله عليه وآله) بالحق نبيّا إنَّ الله (عز وجل) ليرزق العبد على قدر المروءة وإنَّ المعونة تنزل على قدر المؤونة، وإنَّ الصبر ينزل على قدر شدّة البلاء.

ظ: (من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٩٤).

عنه حتّى وردنا البلد، وكانت خيامنا قد ضربتْ أمامنا خارج البلد متّصلة به، وريثما أخذنا طرفاً من الإستراحة دخلنا البلد لسحب التيلغراف إلى (النّجف)، فوجدناها من البلدان العامرة والأمصار، لم نرَ شبيهاً لها في كلّ ما مررنا به بل ولا شبيه لها في (العراق) كلّه إلاّ محلّة (العباسيّة)[١] من (كربلاء)؛ فإنّ أزقتها وشوارَعها وأسواقَها بتلك الهندسة وبذلك التفصيل سوى أنّ هذه تفوق تلك بأمور كثيرة من الفراهة والنزاهة والبنيان لطرفيها الآخرين الّذي هو محل المرور بالصخر الحسن المنحوت على شكل لطيف، وأكثر دورها وقبورها وجوامعها ومناراتها مبنية بالصخر المرمر العال الّذي هو كالمرآة، وهو أبذل شيء هناك؛ لأنّ معدنه جبل قريب من البلد جداً ومنه يحمل إلى سائر الأطراف، والآن مشغولون ينحتون منه لفرش الحرم المقدس الحسيني - صلوات الله على مشرّفه - والعزم على الإقامة فيها يومين أو ثلاث للاستراحة وإماطة وعثاء السفر.

وبمعونة الله - تعالى - وتسهيله سوف نذكر شطراً من أحوال البلد وما نقف عليه منها في الأجزاء الآتية فإنّ العزمَ - بمعونة الله - على اطرادّ هذه المقالة إلى حيث يشاء الله لنا من هذا السفر ومنه نستمد وعلى جوده وكرمه نعتمد.

---

(١) محلّة العباسيّة: تقع إلى جنوب المدينة، وقد اختطت في عهد الوالي (مدحت باشا)، وتعرف بالجديدة، وقسمت إلى قسمين:

العباسيّة الشرقيّة: وهي التي تقع إلى شرق شارع العباس.

العباسيّة الغربيّة: وهي التي تقع إلى غرب شارع العباس.

ظ: (تراث كربلاء، سلمان هادي طعمة، ١٠٤ – ١٠٦).

متفرقات(١)

• جميع أهالي هذه الصفحات عرب لا دخيل فيهم أبداً وكلّهم شافعيّة، وليس للجعفريّة فيهم عينٌ ولا أثرٌ، نعم للإمام عليّ وأولادهﷺ ذكر عظيم ومقامات كثيرة وكرامات على ألسنتهم شائعة، وللشيخ عبد القادر(٢) عندهم شأن عظيم وأكثر قسمهم به.

• مسيرنا من (الكاظميّة) إلى (هيت) تغريب(٣) محض، ومن (هيت) إلى (الدير) إلى خط الشمال، ومن (الدير) إلى (الشام) نعود إلى التغريب؛ ولهذا كان هذا الطريق سلوكاً من الجهة البعيدة جداً، وإلاّ فمن (هيت) إلى (الشام) ثمانية أيام بخط مستقيم إلى الغرب، ولكن لعدم الماء والعمران فيه تعدل عنه القوافل والسابلة وتسلك هذا الفج العميق الّذي يُفنى الصبر فيه ويقطّع آباط الإبل(٤). وفي كل يوم سفر جديد وحلّ وارتحال ومتاعب شديدة فوق العادة مع ما فيه من لزوم صرف الأموال الباهظة والمصارف الطائلة، فإنَّ جميعَ الأجناس في جميع هذه

---

(١) العنوان من المؤلف.

(٢) عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله بن جنكي دوست بن أبي عبد الله بن عبد الله الجيلي ثم البغدادي، الزاهد، ويسمّونه (سيد أهل الطريقة)، ولد سنة [٤٧٠ هـ] بكيلان، و توفي سنة (٥٦١ هـ)، بلغ من العمر تسعين سنة.
ظ: (الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب (ت ٧٩٥هـ)، ٣: ٢٩٠ – ٣٠١).

(٣) التغريب: النفي عن البلد.
قال السيد عبد الستار الحسني: ليس المراد هذا المعنى المذكور في معجمات اللغة بل مراد الشيخ تتئ أنّ مسيرهم كان نحو الغرب بلا ميل ولو قريب إلى اليمين أو الشمال، أي بخط نازل من الشرق إلى الغرب باستقامة كما يدل عليه السياق.

(٤) الآباط: جمع إبط . وضرب الآباط كناية عن شدِّ الرِّحال وحثِّ المسير.

المنازل لا يبذلها أهلها للحاج إلاّ بأضعاف أثمانها، والخوف والخطر في أكثر المراحل شديد، وقد بقي لنا إلى (الشام) عشرة منازل جملة منها شاقة لعدم الماء إلا من بئر مالحة، ولطول المسافة حَتّى أنّ بعضها يستلزم ركوب يوم وليلة بتمامها لا يحطّون فيها إلاّ للصلاة، ونذكر - إن شاء الله - ما نشاهده منها، وفيها (تدمر) التي هي من العمارات الباهرة التي يقال إنّها: من بناء الجنّ لسليمان بن داود ﷺ.

● أمس ليلة الخميس ٢٥ شوال، نزلتُ من راحلتي سحراً فنظرتُ إلى المشرق وإذا بكوكب مذنب مستطيل الذنب وان كان ضعيفاً لقرب القمر منه.

● اليوم صباحاً زارنا في خيمتنا جماعة من أهل (الدير) وبعضهم من الطلبة وأهل العلم وجرتْ مسائل كثيرة بيننا منها مسألة المتعة وغيرها.

● وكان قد زارنا في (أبي كمال) السيد محمد حسين الصدر[1] بعمامته الخضراء الشامية وجبته الزرقاء وطرزه الحديث، عرفني وأنا له منكر، حَتّى تصافحنا وأدينا رسوم الآداب، واليوم أيضاً زارنا صباحاً مع جماعة من الحاج، ونسأله - تعالى - أن يتم لنا ولإخواننا بالخير - إن شاء الله -.

● دخلنا (للدير) يوم الخميس ٢٥ شوال، وبقينا فيه ليلتين وثلاثة أيام، وطفنا في أكثر شوارعه وأطرافه، والتقينا بجملة من أمرائه، وعلمائه، وأشرافه، وهي من أمهات الأمصار الكبيرة، ويصحّ أن يقال: إنّها أوسع من (بغداد)؛ ولكنّها متصرفية، وأوّل خطّتها والإدارات التابعة [لها] (القائم) المنزل المتقدّم وهو ناحية

---

(١) هو السيّد محمّد حسين ابن السيد هادي الصدر (١٢٨٨هـ - ١٣٣٠هـ) من أعلام اسرته ووجوهها، حجّ بيت الله الحرام سنة ١٣١٧هـ وسنة ١٣٢٥هـ وسنة ١٣٢٩هـ.
ظ: موسوعة السيّد شرف الدين (بغية الراغبين) ٧: ١٣٥٩.

لقضاء (أبي كمال) التابع (للدير)، فمنتهى خَطّه (العراق) وحكومتها إلى هناك، ومبدأ الدخول في تربة (الشام) وهوائه من ذلك، ثم (الميادين) وهو أيضاً يتبع (الدير) ويتبعه أقضية أخرى ستأتي - إن شاء الله تعالى -.

في الدير

أمّا هذا البلد فمن أزهى البلاد وأبهاها، وكانتْ قبل من أسقطها وأدناها على وضع القرى الغير المنتظمة، وقبل سنتين أو ثلاث جعلوها على تنسيق جديد وطرز حديث وهندسة بارعة، وقدرّوا الشوارع على نسق واحد وسطه سبعة أمتار، وفي طرفي الشارع جادتان مفروشتان بالصخور المربعة المستطيلة يبلغ عرض كلّ جَادَّة مترين؛ بل ونصفاً، لا تتقدم دار عن دار، ولا ينحرف جدار عن جدار، وفي شارعها العام جملة من الأضوية البرقية، وكل أبنيتهم بالصخور والجص الممتازين، والصخر عندهم ثلاثة أنواع: مرمر وهو ألطفها، وكلس، وحلاني وهو أقواها، وهذه الأنواع كلّها عندهم أبذل وأيسر من الحجار في سائر الأقطار؛ ولذلك تجدها مشتملة على القصور المنيعة والحصون الشاهقة على أبدع شكل وأنسق طرز، وبيوتهم في غاية الفراهة والسِّعة والتزويق بتلك الصخور المرمرية المختلفة الألوان المنحوتة على أشكال شتى وكيفيات مختلفة، وهي مصقولة بأحسن صقال حَتّى تجد أكثرها أصفى من السجنجل[1]، وعلى أبواب أكثر دورهم وإداراتهم صخرة كبيرة موضوعة فوق الباب منحوت فيها أمَّا آية قرآن، أو فقرة حديث، أو أبيات شعر تناسب المقام، ولكن أكثر ما وجدتُه من تلك الأشعار

---

(١) السجنجل: المرآة النقية .

ليس فيه من شرائط الشعر سوى القافية، نعم وقفتُ على باب دار شاهقة يحار البصر من حسنها وإتقانها وعجيب هندستها وأنواع صخورها، وكانت على الباب صخرة فيها أبيات شعر أعجبتني سلاستها وفي آخرها تاريخ عمارتها وأوّل الأبيات:

يا دار لا دارَ فيك الهمّ والحَزَنُ ... والسوء لا مَسَّ قوماً فيكِ قد سَكَنُوا

وفي آخرها:

داموا ودُمْتِ بأفراحٍ يُؤَرِخُها ... حِصْنٌ عُجابٌ وقَصْرٌ مُتْقَنٌ حَسَنُ[(١)]

ثم قبل الظهر من يوم الجمعة دخلنا الحمام فوجدناه من الحسن والنفاسة، والسِّعة بالمحلّ الفائق والمقام الراقي، وكلّه على أعمدة الرخام العالية المُشكّلة بألطف الأشكال، مفروشاً بتلك الصخور المعجبة، والعمدة في تفوّق هذه البلد وتقدّمها وجود تلك المعادن الصخرية إلى جنبها، فإنَّها في جبل في غربها يبعد عنها بساعة أو ساعة ونصف؛ ولعلّه ذلك الجبل الممتد المستطيل الّذي يسمح في كلّ مسافة ما يذخره من ذخائره ونفيسة من معادنه وجواهره، وفيها جوامع كثيرة أعظمها ثلاثة:

(الجامع العمري)[(٢)] الّذي أسّس في زمان الخليفة عمر بن الخطاب التي فتحت هذه البلد في أيامه، وهو جامع البلد وفي وسطها الحقيقي، وفيه أرفع المنارات المبنيّة بتلك الصخور المربعة المستطيلة البيضاء، وهكذا سائر منارات

---

(١) تاريخ البيت الشعري هو (١٣٢٦هـ).

(٢) جاء في (أسواق دمشق القديمة ومشيّداتها التاريخية) ص٣٩١ مانصّه: (جامع سيدنا عمر بن الخطاب في سوق باب السريجة قبالة شارع الشيخ حجاز (زقاق الحطّاب) ولا تحمل اللوحة المثبتة فوق ساكف بابه أيّة اشارة لتاريخ بنائه سوى عبارة: (جامع سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – جدد ١٣٨٢هـ – ١٩٦٢م).

جوامعها التي تطالع الرائي من مسافات بعيدة، ولا سيّما في النهار إذا ضربت بها أشعة الشَّمس فاستنارتْ كأعمدة النور، ويذكر أهل البلد من خاصَّتهم وعامَّتهم أنَّه تفوحُ في هذا الجامع نصف الليل ونصف النهار عند الظهر رائحة طيبة؛ وذلك لأنّ رأسَ سيّد الشهداء (صلوات الله عليه) وضع فيه من نصف الليل، وارتحلوا به نصف النهار حين ساروا به إلى (الشام).

والجامع الثاني: (جامع الشارع العام)، والثالث: (جامع الصراي).

وفي كلّ تلك الجوامع من الأضوية والمعلقات شيء كثير من النفائس وكذلك الأفرشة وغيرها، وبعد الظهر جاء إلى المخيم أفنديان عليهما لوائح الهيبة والجلال، ومعهما غلام يافع كأنما خرجوا للتنزه والترويح، فلما بصروا بي قصدوني لمحلّي فسلّموا ورحبتُ بهم فجلسوا في الخيمةِ وتعرفوا مني وطني وحسبي ونسبي؛ ولكنَّهم كانوا يتكلفون العربية وجعلوا الترجمان بيننا ذلك الغلام، فكانت الملاحة والظرافة تتناثر من فمه، بيد أنَّه كان يتكلم بحماس وحِدّة مع غاية من النزاكة - مكان بعض الأخوان خالي في مثل هذه المقامات وأنا لا ازال أذكره بنفسي عندها -، وعرَّفوني أنفسهم، فكان أحدهم: رئيس جزاء المحل وهو من أهل (قونية)[١]، والثاني: مدير المعارف من أهل (أنقرة)[٢]

(١) قُونيَة: من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها سكنى ملوكها، قال ابن الهروي: وبها قبر أفلاطون الحكيم بالكنيسة التي في جنب الجامع... .
ظ: (معجم البلدان ٤: ٤١٥).

(٢) أنقرة (انكورية): مدينة مشهورة بارض الروم، غزاها الرشيد وفتحها. وفي (دائرة العارف الأسلاميّة ٣: ٧٠ -٧٦): اسم عاصمة الجمهورية التركية، وتعرف عند الغربيين باسم (انكوره).
ظ: (اثار البلاد واخبار العباد ص ٥٠٦).

والغلام ولده وهو في المكتب الإعدادي، وخضنا في مواضيع شتى ومطالب مُتفرِّقة أكثرها حديث (ايطاليا) و(الدَّولَة العلية)[١]، ثم بعد مُدّة ودعوني وانصرفوا، فخرجتُ للوضوء والتهيؤ للصلاة وإذا بأفندي ذي شيبة بهية وجسم ضخم، كان رآنا عند المتصرف وكُنَّا ذهبنا إليه لعرض الحال في أمر السرقة، فسحب بتلغراف إلى قائمقام (أبي كمال) يلزمه بها، فقال ذلك الأفندي: جئتُ لزيارتكم فرحبنا به وجلس وأطال، فعرفنا أنَّه مدير المكتب الإعدادي وألزمنا بزيارته في المكتب، وكان عربيّاً حسن اللهجة وهو (نقشبندي)[٢] لا يخلو من معرفة وممّا استشهد به في ما يناسب البيتين المشهورين:

إذا ضاقت بك الدنيا ... تفكر في ألم نشرح
فعسرين بسرين ... إذا تقرأهما تفرح

واستشهد أيضاً من الفارسيّة فيما يناسب:

مرا به كعبه جه حاجت كه جار ديوار است ... طواف كعبه من ديدن رخ يار است

وكان ممن أنس إلينا وواظب على الحضور في محلّنا صبحاً وعصراً رجل من طلبة (الدير) وإماميّ في بعض جوامعها يُسمّى بـ(ملاّ نهري)، وكان حاضراً إذ ذاك، وهو يكثر من السؤال والمذاكرة في الفروع والأصول، وهو شافعي ليس عنده إلا حفظ بعض فتاوي الشافعي، ولكنَّه يخوض في كل شيء ويسأل عن كل شيء، وأزيف الغروب قلنا لصاحبنا (النهري): إنّا نريد الرواح إلى الشط

---

(١) الدّولة العثمانيّة.

(٢) نسبة إلى النقشبدنية.

والسير في البلد، فسار بنا إلى الشط فرأينا شيئاً معجباً وأمراً غريباً، وذلك انَّ الشط ينقسم هنا بشعبتين: تتصل إحداهما بالبلد، والثانية إلى شرقيّها، وبين الشعبتين جزيرة كبيرة يبلغ عرضها ميلين وطولها خمسة، وكلّها بساتين أنيقة زاهرة فيها من كل أنواع الفواكه سوى النخيل، وخلال البساتين قصور كلّها بذلك البديع من الصخور والرخام الرائع، وبين البلد والجزيرة على الشعبة الأولى جسر من حديد وخشب قائم على اسطوانات من الصخر المربع مبنية بالكلس والنورة والرماد وسط الشط يبلغ عددها عشر اسطوانات على خط مستقيم يبلغ طول الواحدة سبعة أمتار في عرض ثلاثة قائمة الجسر كأحسن ما يكون من الاعتدال، وهي مبنية بتلك الصخور في غاية الإتقان والإحكام، ومثل هذا الجسر جسر على الشعبة ينتهي إلى شرقي الفرات طرف الجزيرة؛ ولكنَّه بعدُ لم يكملْ، قد بُنيت أكثر أسطواناته ولم يُعقد سقفه، وقد ذكروا لنا في كيفية بناء تلك الأساطين وسط ذلك اللجّ الغامر ما يقضي بالعجب في تفريغ الماء وكبس البناء في محلّه، وهم يبذلون في ذلك الأموال الطائلة وتلك الأساطين بمقام من الإتقان والإحكام حتّى أنَّها لتكافح شدّة جري ذلك الماء المنحدر أشدّ الإنحدار وهي غير مكترثة به ولا متأثرة أقل أثر منه.

ثم رجعنا بعد الغروب وسلكنا الشارع الّذي هو وسط البلد فدخلنا من طرفه الشرقي وخرجنا بخط مستقيم من جانبه الغربي إلى خارج البلد، فكان عرض البلد يقرب من ميلين تخميناً، أمَّا طولها على الشط فقد ذكروا أنَّه يبلغ أربعة أميال.

والحاصل أنّ الأحوال والآثار تشهد باستعدادها وسيرها إلى أعلى مراتب الرقي والعُمْران والتمدن الفائق بحيث تقع في صف أمهات الأمصار المتمدنة

بأسرع زمان، وهي لدى الحال مركز للأمصار العظيمة كـ(حلب)، و(الشام)، و(بغداد)، و(الموصل)، و(دَيار بَكْر)[١]، وغيرها، فإنَّها واقعةٌ وسطاً، تستدير عليها تلك البلاد على نسب متقاربة والقوافل والسابلة تتوارد عليها من تلك الخطط والقارات وفيها أسواق كبيرة، ومغازات حافلة، وخانات وسيعة، والفواكه الشهية، وقد متعتنا ببطيخها الأخضر (الرقي) الممتاز من (عانة)؛ حَتّى أتيناها فوجدنا فيها منه ما لم نرَ مثله مُدّة العمر وقد تبلغ الواحدة عشرين حقة أستانة أو أكثر، وأكثره في غاية الحلاوة والحمرة والرقة، وسائر ما يطلب في ذلك الثمر وهو بقيمة بخسة على الحاج فضلاً عن أهل البلد، ويباع بالعدد على نسبة الصغر والكبر، أخذنا يوماً منه عدد سبعة تبلغ وزنة النَّجف بل تزيد في ربع مجيدي، ومن الغريب عندهم أيضاً الباذنجان فإنَّ الواحدة عندهم تبلغ الحقتين والثلاث وهو مع الرقي عندهم قد يحول تمام السنة، ومثل ذلك بل أحسن عندهم الرمّان فإنَّ عندهم ما لا يوجد في كل العراق مثله، وقد حملنا من هذين الثمرين قدر حمل استأجرنا له دابة مستقلة تحمله معنا فيما بقي من طريقنا، أمَّا أهلها والسواد الأعمّ منهم فهم وإن كان الجَمال والجميل فيهم قليل؛ ولكنَّهم أهل بشاشة وتألّف ولا سيّما لمن هو من عنصرهم من العرب، وللمتوحشين منهم في العرس عادة عجيبة وذلك أنّي كنتُ ذاهباً عصراً إلى البوست[٢] لدفع المكاتيب فرأيتُ حفلة بنات وغلمان يغنون ويصفقون والطبل يضرب أمامهم وبينهم أمرأة في أتمّ الزِّينة

---

(١) دَيارُ بَكْر: ناحية ذات قرى ومدن كثيرة بين الشام والعراق، قصبتها الموصل وحَرّان، وبها دجلة الفرات .... .

ظ: (اثار البلاد واخبار العباد ص٣٦٨).

(٢) البريد (post): كلمة انكليزية.

والملابس الجيّدة؛ ولكنَّها مكشوفة الوجه تصفق وتغني معهم، فسألتُ ما الخبر؟ فقالوا: عروس تزفّ لزوجها، فقلتُ: وأين هي ؟ فقالوا: هي تلك المتزينة، وكان ذلك في أطراف البلد وأقصى المعمورة منها.

وفيها للدقيق مُكينات في أماكن متعدّدة. واليهود هناك والنصارى في غاية القلة، ولا سيّما الأوّل ولكن ما يوجد منهم لا يمتاز، وهي على العكس من (حلب) فإنَّ المسلمَ هناك قليلٌ معدود على أنَّه لا يمتاز عن غيره.

مسائل الشافعي

أما المسائل التي سُئِلنَا عنها وجرتْ المذاكرة هنالك فيها فهي كثيرة: منها مسألة المسح في الوضوء وأنّه ما دليل الجعفرية عليه؟ فقلنا: إنَّ ظاهر الآية الشريفة[1] معهم وأنتم قد خرجتم عن الظاهر وعدلتم عن القريب إلى البعيد.

ومنها مسألة الاستحالة قال صاحبنا النهري: إنَّ الشافعي ينكرها إلاّ في صيرورة الخمر خلاًّ؛ لدليل خاصّ ورد فيها، فقلتُ: فالإنسان يلزم أن يكون عنده نجساً؛ لأنّه كان نطفة، فقال: هو لا يقول بنجاسة النطفة ولكن يقول بنجاسة الوذى، والمذي، والبول، فقلتُ: قد كان دماً، فقال: في الباطن ليس بنجس، فقلتُ: كيف وقد أوجب الشرع فيه الغُسل وما أوجب بالبول سوى الوضوء، وهذا يدل على كونه أشدّ نجاسة منه، فانقطع وغفل عن كونه قياساً لا يقول به الشافعي.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ امْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ إِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ﴾ سورة المائدة من آية ٦.

و سُئِلنا عن دليل المتعة فقلنا: آية ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء، من آية ٢٤] فقال: نسخت بآية ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون، من آية ٦] فقلنا: هي زوجة وإن اختصتْ ببعض الأحكام، وليس هذا ببدع في شرعة الازدواج وأحكام الأزواج فإنَّ الصغيرةَ زوجة، ولا يجوز وطئها ولا تجب نفقتها على أنّها ترثه ويرثها ولهذا نظائر كثيرة.

وسُئِلنَا عن الرؤية هل تقول بها الإماميّة أم لا؟، فقلتُ: ينكرونها أشدّ الإنكار، فقيل: وما يقولون في مثل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة، آية ٢٢] فقلتُ: يقولون بما تقولون به أنتم في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح، من آية ١٠] وأمثالها، فقال: هناك بمعنى القدرة، فقلتُ: وهنا بمعنى الرحمة أو القدرة أو ما أشبه ذلك، فقال: أفهي محال؟، قلتُ: نعم البصرية محال عند ذي البصيرة، فقال: أويطلب الكليم المحال حيث قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الاعراف، من آية ١٤٣] فقلتُ: غرض الكليم الإراءة لا الرؤية، فإنَّ قومه اضطروه إلى أن يريهم الله حيث قالوا: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء، من آية ١٥٣] فأراد أنْ يدلّهم على استحالة ذلك في حَقِّهِ وهو كليم الله فكيف بهم، ثم قلتُ: فإذا كان قد طلب الجائز فلماذا لم يقعْ مع طلب الكليم؟، والمسؤول جواد كريم، فقال: طلب رؤية في الدنيا وهي لا تكون والّذي نقول به: الرؤية في الآخرة، فقلتُ: إذاً قد طلب المحال. فتلعثم وتكلّم ولم يأتِ بشيء، فقلتُ: وأنا أرجو أن يكون النزاع بين الطائفتين لفظيّاً فإنَّ الأشاعرةَ لا يقولون بالرؤية التي تستلزم الجسميّة والتحيز وأمثال ذلك، فقال: لا،

فقلتُ: فهذه هي الرؤية الجِنانيّة التي نقول بها، ونقول بها حتّى في الدنيا، قال سيّد العارفين: (أفأعبد ربّاً لم أره)[(١)] نعم أنتم تقولون: بهذا البصر، ونحن نقول: هو أخسّ وأحقر من ذلك والأمر حينئذ سهل.

وسُئِلنَا عن الدليل على عصمة الأئمةﷺ فقلنا: هو الدليل على عِصمَة الأنبياءﷺ وهو حكم العقل بقبح نقض الغرض؛ وأنّ الغرضَ من البعثة لا يحصل أو لا يتم إلا بعِصمَة الرسول، وحكم الحافظ والنائب حكم المبلّغ والمنوب مضافاً إلى آية التطهير[(٢)] والذنوب أرجاس وقد طهّرهم الله عنها، والقدر المتيقن من أهل بيت النَّبي بنته وبضعته فاطمة وأولادهاﷺ فتكلم بما لا طائل فيه والرجل لم يكن من فرسان النقض والإبرام والكر والإقدام.

وسألني مدير المعارف وكان رجلاً في غاية العقل والمتانة وصحيح الحرية، فقال: بعد المحادثات التي تتعلق بلزوم اتحاد المسلمين من أيّ ملّة ودولة كانوا، وأنَّه يجب على أهل العلم مثلك أن يعظوا الناس والجهّال ويعرّفوهم لزوم التناصر والتعاون، وأنّ الإسلامَ قد بلغ منتهى الضعف وأن يتركوا اليوم نزاع عمر وعلي ويجعلوه عقيدة في القلوب كل على اجتهاده، وما يراه بينه وبين ربّه

(١) ورد هذا الحديث الشريف في كتاب (الكافي، للشيخ الكليني ١: ٩٨) ونصّه: عن أبي عبد اللهﷺ قال: جاء حبرٌ إلى أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك حين عبدته؟ قال: فقال: ويلك ما كنتُ أعبد ربا لم أره، قال: وكيف رأيته؟ قال: ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الابصار ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان.

وورد في (مستدرك نهج البلاغة ص ٦١) باختلاف يسير.

(٢) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الاحزاب من آية ٣٣.

كمشارب الفقه والتصوف من الحنفي، والشافعي، والقادري، والرفاعي وأمثال ذلك، التي لا تقتضي تنافراً وتباعداً بين الفريقين، فوجد منّي موافقة وتأييداً لكلامه عن جدّ وحقيقة ورغبة في ذلك صادقة. فلمّا انتهى الكلام قال لي: أنت في النَّجف مُعلّم أم متعلّم، فقلتُ: مُعلِّم يتعلّم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: من آية ٧٦]، ثم ذكرتُ شطراً من أحوال (النجف) وما فيها من أهل الفضل والعلم وسائر الكمالات، وكان يدّعي الصداقة الأكيدة مع قائمقامها الحالي عزيز أفندي[١]، فقال: إذاً يلزم أن آخذ رخصة وأمضي للزيارة؛ فعرّفته أنّ النَّجفَ فيها الأمم المختلفة، والأنواع المُتفرِّقة، والعناصر المتغايرة، ولعلك لا تحظى بزيارة أهل الفضل منهم؛ فليكن قصدك زيارة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وإن حصل غير ذلك فذاك خير زائد، فأنعم بالجواب.

وللحكومة هناك من القيام بالوظائف والنفوذ ما ليس مثله في (العراق)، وقد كانتْ البوليسية والضابطة في أشدِّ المراقبة على محافظة قوافل الحج، - والله هو الحفيظ - وكانت لا تبارحهم طول الليل تطوف حولهم وتستدير على مخيّمهم وكان فيهم بوليس أنس إلى رفاقنا وكان يكثر زيارتنا، فوجدناه رجلاً في غاية التنبه والفطانة والعقل والرزانة سمّى لنا نفسه (محيي الدين) وأنّه بغدادي سكن (الدير) ودخل في هذه الوظيفة وهو شافعي الفروع، رفاعيّ الطريقة، وكان شديد الولاء لأهل البيت عليهم السلام لهجاً بذكرهم وذكر كراماتهم فتجارينا في مطالب منها

---

(١) عزيز بك: كان قائمقاماً للنجف خلال سنتي (١٩١٠م - ١٩١١م) وهو من قيادي جمعية الأتحاد والترقي . أشيع عنه أنه كان مكلّفاً عن مهمته قائماً للنجف ، بالتخابر مع العاصمة استانبول في الأمور المهمّة التي تخص ولاية بغداد...).

شعر الشافعي[١] والرفاعي[٢] في مدح الأمير، فقرأ لنا وقرأنا له، ثم تلوتُ له البيتين عند زيارته لمرقد النبوة وهما:

روحي على البعد منكم كنتُ أرسلها   تقبل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه نوبةُ الأشباح قد حَضرتْ   فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي[٣]

فقرأ لي لها تخميساً وتشطيراً وحيث لم يكونا بالمحل الفائق لم نحفظهما عنه، ومما ذكرناه له قول الشافعي:

لو انّ المصطفى أبدى محلَّه   لخرّ الناس طراً سجّداً له
كفى في فضل مولانا عليّ   وقوع الشك فيه أنّه الله[٤]

فأخرج المداد والورق ونسخهما، ولما رأيتُ حسن محاورته قلتُ له: أقرأتَ شيئاً من العلوم؟، فقال: لا، ولكن خدمتُ بعض الأكابر ولقيتُ بعض الأفاضل أمثالكم فحفظتُ بعضَ المطالب عنهم، والعلم في الصدور لا في السطور، فقلتُ له: نعم (العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء)[٥] وأنت منهم - إن شاء الله تعالى -، وذكر أنّ شيخ طريقته سيّد حسيني في (الدير) مجاز من سيّد كبير ناء، ووعدنا أن يأخذنا إليه أو يأتي به إلينا، ولم تسعْ المهلة كما لم يمهلنا السفر والأشغال لزيارة

(١) محمد بن إدريس الشافعي، إمام الشافعية، (ت ٢٠٤هـ)، من كتبه كتاب الأم، وأحكام القرآن وغيرها.

(٢) أحمد الرفاعي، الفقيه الشافعي الأشعري الصوفي (ت٥٧٨هـ).

(٣) لم على اعثر على قائله.

(٤) لم أعثر عليه في ديوان الشافعي.

(٥) ظ: (الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٥: ٢٥٠).

أولئك الأفاضل الأطياب مدير المعارف، ورئيس الجزاء، ومحمد شاكر مدير المكتب الإعدادي، ولا سيّما الأخير فإنّه وعدنا إذا زُرناه أن يدفع لنا كتاب تفسير (سورة عبس) لمرشد النقشبندية الّذي هو حالاً في إسلامبول، وكان في زمان عبد الحميد[١] المخلوع منفياً إلى طرابلس الغرب، وقد بقي فيها أربعة عشر سنة، وعند إعلان الدستور رجع وهو يبالغ في كل كمالاته وفضله وبالأسف أنّنا لم نحظَ بكتابه ليدلّنا على ما ذكره ويكون شاهداً له على الصدق أو الخلاف.

وبالجملة فمجال الكلام لنا في هذه البلد كان باتساعها واسعاً لولا ضيق الوقت، وأغرب وأعجب ما فيها جوامعها ومناراتها المبنية كلّها من الأرض إلى أعلاها بالصخر المنحوت المقرنص، والرّخام الملوّن على أبدع شكل وأنسق نظام، نعم هم يقولون: الجوامع في الاستانة، والحمّامات في الشام، والخانات في حلب.

ثم إنّنا يوم السبت ٢٧ شوال اشتغلنا في تزوّد الأمتعة واللوازمات الضرورية من (الدير)؛ حيث إنّ ازوادنا التي تزوّدناها من (الكاظميّة) بحسبان أنّها توصلنا إلى (المدينة) ولا أقل إلى (الشام) قد نفدتْ لدى الوصول إليه أو قبله، فاعتددنا بمثلها بل زائداً عليها؛ فإنّنا حملنا منها حتّى اللحم، والباذنجان، والطماطة، والرّقي، والرمان؛ فضلاً عن مثل القند، والجاي، والفحم، والحطب، واستكثرنا من حمل الماء من الفرات معنا في المزاود والقرب؛ لأنَّ الماءَ قدر منزلين ماء بئر

(١) عبد الحميد خان الثاني نجل عبد المجيد الأول جلس على سرير السلطنة بعد خلع أخيه (سنة ١٢٩٣هـ)، خلع بفتوى من شيخ الأسلام وتصديق مجلس المبعوثين سنة ١٣٢٧هـ وأقيم أخوه محمد رشاد مقامه، أرسل الى سلانيك وحجر عليه في قصر الجيش ثم نقل من سلانيك الى اسلامبول، وبقي فيها حتّى مات (سنة ١٣٣٤هـ).

ظ: (دوائر المعارف: للسيد محمد مهدي الموسوي الكاظمي ص٧٥).

وبيء لا يشرب، وكان ذلك اليوم يوماً مغبراً ذا ريح عاصف، وعجاج حاصب[١]، يلطم الوجوه والعيون بالحصى والرمل، لم ننتفعْ فيه بشيء إلا بتكلّف جمع الأمتعة من الأسواق.

إلى الشام

ثم ودعنا الفرات - أعادنا الله إليه ولا جعله آخر العهد منه - فأخذ هو على مجراه من خط الشمال موازياً للجدي، وأخذنا نحن خط المغرب مستقيماً كما سرنا عليه أوّلاً عند الخروج من (الكاظميّة)، وانحرفنا عنه شمالاً من (هيت)، وقوافل (حلب) تسري على الشط إلى مسكنه ومن (الدير) تفرّق عن قوافل (الشام)، وفي الساعة الحادية عشر من آخر نهار السبت رحلنا وصرنا ننحدرُ انحداراً شديداً كأنّنا ننزل إلى بئر عميقة ولكن تسريحاً، وهذا مما يدلّ على انخفاض (الشام) عن (العراق) كثيراً ولم نزلْ ندلج[٢] ليلاً في تلك الأودية المنحدرة على أضواء المشاعل والفنرات حَتّى نزلنا قبل ان تذرّ الشَّمس قرنها[٣] في وهدة بين تلال ورمال فيها قلعة صغيرة (للمبدرقة) الّذين لم نبصرْ منهم نفساً، ولم نسمعْ لهم حسّاً، وتلك القلعة على بئر عميقة يبلغ عمقها خمسين باعاً فيخرج منها الماء المالح الّذي يمجّه كل ذي حياة؛ فضلاً عن المعوّد على الفرات العذب، فأقمنا نهار الأحد ٢٨ شوال هنالك قدر ما استدركنا فيه سهر تلك الليلة وجوعها.

---

(١) حاصِب: الرِّيح التي تَحْمِل التراب والحَصى.
(٢) الإدلاج: سير الليل كلّه.
(٣) ذرتْ الشمس: أي طلعت، وقيل: هي أول طلوعها.

في قباقب - دير الزور

ثم خرجنا عصراً نتمشى [بين] تلك التلال والروابي، وإذا تلك الأرض كلّها من صخر المرمر الأبيض الصقيل مغشّى بشيء قليل من التراب والرمل قد أطارته الريح عن بعض المواضع، فظهرتْ الأرض بيضاء صقيلة فقل: في (مِرْآة الغَرِيبَة)[1].

وانتهينا إلى مثل النهر قد حفرته السيول وقلعتْ منه تلك القطع الكبيرة من الصخور المرمرية، فها هي هنالك ملقاة في وسط ذلك المجرى، لا تجد منْ يحملها، والبئر كلّها إلى قعرها مبنية بتلك الصخور، والجبال قد أثرتْ فيها تأثيراً غريباً تشهدك عياناً صورة البيتين. وكان مضرب خيامنا إلى جنب تلك البئر والقلعة، وكان ذلك المعدن المرمري ممتدّ مما يلي (الدير) إلى هذا الموضع إلى ما الله أعلم، وكان سيرنا من (الدير) إلى هذا الموضع يقرب من أربعة عشر ساعة نقلة واحدة، ويُسمّى هذا المنزل (قباقب)، ولم نعرفْ وجه التسمية كما أنّ أهل (الدير) يسمّونه بـ(دير الزور)[2] أو (الزور) وحده، ولم يتضحْ وجهها إلا باحتمال

---

(١) مرآة الغريبة: المرأة التي تتزوج من غير قومها، فهي تجلو مرآتها أبدا لئلا يخفى عليها من وجهها شيء.

قال ذو الرمة:

لهـا أُذُنٌ حَشْـرٌ وذِفْـرَى أسِـيلةٌ   وَخَـدٌ كَمِـرآةِ الغَرِيبَـةِ اسْـجَحُ

ظ: (مجمع الامثال ٢ : ٣٥٣ و ٣٨١).

(٢) دير الزور: الواقعة على الضفة الغربية من الفرات، ويكون العبور إليها على جسر معلق طوله ٣٥٠م، وسميت بهذا الأسم لما يكثر فيها احراش (زور) الأثل، وكان اسمها القديم أزورا.

ظ: (المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة (الرحلة الثالثة). تأليف: طه باقر وفؤاد سفر ص٦٥).

كونه في القديم غاباً وزوراً، وقال النهري: إنّ (الزور) من أسماء الفرات كما في القاموس[١] والله أعلم.

ثم رحلنا من (قباقب) الخامسة من ليلة الأثنين ٢٩ شوال فسرنا بحمد الله على ضوء السرج المنقولة في ظلمة تلك الليلة المدلهمّة، وكان مسيرنا في هذه المرحلة كلّه في سهول بسيطة معتدلة قد أذهب الله بها عنّا الحزن[٢]، وترجّلتُ سحراً وطالعتُ آفاق السماء ودراريه الثاقبة وكوكبها المذنّب المادّ ذنبه من موضعه الشرقي إلى الشمال، وقد تفأل بعض أصحابنا من مدّ ذنبه إلى الشمال بانخذال دول الكفر من الروس وغيرهم، حقق الله الأمل - إن شاء الله تعالى -، وعندما نشرتْ الغزالة[٣] ذوائب أشعّتها على الأجواء أبصرنا في الأفق الغربي تلقاء وجوهنا كالسحاب المتراكم بيضاء وسوداء، فسألنا عنها، فقيل: هي جبال الشام، وكان بيننا وبين (الشام) ستة أو سبعة منازل.

في البئر الجديدة

وفي الساعة الثالثة من نهار الاثنين ٢٩ شوال نزلنا في أرض بسيطة فيها أيضاً قلعة صغيرة، وإلى جنبها بئر يُسمّى ذلك المنزل باسمها (البئر الجديدة)؛ لأنّها حُفرتْ منذ سنتين أو ثلاث، وكان القوافل قبل ذلك يطوون تلك المسافة إلى الّذي بعدها منزلاً واحداً أربعاً وعشرين ساعة، أما البئر فكانتْ في غاية العمق

(١) ليس في القاموس شيء من ذلك، والموجود (دجلة).

(٢) الحزن: ما غلظ من الأرض.

(٣) الغزالة: عين الشمس.

والبعد تبلغ مائة باعاً[١]، فلمّا امتاحوها[٢] لم تسمحْ للواردين منها بقطرة ماء، فأنزلتْ القافلة فيها مايحاً[٣] وأدلوا دلاءهم فصار يغترف لهم منها بُلغة من قعر الأرض، وبالجهد يملأ الدلو فإذا آمتاحوه لم يجدوا فيها سوى حمأة[٤] سوداء يعافها الحيوان الصادي[٥] فضلاً عن الإنسان، وكنتُ قد وقفتُ على تلك الحال، والركب في رزية ودهشة لا يدرون ما يصنعون، وذكرتُ بهذه البئر بيتي الأعشى:

مـا يجعـل الجـدُّ الظَّنُـونُ الّـذي ... جُنِّـبَ صَـوْبَ اللَّجِـبِ المـاطِرِ

مِثْـلُ الفـراتِي إذا مـا طَمَـى ... يَقْـذِفُ بالنُّـوتيِّ والمـاهِرِ[٦]

وبقينا ذلك اليوم نترشف ما بقي معنا من ماء الفرات وماء البئر السابقة والركائب على نصف الورود، وعجلنا السير من ذلك المنزل القاحل والمحل الماحل الضنين حتّى بقطرات الماء، وسرنا منه بعد صلاة المغرب من ليلة الثلاثاء غرَّة ذي القعدة الحرام أهلّه الله علينا وعلى كافة إخواننا أينما كانوا باليُمن والبركة والصحَّة والسلامة لنا ولأهلنا وإخواننا ولكافة المسلمين -إن شاء الله تعالى-.

---

(١) البوع والباع: مد اليدين وما بينهما.

(٢) المائح: الذي يملأُ الدلو من أسفل البئر.

(٣) ميح: أن ينزل الرجل في قرار البئر إذا قل ماؤها فيملأ الدلو.

(٤) الحمأ: الطين الأسود المنتن.

(٥) الصادي: العطشان.

(٦) البيتان لميمون بن قيس.
(الماطر) وفي الديوان (الزاخر)، و(النوتي) وفي الديوان (البوصي).
الجد: البئر. الظَّنون: التي لا يعلم هل فيها ماء أم لا. الصوب: الناحية. اللجب: الذي له صوت وجلبة. الزاخر: الكثير الماء. طما البحر: ارتفع ماؤه، البوصي: الملاح، الماهر: السابح.
ظ: (ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) ١٤١).

تأملات بـ(لسان الغيب)

ولما تنقّبتْ الشَّمس من الشفق بنقابها الأحمر، تطلّعَتْ القافلة ونحن معهم للاستهلال، وكان موضع مظنة الهلال من الأفق مرقعاً بقطع السحاب الأسود التي حالت بيننا وبين رؤيته، وجلسنا بعد المكتوبة نتعلّل حَتّى تُشدّ الأحمال وتُحمل الأثقال، فأخذتُ ديوان أشعر عرفاء الفرس وأعرف شعرائهم (حافظ الشيرازي)[١] المعروف عندهم بـ(لسان الغيب)، وكنتُ في هذا السفر أكْثر من النظر فيه، والتأمل في أسراره ومعارفه، والمذاكرة مع رفيقي العارف في رموزه وحلّ مشكلاته، فقرأتُ المقطوعة التي يقول في أوّلها:

روشن از برتو رُويت نظري نيست كه نيست

منّت خاك درت بر بصري نيست كه نيست[٢]

حَتّى انتهيتُ إلى المقطوعة التي تليها التي يقول في أوّلها:

كس نيست كه افتاده آن زلف دوتا نيست

در رهكذري نيست كه دامي ز بلا نيست[٣]

---

(١) محمّد شمس الدين محمّد بن كمال الدين الحافظ الشيرازي. (المولود سنة ٧٢٩هـ - المتوفى سنة ٧٩٢هـ).

ديوان حافظ الشيرازي: أشهر الدواوين الفارسيّة ويُسمّى بـ(لسان الغيب) لخلوه عن التكلف، أو لإخبار تفاؤلاته عن الغيب.

ظ: (الذريعة ج٩ق١: ٢٢٢-٢٢٤).

(٢) ظ: (ديوان حافظ شيرازي، باهتمام: محمّد قزويني، د. قاسم غني. ص٥١).

(٣) ظ: (م. ن. ص٤٨).

حَتّى بلغنا إلى قوله:

کـر يـبر مغـان مرشـد مـن شـدجه تفـاوت

در هـيج سري نيسـت كـه سرّي زخـدا نيسـت[(١)]

فانجرّتْ المذاكرة في تفسير هذا البيت إلى مباحث شريفة وأسرار غامضة تتعلق ببيان حقيقة البداء ووجهه الصحيح الكامل الّذي تنطبق عليه أخبار الأئمة المعصومين، ويوافق قواعد الحكماء الراسخين المبتني ذلك على أنّ لله عِلمين: علم مخزون مكنون[(٢)] قد أستأثر به في علم الغيب عنده لم يُظهرْ عليه أحداً لا ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، ولا عبد مجتبى.

وعلم يتصل بسلسلة الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات وهو الّذي تقف عليه الملائكة والأنبياء على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم، وعنه ومنه يكون إخباراتهم وإنبائهم عما سيكون من الأمور التكوينيّة بل والشرعية، وهذا العلم هو المرتبط بأسماء الله الحسنى طبق تعيّنات الذات الأحدية في مظاهر صفاتها وأسمائها، والعلم الأوّل هو العلم المرتبط بمقام أسمائها الغيبية الخارجة عن سلسلة الأسباب والمسببات، والأسماء التي تقع عليها الألفاظ والإشارات والكلم والعبارات، وهذا العلم هو الّذي له الحكومة والتغيير والتبديل والمحو والإثبات

(١) ظ: (م. ن. ص٤٩).

النسخة التي اعتمدتها في تخريج هذه الأبيات فيها تقديم على الأبيات التي في ص٤٨ - ٤٩.

(٢) أفاد من قول الإمام الصادق عليه السلام قال: إنّ لله علمين: علم مكنون مخزون، لا يعلمه إلا هو، من ذلك يكون البداء، وعلم علّمه ملائكته ورسله وأنبياءه فنحن نعلمه.

ظ: (الكافي، للشيخ الكليني ١: ١٤٧).

على ذلك العلم المخصوص المقيّد بسلسلة الأسباب الطولية، ومن هذا العلم وهذه الأسماء الغيبية يكون بكاء الأنبياء وجزعهم وفزعهم جداً وحقيقة لا صورة وتعمّلاً؛ فإنَّهم وإن كانوا بحسب ذلك العلم ومن تلك الأسماء عالمين مستيقنين برضوان الله وغفرانه، وأنَّهم من أهل النعيم، ولكنَّهم يحاذرون أشدَّ الحذر ويخشون أعظم الخشية مما قضى الله في ذلك العلم المخزون المكنون الّذي لم يظهرهم عليه ولم يعطهم ولا لأحد شيئاً منه، وبهذا يثبت لهم الجهل في بعض الموارد، ومنه يثبت البداء لله بمعناه المعروف الصحيح عند الإماميّة لا كما يقوله حكماؤهم من الاطلاع على نقوش الحركات الإرادية الفلكية، وما نستمده تدريجاً بحركاتها فإنَّه لا يتم في حقِّ المترفع عن أفق هذه الأفلاك كمرتبة النبوة الختمية المحمَّدية وأوصيائهم عليهم السلام بل من مقام أسماء الله الحسنى والأسباب والمسببات والعلل والمعلولات، ولله سبحانه مع كل عبد من عباده علاقة ورابطة بتلك العلاقة، يفيض عليه العلم والرزق والحياة والصحَّة والسقم وكلّما قدّر له وقضى عليه، ولكن لهذا الفيض منه تعالى طريقان وسبيلان:

أحدهما: من سبيل تلك الأسماء الطوليّة المرتبطة بها سلسلة الأسباب والمسببات فيعلم مثلاً أنَّه إذا سعى أو تاجر أو اكتسب يحصل له المقدار الفلاني من الرزق أو العلم والمعرفة، وهذا بحسب الأسباب.

والسبيل الثاني: ما يفاض من ذلك العلم الغيبي الخاصّ الخارج عن سلسلة الأسباب والمسببات، فالطريق الأوّل ربط العبد بربه؛ ولكن بوسائط متعددة ووسائل كثيرة، والطريق الثاني ارتباط بلا واسطة، وسرّ لله بينه وبين كل عبد من عباده من غير فاصلة ولا وسيلة وهو مقام معيّة الله - جلّ شأنه - مع خلقه، وهو

معكم أينما كنتم وبه تكون حسن الخاتمة – منّ الله بها علينا –، وسوء الخاتمة – أعاذنا الله منها – وهذا المقام يكون كالعائق والمانع بالنسبة إلى ذلك المقام الّذي هو مقام العلل والمعلولات، والأسباب والمسببات، وإلى هذا المقام أشار الشاعر الحكيم في المثل المشهور: (سر سرير باخداي حفظ سرير)، وقول (لسان الغيب) في البيت المتقدّم:

(درهيج سري نيست كه سّري زخدا نيست)

ثم انجرّ الكلام إلى ذكر القضاء الإجمالي والقدر التفصيلي والإشارة إلى الفرق بينهما وبين لوح المحو والإثبات واللوح المحفوظ الّذي هو أمّ الكتاب، ثم استطردنا الكلام إلى ذكر الحركة الجوهرية وذكر برهانها إجمالاً، ثم سرنا – بعون الله تعالى – من ذلك المنزل المُسَمَّى بـ(البئر الجديدة) الساعة الثالثة من ليلة الثلاثاء.

في السخني

حَتّى أتينا الساعة الثالثة من نهاره إلى منسرح من الأرض بين تلال وجبال تحيطه وتكنفه من كل الجهات، فنزلنا فيه ويسمّى ذلك المحل بـ(السخنى)[1] وعلى يُمنى الطريق شرقيّاً بيوت ودور مبنية بالحجارة والطين وفيها قلعة خربة حقيرة يقولون: فيها نفران أو ثلاثة للمحافظة، وفيها بعض الدكاكين من الحجر لبيع بعض ما يناسبها، وعلى يسار الطريق غربيّاً في أثناء انحدار ذلك الجبل عين

---

(١) السخني: قرية سوريّة تتبع إداريّاً لمحافظة حلب منطقة منبج ناحية خفسة، بلغ تعداد سكانها (٢٧٨) نسمة حسب التعداد السكاني لعام ٢٠٠٤.

ظ: (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

ماء كبيرة يبلغ عمقها من أرض الجبل إلى سطح الماء سبعة أذرع، ومن سطح الماء إلى قرارها مترين، ويبلغ محيط دائرة الماء فيها خمسة أمتار، والماء فيها يُرى أسوداً شديد السواد كعين حمئة[١]، فإذا أخذتَ غَرفةً منها وجدتَه صافياً شديدَ الزرقة تيزابيّاً، وماءها حاراً كأشدِّ ما يكون من ماء الحمّامات الحضرية، وأرض العين صخر صلد من نفس الجبل والماء ينبع من فُوَّهَةٍ في أثناء الصخر كفم التنور أو أضيق يبلغ عمق تلك الفُوَّهَةِ من أرض العين إلى قرارة الفُوَّهَةِ ما يقرب من قامتين، وكان صبيان ذلك الموضع يغوصون في تلك الفُوَّهَةِ ويخرجون لنا من رملها الأسود الحالك وحمأتها السوداء، وماء تلك العين مجّ كريه منتن الرائحة يشبه رائحة الحمّامات البلدية جداً؛ بيد أنَّ فيه رائحة الكبريت والنفط وغيره، ولا أظن أنّه لو جُزّيء ذلك المعدن بالآلات يبقى فيه بعد التصفية من خالص الماء واحد من سبعة؛ وبالأكثر واحد من خمسة، ثم أنَّ ماء تلك العين يجري في نهر متصل بها ينحدر ماؤه إلى أسفل ذلك السفح واهبط قرارة ذياّك الوادي فيسقي هنالك نخيلات خاوية وشجيرات بالية هي إلى الموت أقرب منها إلى الحياة، ومزرعة صغيرة من الدخن والذرة، وتحيط تلك العين عيون كثيرة شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، كلّها في مسحب ذلك الوادي على منحدر تلك الجبال الصخرية، تجدهم قلعوا الصخور العظيمة قدر ثلاثة أو أربعة أذرع فنبع الماء، وأشرجوا تلك الصخور عليه دائرة وحفروا منها نهراً أو ساقية على اختلاف النبع قلة وكثرة، ثم سلّطوه على مهبط ذلك الوادي، وكلّ تلك العيون حارة

---

(١) الحمأ: الطين الأسود.

حمئة؛ ولكنَّها تختلف في الشدّة والضعف كاختلافها في القلَةِ والكثْرةِ، وهي تنيف على الثلاثين عين بعضها متقارب أشدّ القرب وبعضها متباعد، وأكبرها وأكثرها ماءً وأشدّها حرارةً وسواداً هي تلك العين المتّصلة بالجَادَّة القريبة إلى البيوت، وكنتُ قبل يومين في (قباقب) ساعة نزولي المنزل أوّل النهار أخذتُ مضجعي وأنا من شدّة السهر على خطر، فاضطجعتُ ولم أتدثّر على ما ينبغي، فأصابني البرد ولوثّني الخبيث بمسّه وقيادته الشنعاء، فانتبهتُ وأنا مقرور[1] لا أجد لي مساغاً إلى الغُسل، ولا أظن أنّ الخيمةَ تحميني ولا الماء الحامي يقيني، واليوم الثاني في (البئر الجديد) لم يكن ثمّة ماء للشرب فضلاً عن غيره، فلما جئت إلى تلك العين وجدتها هي الضالّة التي أنشدها والحاجة التي أتفقّدها، على أنّنا كُنَّا نسمع بهذه العيون فنتشوّق إلى الاغتسال بها لما يقال أنَّها [تنفع] لدفع جملة من الأمراض - بأذن الله تعالى -.

وبالجملة فقد تداكتْ القافلة على بكرة أبيها على الخوض في تلك العيون الحمئة الحامية، ولم يبقَ صغيرٌ ولا كبيرٌ ولا رَجلٌ ولا امرأةٌ إلا وخاض فيها وأزال عن جسمه وعثاء السفر وأوساخ الكدر، واتخذوها كأحسن الحمّامات، وهذه الجبال في كثرة العيون المعدنية ذكّرتني (هيت) وهيهات كـ(هيت)، وعلى جبالها أيضاً قبور معلّمة بالقباب يزعمون أنَّها قبور أولياء وأكابر بينهم الشيخ واصل ولم نصلْ إلى معرفته، أما أهل تلك القرية فهم أهل فقر ومسكنة وعدم اهتداء إلى طرق المعيشة، ولقد كان يمكنهم أن يجمعوا مثل هذه الأيام الأموال

---

(١) رجل مقرور: أي أبرد من الكافور.

الطائلة بأن لا يدعوا أحداً يدخل تلك العيون إلا برسم مضروب، وجميع أهل تلك النواحي من (فلوجة) إلى موضعنا وما فوقه كلّهم في غاية البؤس والمسكنة حَتّى أهل (الدير) التي هي عاصمة ذلك القطر، وعلى أيٍّ فقد أقمنا ذلك اليوم في (السخني) على مضض من الماء، وشظف من العيش، وأظن أن تسميته بهذا الاسم لكثرة المياه (السخينة) فيه.

مذاكرات في حجِّ (الدروس)

وبعد أداء مكتوبة العُتمة وتناول العشاء تذاكرنا في (حجِّ الدروس) في عدم جواز إدخال العمرة في الحجِّ، ولا العكس، ولا هي فيها ولا هو فيه، ولا نيتهما معاً، ولا هو مع مثله، ولا هي مع مثلها إلى غير ذلك من الفروع، وأشكل هنا قوله: «ولا يجوز للمتمتع بعد قضاء عمرته الخروج من مكّة بحيث يفتقر إلى استئناف إحرام، بل إمّا أن يخرج محرماً، وإمّا أن يعود قبل شهر، فإن انتفى الوصفان جدّد عمرة هي عمرة التمتّع. وفي استدراك طواف النساء في الأُولى احتمال...»[1] انتهى.

إذ عمرة التمتّع لا طواف للنساء فيها، فما وجه الاستدراك؟ وما وجه الخصوصية للصورة الأولى؟، وقد ذكرنا فيها بعض الاحتمالات الغير نضيجة؛ ولعل نظره تتئتُ إلى بعضها.

ثم شرعنا بالخوض في مسألة من أمهات مسائل المعارف وهي مسألة الأسماء والصفات، وحدوثها وقدمها، وبيان الحدوث الأسمي، وأسم الاسم، وأسماء الذات، وأسماء الفعل، وأمهات الأسماء، ووجود الأسماء، في مقامها

(١) ظ: موسوعة الشهيد الأوّل (الدروس الشرعية في فقه الإمامية/١)، ٩: ٢٤٩.

العلمي والعيني، وتفسير الحديث المرويّ في (الكافي)[١] عن الصادق عليه السلام (إنّ الله خلق أسماء بالحروف غير مصوّت وباللفظ غير منطق...)[٢] إلى آخر الحديث، إلى غير ذلك من متعلّقات هذه المسألة الشامخة، ولا يسع المقام ذكرها.

ثم ارتحلنا الساعة الثالثة من ليلة الأربعاء ٢ ذي القعدة الحرام تقويماً، ورؤية الهلال هذه الليلة كان يساعد على ذلك، وفي ساعة الركوب وقعتْ في الركاب ضجّة ورجّة وهيعات[٣] وفزعات، وضربتْ بعض المسدّسات والبنادق ونحن في برزة مكشوفة، وليس الحافظ سوى الله، وقد طارتْ القلوب شعاعاً وانخلعتْ الأفئدة، وركبنا على أوحش [حال]، ثم انكشف أنّ خمسة من الأعراب اختلسوا حواشي القافلة وانتهبوا جولقاً[٤] منها، واقتطعوا حاجّاً إيرانياً ليستلبوه، وعثر عليهم الحملدارية فتضاربوا حتّى دفعوهم - بحمد الله -.

وممّا سنح على الفكر سحر تلك الليلة وأنا في قبتي الخشبية وقد ضربتْ بي

---

(١) الكافي: لمحمّد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩هـ - ٩٤١م)، في قسمين الأصول الدينية وفروعها، من أعظم الأصول الأربعة، وأقدمها، وعليه المدار في عمل الإمامية؛ لاحتوائه على عين العبارات الصادرة عن أهل البيت (عليهم السلام)، جمعه في عشرين سنة عن أربعمائة أصل من الأصول المدوّنة في مدة قرنين والنصف... .

ظ: (الذريعة ٦: ١٧٩ و ١٤: ٢٦).

(٢) ظ: أصول الكافي، (باب حدوث الأسماء) ١: ١١٢.

وأنظر شرح هذا الحديث الشريف في كتابه (الدين والإسلام أو الدعوة الإسلامية) ١: ٢٧٧ و٤٧٦.

تقديم وتعليق وتحقيق: الشيخ محمد جاسم الساعدي، الناشر المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

المطبعة: المجاب/ سنة الطبع: ١٤٣٢هـ

(٣) الهيعة: كل ما أفرعك من صوت.

(٤) الجولق: الوعاء.

الفكرة والعبرة بعض مضاربها، فأخذتُ في الضراعة والمناجاة له - جلّ شأنه - فجرتْ مترسلة على خاطري هذه الأبيات وغشيتني حالة أسأله - تعالى - أن يعيدها عليّ ولا يقتطعها عنّي بجوده وكرمه والأبيات:

خليلي هل أنتَ لي مسعدٌ … بعزم فتى للمعالي نَهوض

تَعالَ لنخرج من ذا المضيق … لفسحة ذاك المجال العريض

رقتَ أنفسٌ أوج هذا المحيط … فما بالُنا حظّنا في الحضيض

أنترك فيما هناك الحبيب … ونقنع فيما هنا بالبغيض

أليس السموات أوطاننا … فماذا الخلود لهذي الأُرُوض

هلمّ لنحبوا إذا لم نطق … مطاراً بهذا الجناح المهيض

هلمّ نعود إلى جوهر الحياة … ونعرض عن ذي العروض

هلمّ نموت لنحيى على … مقاعد صدق بهذا النهوض

هلمّ إلى عرصات الفناء … لنُحيى بروض البقاء الأريض

وقفتُ على باب عفو المليك … بقلب كسير وطرفٍ غضيض

أسائله لمحةً من رضاه … لِتنعشَ صرعة هذا المريض

وأقسم ما أمسك البخل قطّ … بالفيض منه ولا بالمفيض

تَدفَّقُ بالفيض منه اليدان … ولكنّما العجز بالمُستفيض

تألَقَ لي وامضٌ من سناك … فمضّ الحشا لَمعُ ذاك الوميض

فها أنا عُوفيتَ من لوعتي … بطرف نديّ وقلب رميض

ملـيكي كـم قـد تغـمّـدتنـي	بوابـل احسـانك المسـتـفـيـض
ولكنّني قـد أسـأتُ الصـنيـع	وخسـتُ وفـاءً بتلـك القـروض
فهـا أنـا مـن سـوء قـرضي إليـك	حـالَ جَـريضي دون القريـض
تفـيض ذُنـوبي فـيضَ الذنـوب	وسـترك يغمـرني بـالـفـيـوض
أسيءُ وبـرّك بـي لا يـغـيـض	فيا عبرتي من حياً لا تـغـيـض[(١)]

في الأرك

ثم سرنا حتّى أتينا بتسهيله - تعالى - إلى برحة أيضاً بين جبال وتلال، وفيها أيضاً عيون حارة كثيرة، ولكنّها قليلة الماء جداً، بيد أنّ ماءها أعذب طعماً وأقرب إلى الحقيقة من ماء عيون (السخني)، وفي ذلك الموضع أيضاً قلعة للمبدرقة باسم (المُحافِظة) وليستْ هناك، وبيوت تُعدُّ بالأنامل ليس فيها سوى الفقر والفلاكه[(٢)] والتكدي ويُسمّى هذا الموضع بـ(الأرَك) وعيونه أيضاً في وسط الجبال، وقد صنع لها في الأرض مثل القناة بعضها مكشوف وبعضها تحت الجبل، وعلى أيٍّ فقد أقمنا ذلك اليوم وهو الأربعاء ٢ ذي القعدة بلا زاد من الخبز ولوازمه، وقنعنا بما معنا من الأذرة والسمن غداءً وعشاءً، وبعد ما يسرّ الله لنا من الأغذية الجسمانيّة والروحانيّة بالمذاكرات العلميّة أخذنا من الرقاد قدر مضمضة الأجفان.

---

(١) لم ترد هذه الضاديّة في ديوانه المخطوط (الحسن في شعر الحسين أو العصريات والمصريات).

(٢) اذا لج في الأمر.

في تدمر

ثم نهضنا للرحيل فسرنا السابعة من ليلة الخميس ٣ ذي القعدة حَتّى أتينا بعد طلوع الشَّمس بقليل إلى (تدمر)[1] وما أدراك ما (تدمر)، تُدمِّر على كل عجيبة من عمارات الأرض، وتأتي على كل غريبة حادثة أو قديمة، وفيها من الشموخ والعظمة، ومظاهر القدرة وعجائب الصنع، وغرائب الاختراع وقاهر القوة وعظيم السطوة، ما لا يأتي عليه الوصف ولا يحيط به البيان، ولا يصل إليه القول ولا تدنو إلى أسراره وأسبابه العقول، طالعتنا تلك العمارات الباهرة الشامخة قبل الوصول بأكثر من أربعة أميال، وحينما وقفنا في أوساطها لم يبرحْ الركب كلّه مُدّة من الزمان حيارى في بُهت ودهشة، فالألبابُ طائشة والأبصار في الأطراف جائلة، تتردّد في تلك الأبنية التي تناطح الأفلاك رفعةً وشموخاً، وتسيح في أعماق الأرض مع أصول الجبال رسوباً ورسوخاً، ثم لم نتمالك قبل كل شيء من أكل وشرب أو استراحة أن انحدرنا للسير في تلك العمارات والسبر لتلك الآيات الباهرات، وكان مضرب خيامنا على فسيح ربوة في وسط تلك الأبنية القديمة إلى جنبّ القرية الحادثة المبنية بالطين على طرز القرى المعتاد.

ولمّا سرنا في خلال تلك العمارات وأستبرأنا آثارها قليلاً وجدناها تشهد بأنّها قد كانتْ بلداً بأوسع ما يكون من أمّهات الأمصار، وهي مستديرة يزيد قطر دائرتها على ستة أميال، فإنّنا دخلنا من جانبها الشرقي وبقينا نسير فيها على

---

(١) تَدمُر: مدينة بأرض الشام أبنيتها من أعجب الأبنية، وموضوعة على العمد والرخام؛ زعموا أنّها مما بَنته الجنّ للنبي سليمان ﵇.

ظ: (اثار البلاد واخبار العباد ص ١٦٩ – ١٧٠).

رواحلنا أكثر من ساعة، ثم نزلنا في الوسط وانحدرنا للاكتشاف في جانبها الغربيّ والشماليّ، وبقينا نتردد فيما بقي من عماراتها المتباعدة، وأساطينها القائمة، وأعمدتها الماثلة، ونقوشها البديعة وصناعاتها المعجزة، إلى أن مضى علينا نصف النهار ونحن بعدُ لم نأتِ على جميع ما في تلك الجهة حَتّى مضّنا الاين والوجي[١]، والتعب والسغب، فعدنا إلى منازلنا؛ ولا تسل عن ابتهار ألبابنا والإكثار من تعجّبنا واستعجابنا، وما أدري ماذا أصف وماذا أقول، واللسان عيّ، والبيان قاصر، والقلم طائش حائر، والأمر عظيم، والخطر جسيم، والصنع بديع، والآيات باهرة، هذا ونسبة الباقي إلى الغابر الداثر نسبة الواحد إلى المائة أو المائة إلى الملايين، ومهما كتب البليغ أو قال فما هو ببالغ إلى الحكاية عن بعض صورة الحال، وهذا من المقامات التي لا يجدي فيها سوى الشهود والمعاينة البَتّة، نعم لا يسعنا ترك القول جملة، ولا بدّ لنا من بعض الحكاية، والوصف أجدى أم لا. كما لا بد لنا من استعمال الألفاظ الدارجة العادية، فصيحةً لُغوية كانت أم لا.

نعم أوّل بارع رائع وقفنا عليه دركاه[٢] واسع شاهق مترامٍ علوّاً في الفضاء كأنّه موضع باب البلد وما هو بذاك؛ بل هو موضع باب قصر أو دار أو محل حكومة وما أشبه ذلك، وإلى جوانبه متّصلة به دركاهات أصغر وأنصّ منه على شكل مثمّن، يقال له في الدارج: (هشتي)[٣]، وتلك الدركاهات هي أثمانه وهي

---

(١) الوجي: ألم القدم عند المشي.

(٢) دركاه: وهي لفظة فارسية، تجمع على «دركات» مركبة الأول «در» بمعنى باب، والثاني «كاه» بمعنى محل، ويقصد بالكلمة العتبة أو الممر أو الساحة الصغيرة المربعة أو المستطيلة التي تلي الباب وتؤدي إلى داخل بناء كبير مثل القصر أو المسجد أو المدرسة... .
ظ: (المصطلحات العماريّة والفنيّة في العمارة التراثيّة، د. حميد الدراجي ص ١٠٠).

(٣) الهشتي: الفناء المسقوف الذي يتقدّم البيت.

أبواب تخرج منه إلى عمارات ومحلاّت، وتلك الدركاهات كاملة بأصفاحها وأطواقها التي هي سقوفها وكلّها من الصخر الأَصَم الشديد الصلابة الّذي هو في غاية الصقالة والصفاء؛ كأنّه مصقولٌ بمطرقة القين[1] أو مضروب برندج النجارين، وهو من البياض والاستقامة في الأطراف بمكان، حَتّى كأنّه معمولٌ بالبُوية[2]، ومحزوزٌ على خطوط المساطر الصناعيّة، أمّا سُمك الصخرة الواحدة فيبلغ قدر القامتين أو أكثر في أبعادها الثلاثة، وهي موضوعة على مثلها وهكذا إلى الأعلى والأسفل منطبقة عليها أشدّ الانطباق، فكأنَّ الجميعَ صخرةٌ واحدة، إذ ليس في الدز بين الصخرتين ما به الالتصاق من جص، أو كلس، أو قير أو غيره بل الصخور منضودة بعضها على بعض، ولعظمة تلك الصخور وثخنها لم تحتجْ إلى ما يمسك بعضها ببعض، فهي ثابتة على تلك الهيئة مُدّة ألوف السنين، تُصادم الرياح العواصف والزوابع القواصف، ولم تتأثّر بشيء منها.

وعمارات ذلك البلد (التدمريّ) كلّه على هذا النحو من عدم الطين أو الجص، أو كلّما يوصل به بعض ببعض ويربط فيه بعض إلى بعض، بل تشرج الصخور متراكمة متعالية حَتّى تبلغ في الجو إلى - ما شاء الله -، وهذا حَتّى في الحيطان والكواسر فضلاً عن الأركان والأعمدة والأسوار، ثم أنَّ الطوق الهلاليّ لذلك الدركاه الرفيع كلّه مخرّم بأبدع التخريمات والنقوش المنحوتة في ذلك الصخر بأشكال بديعة، من أشجار، وأوراد، أو طيور، أو غير ذلك على زنجيل واحد بركاري[3]، وتناسب تام لا يزيد ولا ينقص شكلٌ عن نظيره، وقرينٌ عن

---

(١) الحدّاد.

(٢) البوية (boya): كلمة تركية تعني (الصبغ).

(٣) بركار(بالكسر): آلة ذات ساقين ترسم بها الدوائر.

قرينه، قدر شعرة واحدة، مع أنّ ذلك الصخر من الصلابة بحال لم تكنْ لتعمل بها أشحذ الآلات الحديدية وأنفذ العوامل الصناعية، ثم تمتد بأزاء تلك العمارات أعمدة وأساطين اسطوانيّة يبلغ الظاهر منها القائم على الأرض خمسة عشر متر في محيط خمسة أمتار، وقد اجتمعنا ونحن ثلاثة فمدّ كلّ منّا كلا باعيه جهدَه حَتّى استدرنا على محيطها، وفي أعلى كل واحدة رأس عظيم مخرّم بأنواع التخريمات مقرنص بأشكال مختلفة من المثلثات، والمربعات، والمسدّسات، والطيور المتلوية الأعناق، كلّها منحوتة في تلك الصخرة الواحدة الصمّاء، وقد كانتْ بعض تلك الرؤوس ملقاة على الأرض كبعض تلك الأساطين والأعمدة، وكان الرأس الواحد في وسطه حفيرة يبلغ سعتها قدر الكُرين من الماء، كما أنّ بعض أهل البلد يوجد كثيراً في بيوتهم من ذلك، وقد صنعوه حياضاً كأحسن ما يكون، وهو صخرة واحدة مشكولة الظاهر بالنحت بتلك الأشكال الهندسية البارعة التي يحار العقل في أيّ بركارٍ خُطّت، وبأيّ آلةٍ عُملتْ، وعلى أيّ ظهرٍ حُملتْ، وبأيّ سلّمٍ أصعدتْ، حَتّى وُضعتْ على رأس تلك الأسطوانة الشاهقة، ثم عددنا تلك الأساطين فكانتْ في خطٍ واحد تزيد على المائة، بعضها قطعة واحدة من أسفلها إلى أعلاها، وبعضها قطع عظام مستديرة كمثل الرحى الكبيرة، ولكن في سُمك سبعة أمتار فأكثر، موضوعة بعضها على بعض على ما سبق، فالثلاث أو الأربع تبلغ اسطوانة واحدة، وفي أوساط تلك الأعمدة مثل الرفوف المتقاطرة المنحوتة من نفس تلك الصخرة النابتة منها متدرجة في التقرنص إلى ذراع، وبين كل اسطوانة إلى الأخرى قدر خمسة أذرع فاصلة، وبين كل سبعة وعشرين منها باب عال ودركاه عظيم كالسابق، ثم على رؤوس تلك الاسطوانات - الله أكبر والعظمة لله - صخور عظيمة مستطيلة طول الواحدة بقدر اللوح

المعروف بالجاوي المتداول هذه الأيام، أما ثخنه وسمكه فلا تقل عن ذي هنج[١] أو هنجين بل ذي عشرة اهناج إلى عشرين، وهي موضوعة على تلك الأساطين شبه الأخشاب التي توضع على الأعمدة التي تُسمّى في الدارج (دلكات)[٢]، ووجه هذه الصخور إلى أسفل منقوش بالنحت بتلك الأشكال البديعة من أشجار، وأوراد، وفواكه وغيرها، وعلى وسط جملة من تلك الأساطين بارتفاع قامة كتابةٌ قديمةٌ سريانيةٌ أو عبرانيةٌ أو غير ذلك بقدر ثمانية أو تسعة أسطر، وفوقها بفاصل قليل كتابة بالخط الفرنساوي حادثة من خطوط مكتشفي الأوربائيين الّذين لا يزالون يتردّدون إليها في كل سنة مثنى، وجماعة جماعة، منذ أزمنة متقادمة، ويعلم الله ماذا حصّلوا وحمّلوا من نفائسها، ودفائنها، وعظيم خزائنها؛ فضلاً عن علومها ومعارفها، وعجيب صنائعها، وجملة ما كان دائراً كثيراً قبل هذا من التخريمات والمقرنصات وما يُسمّى بـ(الخرده كاري)[٣] وأشكال النجاريات والنقوش الصناعية كلّه مأخوذ من هنا، ولكن على أضعف شج[٤]، ومثال على أنّ هذا نحت في الصخر، وذاك مصبوب بالقوالب المطاوعة من الجص والبورك وأمثاله.

ثم فوق تلك الصخور العظيمة صخور أخرى مستطيلة محفورة شبه النهر أو

---

(١) المقصود به (الأنج inch): وحدة قياس انكليزية معروفة.

(٢) دلك: كلمة تركية، وتعني عموداً خشبياً ذا مقطع مثمّن أو دائري، لها تيجان مزينة بزخارف جميلة وكان يهتم بها النجارون، تستخدم عادة لاسناد سقوف الطارمات والأواوين... .
ظ: (المصطلحات العماريّة والفنيّة في العمارة التراثيّة ص١٠٢ - ١٠٣).

(٣) خردة: فارسية، بمعنى القطعة ماصغر وتفرق من الأمتعة.
ظ: (م.ن. ص٨٥).

(٤) كذا في الأصل والطاهر (نسج).

الساقية يجري الماء فيها إلى قصور البلد وعماراتها، وبالخصوص العمارة الخاصَّة التي هي في وسط البلد وسيأتي ذكرها - إن شاء الله تعالى -.

ثم في قبالة تلك الأساطين شماليّاً قرائن لها على ذلك النمط والأسلوب من الدركاهات والأعمدة وغيرها، ولكن بعضه قائم وأكثره حصيد مطروح على الأرض، وما من عمارة إلاّ ولها قرين من الجوانب الأربعة، وجملة من تلك العمارات قد اكتسح الرمل والتراب من أسفلها وحفروا تحتها، وإذا المدفون تحت الأرض مثل ما هو الظاهر عليها على ذلك النمط والأسلوب، وكان هذا البارز للعيون هو الطبقة الثانية أو الثالثة من العمارة، ثم في شمال تلك الأساطين ويمينها من جهة المغرب والشمال عمارات مرتفعة مربعة كالغرف قد بقيت جوانبها الأربعة، ولم يذهبْ منها سوى سقوفها وهي على ذلك الطراز، وأبدع من وضع تلك الصخور العظيمة بعضها على بعض بحيث لا يُرى من الدرز بينها إلا بمثل الشعرة أو أقل، وهي على تلك التلال المرتفعة التي تدلّ الآثار أنّه عمارة تحت تلك الغرف المنيعة قد دفنتْ تحت السوافي والرمال المتهايله، وفي أسفل تلك التلال عمارات في الأرض لم يبقَ منها سوى جدرانها التي هي من تلك الصخور الممرّدة(١) كأنّها لجةٌ أو قواريرٌ، وفيها أمثال المحاريب وأشباه ما كان يُصنع في بعض البيوت الأنيقة الّذي يُسمّونه بالبخاريات، وهي صخرةٌ واحدةٌ منحوتةٌ بتجويف وتحديب هلالي وفيه إلى جنبه أنواع الصور من الطيور والفواكه وغيرها.

---

(١) التمريد: الملساء المستوية.

وحقّاً أن مَنْ نَظَرَ إلى تشكيلات تلك الصخور واعمالهم فيها أيقن بتاً أن تلك الصخور الصمّاء كانت في أيديهم كالشمع أو العجين يشكلّونها كيف شاؤوا وكيفما شاءت لهم العناية.

والشرح يطول والوقت ضيق والمجال لذكر جميع الخصوصيات غير متّسع.

والخلاصة: أنّنا بعدما استبرأنا آثار تلك الجهة بزعمنا ووصلنا إلى سفح الجبل الّذي هو منبع العيون الشماليّة والغربيّة رجعنا ظهراً إلى مضاربنا، وبعد تناول ما يسّر الله من فضله أخذنا مضاجعنا فما أيقظنا إلا الزوبعة القاصفة، والزعزع العاصفة التي قلعتْ أوتاد الخيم وأطنابها، وضربتْ بها وبأعمدتها رؤوسنا، فانتبهتُ فزعاً مرعوباً وإذا الهواء أقتم والجوّ قد أظلم ولا أبصر شيئاً، فقلتُ في نفسي: - سبحان الله - كُنَّا نسمع مثلاً: إنَّ الماءَ ينحدر على النُّصُوص، وقد بان اليوم إنَّ الهوَاءَ كذلك.

أيّها الهواء: إن كان فيك عرامة وزعامة فدونك فاصنع بتلك الهياكل ما صنعتَ بهذه الخيمة الضعيفة لهذا الخلق الضعيف، فقال عنه لسان العبرة: نعم صنعتُ وأصنع، فقلتُ: اللهم نعم صدقتَ وتصدق وهذه (مدائن صالح) أخا عادٍ أمامنا ...(١).

المقصّر لو كان ثمة معتبر ومبصر.

ولماّ حبسني الليل عن السير في بَقيَّةِ تلك الآثار واستقصائها، عُدْتُ إلى خيمتي، وبعد الفراغ من الفريضة والصلاة جرتْ هذه الأبيات التالية على عفو

---

(١) سقط مقدار صفحتين من المخطوط.

الطبع، ورسل القلم، وقد رسمتُها من دون إعادة النظرة الدقيقة فيها، ولا أدري هل فيها شيء من الدخل والخلل أم لا، وهي هذه:

عِبَرٌ لو وراءهن اعتبار ... وادّكارٌ لو ينفع الإدِّكار
أيُّ آي يتلو لنا غابر الدهـ ... ـر ولكن على العقولِ غبارُ
كل يوم يتلو علينا عظاتٍ ... قدُمت في حدوثها الأعصار
كم على هذه البسيطة من حـ ... ـرّ صنيعٍ فيه العقول تحار
دمّرته الأيام حتّى على تد ... مُرَ يأتي الفنا ويقضي الدمار
وهي تلك العصماء طال لعين الشّـ ... ـمس عن نيل شأوها الإقصار
دمرت تدمرٌ عجائب كلّ الـ ... ـكون حتى في الكون منها ابتهار
للنبيين معجزات وإعجا ... زُ سليمانَ هذه الآثارُ
لأبيه لان الحديد ولانت ... لعلاه الصخور والأحجار
وقفت طوع أمره كنسور ... وقفت حيث ما لهن مطار
وسوارٍ تناطح الفلك الأعـ ... ـلى وتعلو منها له أسوار
لو بشم من الربى وزنوها ... رجُحت كفةً وخفّ العيار
بنقوشٍ كأنّما هندسيٌ ... خطّها في يمينه الفرجار
وطيورٌ قد سُوّي الريش منها ... باعتدال وعُوّج المنقارُ
ناشراتٌ قوادماً وخوافٍ ... طائراتٌ تضمّها الأوكار

هكذا تعظم العقول وتعلو النّـ   ـنفس قدراً ويشرف المقدار

هكذا تبلغ النفوس مناها   في المعالي وتنفذ الأفكار

قيل قد كان للأجنة ما بيـ   ـنَ يديه إطاعة وبدار

قلتُ: كلاّ فأين للجنّ لولا   قدرة الله ذلك الإقتدار

لو سَعت بقعة لتعظيم أخرى   لسعت نحو تدمر الأمصار

لا يظن الجهول ذلك لهو   من سليمان أو علا وافتخار

حاش لله بل ليعتبر النا   سُ وحسب المهذَب الاعتبار

عمرك الله كيف تبقى العمارا   تُ طويلاً وتذهب الأعمار

أفمن بعد تدمرٍ يُخدع الحُرْ   رُ فتبنى قصوره والديار

خلّ دار الفنا ودعها لتُبنى   لك في غير هذه الدار دار

هي من بعض مُنذري الله فينا   لو يفيد الإعذار والإنذار

ناطقات صوامت وسوار   قائمات وغُيّب حضّار

بقيتْ هذه العمارات لكن   أين تلك الأعمار والعمّار؟

سلْ سليمان أين بلقيس أو سلـ   ـها وبعض من السكوت حوار

لو أفقنا من سكرة الأمل الكا   ذِبِ أو خف سكرنا والخمار

ما بنينا في الأرض داراً ولادا   رَ علينا إلا الفلا والقفار

حِكَـمٌ في عظاتها بـالـغـات ... صـامـتـات وكـلّـهـا تـذكـار
تلك إحدى فوائد السير في الأرْ ... ضِ فطوبى لأهله التسيار
أخطأ الباحثون في الأنجم الزهـ ... ـرِ فقالوا: لبعضهن قرار
لا تخل في السماء ثابت نجم ... كل نجم في فلكه سيّارُ
إنما الثابتات في كُريات الـ ... ـجَوِّ هذي الصخور والأحجار
لا ولكن لهن سير خفيٌّ ... عرفَته الرموز والأسرار
لو علمنا عن أي باهر علمٍ ... للألبّاء تسفر الأسفار
لاتخذنا الأوطان كالقبر والأحـ ... ـياءُ لا ينبغي لها الإقبار
سافروا تغنموا وما الغُنم إلّا الـ ... ـعلمُ لا درهمٌ ولا دينارُ
وكفاك الذكر الحكيم فكم فيـ ... ـيه على الأمر بالسُرى إصرار
خلّ عنّي يا خلّ ذكرك للأو ... طانِ أين الأوطان والأوطار؟
وطني ما أصير بعدُ إليه ... وإليه المأوى وفيه القرار
لا الّذي قد خرجت منه وكلّي ... فيه جهل وخسّة وخسار
لَوَّثت جوهري الشريفَ به الأقـ ... ـذار منه وزادت الاكدار
بغضُ هذا وحبّ ذاك من الإيـ ... ـمان لا ما يظنه الأغمار
فتخيّر له من البر زاداً ... لك ما دمتَ أنت والإختيار

فسيأتي عليك يوم عصيب ليس فيه عن العثار اعتذار
يا مليكي ما العذر إلا اعترافي بذنوبي وأنت الغفّارُ

وصحبنا من (الدير) رجلٌ (تدمريّ) فكان يأتينا في المنازل ويأنس إلينا وهو على أنّه عاميّ سوقي؛ ولكنَّه حسن المحاورة، لطيف العارضة، متقّد الفطانة، شافعي المذهب، وكان يرصع كلامه بالاستشهاد من فرائد معجز الوحي، وينشد أحيَاناً بعض الأشعار ولكن أكثر ما ينشده أمّا ملّحون أو غير موزون سوى هذه الأبيات المعروفة وهي تناسب ما قَدَّمناهُ من أبياتنا التدمرية ولا يحضرني منشؤها وهي:

تزوّد من التقوى فإنّك لا تدري إذا جنّ ليل هل تعيش إلى الفجر
وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر
وكم من فتى يمسي ويصبح لاهياً وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدري(١)

هذا وانّ ما ذكرناه من أحوال (تدمر) بالنسبة إلى ما أهملناه وما وقفنا عليه بالقياس إلى ما ضايقنا الوقت عنه كالنم من اليمّ(٢)، والقطرة من البحر الخضم، وقد ربح منها الارباؤيون والغربيون - حسبما حدّثنا أهلها - أرباحاً طائلة علماً ومالاً، وبعد ان قضوا وطراً منها تنبّهت حكومتنا أرشدها [الله] فمنعتْ وحُجرتْ عن حمل حَجَر منها أو احتفار شبر فيها، والحَجْر هذه الأيام شديد والمنع أكيد على أهلها من الأعراب وغيرهم فضلاً عن الأجانب؛ ولكن يا هل ترى مَنْ المراقب لذلك والرصد عليهم؟! هل هو سوى المدير وأنفار من الجندرمة، وأنت

(١) أنظر: (انوار العقول في أشعار وصي الرسول) مخطوط في خزانة مخطوطات المكتبة.

(٢) اليم: البحر الذي لا يدرك قعره.

تعلم بالمحور الّذي يدور عليه المدير والمستدير!، وإن كنتَ لا تعرفه فالغربيون يعرفونه، وقد حدَّثنا أهلها عن بيع بعضهم لأشياء نفيسة من أحجار ثمينة وغيرها، التقطوها من ظاهر تلك الأرض وباطنها، وهناك مغارات وسراديب على ما نقلوا عجيبة لم يسعْ الوقت للوقوف عليها.

فسُبحان وارث الأرض ومَنْ عليها، له الحكم والملك وإليه المصير.

المرحلة الثالثة

من (نَهزة السفر ونُزهة السَمر)

في سيرنا من الشام إلى المدينة إلى مكّة ثم إلى المدينة إلى الشام [1]

(١) العنوان منه رحمه الله.

يبدو أنَّ الشيخ جعل (رحلته) على ثلاث مراحل ناظراً فيها الحدود الأقليمية، المرحلة الأولى: في العراق، والثانية في الشام، والثالثة في مكّة والمدينة.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال جلّ قوله ودام علينا طوله:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ما بعد هذا للحثِّ عن السير من مجال للمقال، أفلستَ تراه - جلَّتْ حكمته وعلا علمُه - كيف جعل من لم يسرْ في الأرض ممنْ ليس له قلب يعقل به، ولا أذن يسمع بها، وأنَّه أعمى القلب وإن لم يكنْ أعمى البصر، نعم وانَّ السائرَ في الأرض على عِبرة وبصيرة يحسّ بذلك عياناً ويشهده وجداناً، وما كان أكثر السائرين معنا، ولكن - بفضل الله - لم يكنْ حالنا كسائر السائرين في تطلب الاعتبار وتحري الإختبار.

والله ولي العناية ومنه المبدأ وإليه العود ولا حول ولا قوة إلا به.

باسمه السائر في روح كل شيء

تتمّة بَقيَّة احوال الشام

قد تقدّم بعض الكلام في أحوال (الشام) وما جرى لنا فيها، ونأتي هنا على بَقيَّة ذلك وما بعده يوم الأحد ١٢ ذي القعدة الحرام، وهو سادس دخولنا.

خرجنا لزيارة بعض الوجهاء من أعيان (الشام) الّذين أكثروا من الزيارة لنا والحضور عندنا، فأتينا دار الحاج محمّد علي رضا إخوان - حفظه الله - وهو من ذوي الثروة الطائلة، والمعرفة الكاملة، والتقى والصلاح الّذي لا يوجد مثله في ذوي الوجاهة والجدة[1]؛ مضافاً إلى فقاهة واسعة، ونباهة قاطعة، فيا له من إنسان على ضؤولة جثمانه وصغر جسمه، ما أكبر عقله، وأكثر فضله، وأملأه للعين على سكانته وشدّة حيائه ومحجوبيّته، فجاءوا بنا إلى دار لا أطيل عليك في إطرائها ووصفها، وعجائب صنعتها، ولباقة وضعها، ونقوش سقوفها وجدرانها، ونحت صخورها الملمّعة المنقوشة بالأصداف والألوان الذهبية، ومُذاب التبر وشاذرواناتها في الغرف والحجرات، ولكن يكفيك عن ذلك أنّنا جلسنا في حجرة كبيرة تُسمَّى عندهم بـ(صاليا) فاندهشنا لا ندري في أي شيء ننظر وبأي شيء نعجب، من أرضها وسقوفها، وجدرانها وشاذرواناتها، وانساق الحديث في ذكر ذلك المحل وبديع ما فيه، فقال بعض الأشراف من الحاضرين: انّ هذه الدار من تعمير بعض باشات (الشام) وأعيانها، وقد بلغتْ مصاريف هذا المحل وحده ألف وخمسمائة ليرة، ولا بدع فإنّ فيه من الأصداف المرصعة في الجدران، والصخور المنقوشة والمحلاة بالذهب، والبلّور الملوّن ما يوازي ذلك القدر، وقد

---

(١) الجدة: وهي السعة في المال والمقدرة.

اشتراها الحاج عباس رحمه الله من ورثة مالكها الباني لها بثمن بخس، ثم أنّ الحاج المذكور حبسنا بالإصرار الشديد إلى وقت الغداء، فجاءنا بسماط يناسب المحل وشرف صاحبه، وليلة الأثنين كُنَّا في دعوة السَّيد الشريف موئل الشرع والشريعة في (الشام) حضرة السيد محسن العاملي[1] - أيّده الله - ولفرقة الجعفرية هناك إقبال عليه وخلوص له، وهو مُقبّل اليد عند الجميع، وله ولد غلام - حرس الله جماله - راهق أو قارب، يتوقد حسناً وجمالاً ويتقاطر نجابةً وحياءً، وكان بإيعاز أبيه - دام لطفه - يُكثر الحضور عندنا والتردد إلينا، وهو من طلبة (المدرسة العلوية)[2] القائمة بمساعي والده الشريف، وكان فارغاً من النحو مشغولاً بالمنطق، وكُنَّا بأمر أبيه نسأله والحياء يقطع عليه فيجيب؛ ولكن على مهل واستحياء شديد، وكان السيد المومى إليه يحضر محلَّنا أو نحضر محلّه فنبقى إلى الساعة السادسة أو السابعة في المسامرة والمؤانسة آنسه الله بالتأييد وجميع المؤمنين والمسلمين.

ثم في يوم الأثنين ١٤ ذي القعدة خرجنا الساعة التاسعة إلى المحطّة، وكانت أثقالنا قد أخرجتْ قبلنا، وخرج معنا وبعدنا جماعة من أولئك الأحباب والأعزّة لمشايعتنا، فوجدنا الأسباب موضوعة على الأرض وحجرات (الوابور) كلّها

---

(١) هو السيد محسن ابن السيد عبد الكريم ابن السيد علي الأمين الحسيني العاملي . (ولد سنة ١٢٨٤هـ - وتوفي سنة ١٣٧١هـ). نزيل دمشق، من أشهر أعلام عصره في العلم والأدب والاصلاح والتأليف، ومن أشهر مؤلفاته (أعيان الشيعة).

ظ: (النقباء ١٧: ١٢٢-١٢٥).

(٢) وتُسمَّى بـ(المدرسة المحسنية)، نسبة إلى مؤسسها، أسست في سنة (١٣٢١هـ - ١٩٠٣م).

مملوءة، وكان اللازم حضورنا قبل ذلك، فتنابذنا مع الحملدارية في الكلام والملام، وظهرتْ لوائح التعطيل إلى اليوم الثاني، وبيناً نحن على ذلك ومثله إذ توفق الحاجّ توفيق لإقناع بعض البوليسية والمأمورين الموكلين بالتنظيم - ولا تنظيم - فجاء وأعجل العكاكيم[(١)] بحمل تلك الأثقال وسوق العيال، فأسرعوا وأسرعنا فجاءوا بنا إلى حجرة كبيرة تسع الثلاثين نفر حسب النظام، وهي مشحونة بحجاج من الفرس، وإذا بالمأمورين يدفعون بأسبابهم وطرح بعضها على بعض بزعم أنَّ عندنا عيالاً وأنَّهم بغداديون واجبو الاحترام، فكلما حاولتُ المنع وأنَّنا نتعطل لم يُجدِ، وعرفتُ أنَّ الأمر ليس في يديّ منه شيء، أما أولئك الجماعة السابقة فحين رأوا ما لا قبل لهم به، وأنَّ في بقائهم ضيقاً علينا وعليهم؛ خفّوا بحمل أثقالهم وخرجوا وهم يرشقوني بسهام الطعن والملام، وأنا أعتذر إليهم بإنَّ ذلك ليس عن أمري ولا برضاي ولات حين قبول، وعلى أيّ فقد أفرغوا المكان لنا وبسط كلّ فراشه على أوسع ما يكون في بيته وربّما:

تناول عفواً حظ ذي السعي قاعد[(٢)]

ثم ودّعنا إخواننا المشايعين ومنهم سيدنا المحسن - أحسن الله كرامته - وبعد قراءته آية الحفظ والسلامة لنا وله - إنَّ شاء الله تعالى - تقدّم محروسه النجيب وقبّل يدي وقبّلته ثم تفارقنا على وجه جميل، واندفع بنا (الوابور) الساعة

---

(١) العكاكيم: جمع عكام متعهد نقل الحجاج، والعكام من العكم أي الشد واطلق على أجير الحجاج أو متعهدي الأسفار؛ لأنه يشدُّ الرحل.

(٢) عجز بيت لأبي البحر الخطي صدره:

فيا كربلا طلتِ السماءَ وربما

ظ: (ديوانه ص٣٧).

الحادية عشر من نهار الأثنين ١٤ ذي القعدة الحرام وكانت الحُجر المسحوبة (فرقونات) ثمانية عشر تسحبها مكينتان أمامه، وكان يبطئ في السير حيناً ويسرع في آخر، ويقطع في أبطأ سيره قدر ما بين سبعة أعمدة من أعمدة التيلغراف، وفي سرعته ضعف ذلك، ويقف عند رأس كل ساعة في محطّة فيها نقطة وعسكر خصوصي كالجندرمة، ولكن وقوفاً يسيراً لا يأمن الإنسان معه للنزول وقضاء أيسر حاجة، نعم في أوقات الصلوات يقف أكثر من ساعة وهكذا عند نفوذ الماء من القدر والاشتغال بامِلائه، ولمّا أصبحنا صباح الثلاثاء شاهدنا من شقّ الجبال الشوامخ الرعان ومدّ السِكَّة بينها، وعقد القناطر والجسور على الوهاد ومجاري السيول بحيث جعلوا الجبلين جبلاً واحداً، ومدّوا عليه الحديد وبنوا أسفله - بمسافة أربعين ذراع أو خمسين طاقاً بالجص والصخور - بناءً محكماً ليندفع السيل من أسفله، وما زلنا في مثل تلك الأحوال من قلع الجبال أو عقدها قدر أربع ساعات، حَتّى دخلنا في جبل قد ثقب ومدّت السِكَّة في وسطه، فأظلم الهواء علينا وسط النهار، وهجم الدخان واحتبس في الحجرات (الفرقونات) حَتّى أخذ بالمخنق، وكاد يأتي على النفوس وتراكمت ظلمات بعضها فوق بعض، وما زلنا على ذلك ما يقرب من ربع ساعة حَتّى خرجنا إلى نور الحياة من طرفه الآخر، وطرفاه مبنيان بالصخور المنحوتة المعقودة كالطاق، وصادفنا عصراً في المقصاّت القطارات الآتية من (المدينة)، فكانت أكثر من ثلاثين (فرقون)، وكل (فرقون) يسع على الأقل أربعين نفراً، وعلى أيّ فمشاهدة هذا الخط في تلك الأراضي الجبلية الحزون التي هي بين وادي وجبل يشهد لبانيه ومباشريه بالهمّةِ القعساء التي تقلع الجبال الرواسي وتقطع الحجر القاسي، ومع ذاك العناء

كلّه فهو لم يبلغْ حدّ تمامه وانتظامه، وهم بعدُ حتّى الآن مشغولون بإصلاحه وتكميله في جملة من مواضيعه، وهذا على العكس من خطِّ الأجانب إلى (حلب) فإنّه على ما ينقل في غاية الانتظام والاستقامة. أمّا حركة هذه (الفرقونات) عند جرّ البخار لها فهي هينة جداً لا تثلم شيئاً من الاستراحة؛ حتّى أنّي اشتغل بالكتابة اشتغالي بها عند القرار على الأرض، وكان مشروبنا من الجاي وإعمال السماور دائراً على أوقاته المعتادة، نعم ما فقدنا سوى الطبخ ولكن لا لعدم إمكانه بل لأننا لم نستعدْ له حذراً من عدم سعة المكان وضيق المجال.

معان - تبوك

وفي الليلة الثامنة أعني ليلة الاربعاء الخامسة من الليل وصلنا بلد (معان)[١] وهي بلد عامرة في سفح الجبال غربيّ السِكَّة تبعد عنها بميل، وعلى كتف السِكَّة دكاكين ومغازات كبيرة فيها أكثر اللوازم، ولكن بأضعاف أثمانها، وفيها دوائر للحكومة متقنة من صخور وحديد، والظاهر أنَّ البلدَ قضاء، وهناك وجدنا النخل بعد أن فارقنا صحيحه من (عانة) وسقيمه في (تدمر)، وفي بعض بيوت (الشام) المحتوية على الجنينات الفاخرة كدار الحاج محمد علي - متَّعها الله به وهو بها - كان يوجد بعض النخل كما يوجد سائر الفواكه، ولكن كان حاملاً بـ(الشّيصْ)[٢] وهو بعدُ أخضر وأصفر لم تأته حرارة تعمل فيه على أنَّ الوقت تشرين الّذي هو وقت القصاص في (العراق).

---

(١) معان: مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء.
ظ: (معجم البلدان ٥ :١٥٣).

(٢) الشيص: يقال: للتمر الذي لا يشتدُّ نواه ويَقْوَى، وقد لا يكون له نوى أصلاً.

ثم اندفع بنا البخار من محطّة إلى أخرى وهكذا، حَتّى أتينا قبل الظهر إلى بلد ذي نخيل باسق كنخل (العراق)، والبلد صغيرة فيها جامع صغير ومئذنة، فسألنا، فقيل: هي (تبوك)[١] وهي ناحية ترجع لـ(معان) ولما تجاوزناها قليلاً رأينا خيماً كثيرة لا تحصى عن يمين السِكّة، فاستداروا بنا حَتّى صارت عن يسارنا، وإذا هي مضارب الحجر الصحي بزعمهم، وما هو إلا لأخذ الرسوم والضرائب وإيذاء الحُجّاج وحملهم على مصاعب المصائب؛ فإنَّهم غَبَّ ما أنزلونا من (الفرقونات) وأخذوا الرسم من كل واحد علاوة على ما أخذته (الصحية) في محطّة (الشام) لم يكتفوا بذلك حَتّى أدخلونا في مباني من الخشب والحديد، وانتزعوا ما على كل واحد من الثياب التي عليه وألبسوه من أسمالهم[٢] ثوباً قصيراً قذراً لو كان في الدنيا شيء مما يسمّونه بمكروب الهواء الأصفر - أعاذنا الله - لما كان لاصقاً إلا في ذلك الثوب، وأخذوا ثيابهم الطيبة ووضعوها في المكينة، ولا تسل كيف أخرجوها من الحرارة والرائحة والرطوبة المتعفنة، أما الضعيف فإني وإن لبستُ تلك الخلعة ولكن ما دفعتُ شيئاً من ثيابي المنتنة بل دخلتُ مع الحُجّاج من باب وخرجتُ من مقابله، وثيابي تحت إبطي وراء تلك الأسمال، أما باقي الحُجّاج فحبسوهم ليبخّروهم؛ بل بحذف الباء عليهم.

وبالجملة فمن يشاهد تلك الأحوال السيئة وما يُمتهن به الحاج والمسلمون

---

(١) تبوك: موضع بين وادي القرى و الشام، و قيل بركة لأبناء سعد من بني عذرة، و قال أبو زيد: تبوك بين الحجر و أوّل الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، و هو حصن به عين و نخل و حائط ينسب إلى النبي ﷺ ... .
ظ: (معجم البلدان ٣:١٤ - ١٥).

(٢) الاسمال: جمع سمل: الثوب الخلق البالي.

من الذلّ وأنواع المحن والمهانة والغرامات من أولئك الجفاة القاسية القلوب، يعرف أنَّه ما من حسنة لحكومتنا إلا وقد احبطوها بسيئة تنوف عليها، ويودّ الإنسان أنَّ تلك الحسنة ليتها لا كانت ولم تكن، وإلا فما الموجب لكل هذا العناء والهواء في تمام الصحَّة والنقاء، والبلدان والمنازل كلَّها من (بغداد) إلى (الشام) بل وجميع الأطراف لم نسمعْ فيها ذكراً ولم نرَ أثراً لشيء من الأمراض، وكذلك قوافل الحُجَّاج كلّهم ليس في واحد منهم أقل شكوى وتألّم إلاّ من الجور والتعدي، وما تفسده تلك الأعمال من الصحَّة أكثر مما تصلحه بكثير، ولكن أين مَنْ يصرخ؟ وأين مَنْ يسمع؟، ثم بعد مقاساة المشاق وبلوغ الأنفس التراق ومضيّ أربع ساعات في تلك الأعمال ساقونا إلى محجر من مشبكات الحديد (سيم)، فيه تلك الخيام الخُضر فنزلنا فيه ونُقلت إلينا أسبابنا من (الفرقونات)، وبتنا ليلة الخميس ١٧ ذي القعدة في الحجر الصحي (قرنتيلة) وننتظر أن تمضي علينا أربع وعشرون ساعة حَتّى نطلق من ذلك الحبس الجائر الّذي هو من غير جرم ولا جناية سوى إنّنا من حجاج بيت الله، وقد صنعوا تلك (المحجرات) كالمحلات المفصول بعضها عن بعض لإنزال القوافل فيها حسب تعاقبها في الورود، وكان في تلك الاشراك والشبكات كثير من الحُجَّاج الّذين قبلنا وقد انقضتْ مدّتهم وسافروا ونحن ننتظر الموعد إلى العصر، وفي تلك المحلات صنعوا للماء (طرمباي) حديد يندفع الماء منها بسهولة، ولكن أيّ ماء هو؟!، ذلك المرُّ الوبئ الّذي تجرّعنا مثله في طريق (الدير) إلى (الشام)، وجاءنا أسود يحمل قربة ماء صغيرة يزعم أنّه من ماء (تبوك) وأنّه أحلى من الماء الّذي عندنا فاشتريناها في ربع مجيدي، فإذا هو من هذا، وكان ذوقنا له مسقطاً لِلخَيار

عنده، وليس في هذا الحجر إلاّ بقال واحد عنده من بعض اللوازم أردى وأسوء من كل جنس، وهو يسوم بما يقترح ويشاء، ولا يبيع إلاّ بما يسوم.

والبلد قريبة ولكن لا يدخل منها داخل ولا يخرج إليها منّا خارج، وقد حضر في محلّنا الآن وزارنا بدأة السيّد مهدي الزُّكرتيّ(١) وهو مع ابن أخيه السيد عبد الله قاصدون للحجّ - وفّقهم الله - وسائر المسلمين، وأيضاً معنا في هذه القافلة الشيخ آغا جمال الاصفهاني(٢) سليل المرحوم حجّة الإسلام الشيخ محمد باقر تُدُنَسُّ(٣)، وهو في خيمة إلى جنبي في كل وقت، وأراه وأعرفه؛ ولعله لا

---

(١) مهدي السيد سلمان العوّادي الموسوي: من زعماء النجف المعروفين، كان رئيساً لمحلّة الحويش، وكان له دور فعال في ثورة النجف (سنة ١٩١٨م).
ظ: (أعلام السياسة في العراق الحديث، مير بصري ٢: ٣٦٩).

(٢) آغا جمال: (المتوفى حدود ١٣٥٤ هـ)، عالم إمامي، فقيه. تتلمذ في أصفهان على والده الفقيه الشيخ محمد باقر (المتوفى ١٣٠١ هـ)، وقصد النجف، فمكث فيها مُدّة طويلة، وتتلمذ على الميرزا الشيخ حبيب اللّه الرشتي. وعاد إلى إيران، فأقام في طهران، وصار فيها من المراجع وزعماء الدين المعروفين، ثم رجع إلى أصفهان وتوفّي بها.
ظ: (نقباء البشر ١: ٣٠٨).

(٣) هو الشيخ محمد باقر النجفي الأصفهاني ابن الشيخ محمد تقي صاحب (هداية المسترشدين): (ولد ١٢٣٥هـ - وتوفي ١٣٠١ هـ). وبعد وفاة أبيه بعثته والدته بنت الشيخ الأكبر الشيخ جعفر إلى النجف الأشرف؛ لأجل تحصيل العلوم وحضر على خاله الشيخ حسن صاحب (أنوار الفقاهة)، والشيخ مرتضى الانصاري، والشيخ حسن صاحب (جواهر الكلام)، ثم رجع إلى اصفهان وكان رئيساً بها ومرجعاً للتدريس والإفتاء واجراء الحدود الشرعية؛ ولذا لقب بـ(حجّة الإسلام)، وله من المصنفات شرح هداية المسترشدين (حجية الظن)، و(لب الفقه)، و(لب الأصول)، وتعليقات واضافات على رسالة صلاتية لوالده، وتعاليق فتوائية على (نخبة) الحاج الشيخ محمد إبراهيم الكلباسي.
(ن. م. ١٣: ١٩٨-١٩٩).

يعرفني فلذا لم ابتدئه بالزيارة ولم يبتدئني حَتّى الآن.

ثم بعد الظهر بقليل فتحوا باب الحجر وأذنوا للحاج بالخروج، وأتوا بـ(الفرقونات) وحملوا الأسباب وركب الناس وجاءوا بهم إلى المحطّة، وبقينا مصبرين لا نعرف ما وجه التعطيل؛ حَتّى أزفتْ الشَّمسُ وجنحتْ للغروب اندفع بنا وجعل يجدّ في السير ولا يقف في المحطّات إلاّ يسيراً، وبعد الخروج من (تبوك) بقليل وقع الخط الحديدي بين الجبال الشواهق والرعان السوامق التي عانوا مشقّة شقّها ومُدّت السِكَّة في وسطها، وبينا نحن ننظر ونبتهر في تلك الشمّ الرواسي على ضوء القمر؛ إذ دخل بنا في نقب في الجبل كالسابق وبقي مقدار دقائق.

الأخضر

ثم خرج وما انفكّ يطوي تلك الجبال حَتّى أتينا قرب الخامسة من الليل إلى محطّة في محلّ يسمّى بـ(الأخضر)[1] وكُنّا في أشدِّ الانتظار والتطلّع إليه لما ذكروا لنا في (تبوك) من عدم مصادفة الماء العذب إلاّ فيه، فلمّا وردناه تروّينا منه وملأنا الأواني والمزاود منه؛ وكانتْ من أثر ماء (تبوك) أفواهنا ولهواتنا كالحنظل، وكان ماؤه من آبار قريبة واقعة في مساحب تلك الجبال وشعابها، ثم

---

(١) الأخضر: منزل قرب تبوك بينه و بين وادي القرى مسافة، كان قد نزله رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) في مسيره إلى تبوك، وهناك مسجد فيه مصلّى النبي (صلى اللّه عليه واله وسلم). وأخضر تربة. ويُسمّى الوادي الأخضر: واد فحل من أودية تبوك يمر شرقها على (٣١)كم، ثم يدفع في قاع شروري، سمّي الأخضر؛ لأن نبات الرمث يكسو أرضه فيجعله دائم الخضرة .... .

ظ: (معجم البلدان ١: ١٢٣، معجم معالم الحجاز ١: ٧٦).

اندفع بنا نصف الليل من محطّة إلى أخرى حتّى وقف بنا أوّل الشّمس في موضع فيه بنيّةٌ من الصخر مشيّدة مكتوب عليه هذا (مبركة الناقة)[١]، وما أمهلونا إلاّ بمقدار قضاء فريضة الصبح بأقل واجباتها وأعجل كيفياتها حتّى اندفع بنا.

مدائن صالح

وبعد ساعة وقف على بلد فيها بعض البيوت والحوانيت، وفيها عمارات كثيرة كلّها مشيّدة من الصخور المتقنة، وكل تلك العمارات إدارات لعمليّات ذلك الخط، وفيها عَمَلة كثيرة، وعساكر وافرة، وحديد ومكائن، وطرمبات نارية ومائية، كلّها ممّا يدعو إلى التفرّج والنظر، وهذا الموضع يعرف بـ(مدائن صالح)[٢]، ولمّا وقفَ القطار ونزلَ الحاج من الفرقونات لقضاء حاجياتهم ومصالحهم سألتُ عن مقدار تعطيله هناك فقيل إلى الظهر، فسرّني ذلك وانطلقتُ إلى الجبال، وكنتُ أظنّها تبعد عن المحطّة بنصف فرسخ فإذا هي لعظمتها وارتفاعها تُرى قريبة، وهي أبعد من ذلك، وبعد مزيد المَشَقَّة والعناء وطيّ نشوز[٣] الرمول التي ترسب الأقدام فيها إلى الساق، والوهاد الكؤود وصلتُ إلى

---

(١) انظر: معجم معالم الحجاز، (مبرك) ٨: ١٤٩٥ – ١٤٩٦).

(٢) مَدَائن صَالح: بلدة في شمال الحجاز، ذات صبغة أثرية سياحية، كان أهلها ثمود قوم النبي صالح عليه السلام، يطؤها طريق السكّة الحديدي بين المدينة وتبوك، تبعد شمال المدينة بحوالي (٣٤٧)كـ وواديها الحِجر يصب في وادي القرى من الشمال، سمّيت بـ(مدائن صالح)؛ اختياراً لاسم النبي صالح عليه السلام، وانفة عن أسم ثمود الكفار، وهكذا صارتْ لا تعرف إلا بـ(مدائن صالح).
ظ: (معجم معالم الحجاز ٨: ١٥٢٥).

(٣) النشز: المتن المرتفع عن الأرض.

لمّة[1] من الجبال بينها شعاب ومسارب[2]، وكان تحمّلي لتلك المَشَقَّة شوقاً إلى ما سمعتُه من أنَّ فيها بيوتاً وحُجراً منحوتة وسط الجبال، فلمّا بلغتُها وجدتُ الحجرات في أوساط الجبال والغُرفات في أعاليه في كثرة يعسر عدّها، وكل تلك الجبال بمكان من الصلابة بحيث لا يحصّل الظِفر منها ولو عمل جهده ذرة؛ فكأنّها مذاب من الحديد مصبوب في قوالب، والحجرات متقاطرة في شلخ تلك الهواضب وقرارها.

وهي مربعة متساوية الأضلاع، وبعضها مستطيلة، وهي في أقصى ما يمكن من التساوي والاعتدال، ومنتهى الصقل والصفاء جدرانها وسقوفها، وفي بعضها روازن[3]، وعلى باب الحجرة في الفضاء على صفحة الجبل جبهة عالية وتحديدات (إفريز)[4] وكتيبة عالية إلى قرب نصف تلك الأجبال التي لا يقدّر ارتفاعها إلاّ بأنّها قد سدّتْ الجو وصارتْ سدّاً في الفضاء بين الأرض والسماء، وفي تلك الكتيبة ما لا أعلم أنّه نقشٌ أم كتابةٌ، ثم انتهيتُ إلى جبل تطل عليه وتحيط به جبال كثيرة بينها شعاب وفواصل، وكان قد نُحتَ في ذلك الجبل إيوان عظيم في أطرافه الأربعة اسطوانات مربعة، ولها رأس مربع مُشكّل وكأنّ الاسطوانةَ مفصولةٌ مبنيةُ وما هي إلاّ من الجبل نفسه، قد صُوّرت بأبدع صورة، فكان عرض ذلك الإيوان اثني عشر ذراعاً، وطوله عشرين، وارتفاعه - تقريباً -

---

(١) اُللمة: المجموعة.

(٢) المسارب: جمع مسرب، وهي القنوات والمجاري.

(٣) الروازن: الأماكن المرتفعة.

(٤) الإِفْرِيزُ: إِفْريز الحائط، معرّب لا أصل له في العربية.

ستة عشر، والجبال واقفة أمامه من أمم[١] بحيث تصدّ الشَّمس عنه، وتأذن للنسائم المنعشة فتتخلص إليه من بين تلك الشعاب، ولم تسعدْ الوحشة والوحدة والقوة والقوى وضيق الوقت للتوغل في تلك الأحْناء[٢] والشعاب، ولا للصعود إلى قُنن تلك الهضاب للاطلاع على ما فيها من عجائب الآثار وغرائب الاعتبار، وهذا الّذي رأيناه بعض أطراف (مدائن ثمود)[٣] قوم صالح الّذين رأينا منهم عياناً ما سمعناه قرآناً في قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

ثم نكصتُ راجعاً وقلتُ: (يكفيك من القلادة ما أحاط بالجيد)[٤]، فلا تتكلفي يا نفس شقة البعيد، فعدتُ أزيف الزوال من غير المنهج الّذي جئتُ به، فرأيتُ في بعض التلال نقباً كأنّه جحرُ حيوانٍ، وعنده عظام كادتْ أن تكون رميماً، كأنَّ حيواناً أخرجها من قعر رمسها، ومنها قحف هامة كأكبر ما يكون من هامات البشر، وهو في أشدِّ ما يكون من البياض والثخن حَتّى أنّ قطره يبلغ أو يزيد على العقد، فحملته وجئت به إلى أصحابي وكلّ مَنْ رآه تعجّب، وقال

---

(١) الأمم: القريب.

(٢) الاحناء: الجوانب.

(٣) كانت هذه الجبال تُسمّى (الأثالث)، وفي معجم البلدان ١: ٨٩: (الأَثالِث: بلفظ الجمع: جبال في ديار ثمود بالحجر قرب وادي القرى، فيها نزل قوله تعالى: (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين). وهي جبال يراها الناظر من بُعد فيظنّها قطعة واحدة فإذا توسّطها وجدها متفرّقة يطوف بكل واحد منها الطائف).
ظ: (معجم البلدان ١ :٨٩، ٢: ٢٢٠ – ٢٢١).

(٤) مثلٌ قاله عقيل بن عُلَّفَة حين سئل لم لا تطيل الهجاء؟ قال: «يكفيك من القلادة ما أحاط بالعُنق».
ظ: (البيان والتبيين ١: ٢٠٧).

أعراب تلك النواحي: يوجد كثير من هذا بين تلك الشعاب ويزعمون أنَّها من بقايا تلك الأمم الغابرة.

جلّتْ عظمة منشئها، ومفنيها، ومميتها، ومحييها.

ثم صوّت البخار للتهيوء والاستقرار، واندفع بنا الساعة التاسعة من النهار بين تلك الجبال الشاهقة والأحناء المتضايقة ونحن ننظر إلى تلك البيوت والحجرات المنحوتة في تلك الهضاب والصُّم الصلاب.

المُعَلّى

وبعد ساعتين دخل بنا الى سفح من الأرض تطل عليه وتحيط به تلك الجبال المتعالية، ولكن السفح يزهو بخضرته اليانعة، وبساتينه الفارعة، ونخيله الباسق، وشجره الوارق، وأرض السِكَّة مرتفعة عنه كثيراً مشرفة عليه إشرافاً، حَتّى أتينا إلى المحطّة فكان مكتوباً عليها (المُعلّى)[١] وهو أسم ذلك المحلّ، وجاءنا من بين تلك الشعاب والهضاب صبية من سود الأعراب يحملون النومي الحلو، فتهافت الناس وتداكّوا[٢] عليه وأخذوه بأغلى أثمانه، وذكروا أن ما بين تلك الجبال إلى مسافة عظيمة كلّها بساتين ومزارع ومياه كثيرة.

ثم اندفع بنا قبيل الغروب من ليلة السبت، وما انفك يترامى من خطة إلى خطة، ومن محطّة إلى محطّة، وأكثر تلك المحطات مترسة بالعساكر النظامية،

---

(١) المعلى: عين مندثرة بوادي الصفراء بين الواسطة والحمراء، بقي منها نخيلات على قارعة الطريق...).

ظ: (معجم معالم الحجاز ٨: ١٦٢٣).

(٢) تداكوا: ازدحموا.

والعساكر المتوحشة من عُقَيل وأمثالهم، كلّ ذلك محافظة من تعدّيات تلك الأعراب الغاشمة، والأمم العاتية، والحرب من عشائر حرب [١] التي هي العذاب الصبّ، العائقة عن كل راحة وهدوّ، والواقفة دون كلّ عمران ورقي.

ثم بقي ينساب عامّة ليلة السبت بنا انسياب الأيم بين تلك الرمال والجبال، حتّى أصبحنا صبيحة السبت بين جبال خشنة سوداء كالحة قاحلة، وحرّاتٍ [٢] كزبر الحديد، وقطاعه المتراكمة التي هي أشدُّ سواداً من السبج [٣]، وأحدُّ أطرافاً من الشفار.

في المدينة المنورة

وما كان إلاّ ساعتان من النهار حتّى وصلنا إلى آخر المحطّات، ودخلنا (المدينة المنورة)[٤] قبل الظهر من يوم السبت ١٩ ذي القعدة، وكان مُدّة مسيرنا من (الشام) إلى (المدينة) خمس ليال، ليلة ويومان منها في الحجر الصحي، والباقي وهو أربع ليال وثلاثة أيام وهي من مسافة خمسة وثلاثين يوماً للقطار، فسبحان من عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ وهداه للتي هي أقوم.

وكان دخولنا للمدينة من طرفها الشمالي من أسفلها من بابها الغربية المعروفة

---

(١) عشائر حرب: هي إحدى أكبر قبائل الجزيرة العربية التي استقرت في منطقة الحجاز بين الحرمين الشريفين في بداية القرن الثاني، واستطاعتْ أن توجد لها كياناً عشائرياً قوياً ابتداءً من القرن الرابع.
ظ: (الموسوعة الحرة ويكيبيديا).

(٢) الحرَّة: وجمعه حرار، وأحرين، وحرات، أرض ذات حجارة سوداء نخرة كأنما أحرقتْ بالنار.

(٣) السبج: الخرز الأسود، فارسيٌّ معرب.

(٤) المدينة المنورة: عاصمة الإسلام الأولى ومحتضنة رفات سيِّد البشرية ومعلّمها الأوّل... .
ظ: (معجم معالم الحجاز ٨: ١٥٣٤ – ١٥٣٨).

بـ(باب العنبرية)[١]، ثمّ تشرّفنا عصراً بلثم أعتاب الحضرة النبويّة، فشاهدنا مشهداً كريماً ومسجداً عظيماً يدهش الرائي وينعش الجائي في إتقانه وإحكامه، وحسن تنسيقه ونظامه، وبديع هندسته ورائع زينته وزخرفته، وتحليته الذهبية، ونقوشه الملوّنة، وأساطينه الرخامية الرفيعة، وسواريه الشاهقة المنيعة، وهو من تشييد السلطان العثماني عبد المجيد خان[٢]، ومن محاسن حسناته المشكورة، وهو مربّع مستطيل طوله ٢٥ اسطوانة، عرض الاسطوانة يزيد على سبعة أمتار، وعرضه ١٦ اسطوانة، والمسقّف منه اثني عشر في جهة الجنوب، وأبوابه المعروفة الشهيرة خمسةٌ، اثنان من جهة الغرب: (باب السلام)[٣]، و(باب الرحمة)[٤]، واثنان من الشرق وهما: (باب جبرئيل)[٥]، و(باب النساء)[٦]، وواحدة من جهة الشمال وهي

---

(١) باب العنبرية: باب بالمدينة المنورة تخرج منه إلى مكة، وإليه انتهت سكّة حديد الحجاز سنة ١٣٣٢هـ ومازالت المحطة ماثلة للعيان.
(م. ن. ١: ١٦١).

(٢) عبد المجيد الأول: ابن محمود الثاني، (ولد سنة ١٨٢٢م - وتوفي سنة ١٨٦٠م)، قام بترميم المسجد النبوي وتوسعته وتزينه وإضافة رسوم تركية إلى عمارته، بعدما علم بتصدّع بناءه.
ظ: (الموسوعة الحرة).

(٣) باب السلام: هو باب بني عبد شمس بن عبد مناف، وبهم كان يعرف في الجاهلية والإسلام عند أهل مكّة فيه ثلاثة طاقات.
ظ: (تاريخ مكّة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، ص١٥٥).

(٤) باب الرحمة: هو أحد أبواب المسجد النبوي الغربية، وكان يسمّى (باب عاتكة) نسبة إلى عاتكة ابنة عبد الله بن زيد بن حارثة عمّة رسول الله ﷺ.
ظ: (معجم معالم الحجاز ١: ١٦٠).

(٥) باب جبرئيل: هو أحد أبواب المسجد النبوي الشريف، وكان يسمى باب النبي ﷺ أو باب آل عثمان.
ظ: (م. ن. ١: ١٦٠).

(٦) باب النساء: ويُسمّى بـ(باب ريطة) ابنة أبي العباس السّفاح، وكان مكتوب في اعلاه من ←

(المجيدية)، ولا باب له من جهة القبلة.

أما الحجرة النبويّة وضريحه المقدّس فهو في جهته الشرقية إلى جنب (باب جبرئيل)، والحجرة عبارة عن ثلاث اسطوانات، كل واحدة قد فصلّت باثنين فهو مربع ستة في الطول، وستة في العرض، وبين السواري والأعمدة شبابيك الحديد إلى السقف؛ ولكن من الحديد العادي المصبوغ بالخضرة من جهة الرأس الشريف والأقدام الطاهرة، وأما من جهة الوجه المقدّس والقفا صنيع الفلزّ المعروف بـ(البرنج) المصنوع أبدع صنع، وداخل الحجرة الشريفة ضريحه الأقدس مجلّل بأستار الحرير والديباج الأخضر من أرضه إلى سقف المسجد في ارتفاع شاهق، مكتوب ذلك الحرير الأخضر بالابريسم الأبيض كلاً (لا إله إلا الله محمّد رسول الله) وقبر صاحبيه (رض) داخل الستار، وصندوق القبر الشريف داخل خلفها لا يُرى منه شيء، نعم من ناحية الوجه الشريف فُوَّهَةِ مفتوحة من الستار أطول من شبر تنكشف عن مشكاة في الصندوق الشريف فيها جملة من الجواهر النَّفيسَة منها (اليتيمة المعروفة): وهي بقدر بيضة الحمام تتلألأ في الليل من أضوية داخل الحجرة تلألأ باهراً، ومكتوب هناك فوقها هذا قبر رسول الله ﷺ، ووراءه أسفل منه من ناحية الرجلين هذا قبر أبي بكر الصديق (رض) وخلفه كذلك هذا قبر عمر بن الخطاب (رض)، مكتوب في الستار بالخيوط الذهبية، وقبر الصديقة الزهراء (صلوات الله عليها) في صندوق مستقل خلف

→

الخارج لوح من الفسيفساء مكتوب فيه (آية الكرسي) من بقية بناء المسجد القديم الذي بناه عمر بن عبد العزيز ...).

ظ:(التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة ص٣٦).

الظهر عند الرجل داخل الحجرة قبالة بابها، وتحت الرجلين عرض اسطوانة في طول أربع[١]، وهناك (مقام جبرئيل)[٢] وبابه ومهبط الوحي وبيت النَّبي ﷺ منه إلى موضع قبره الشريف عرضاً، وإلى قبر بضعته الزهراء (صلوات الله عليها) طولاً، وبيت أمير المؤمنين عليه السلام من موضع قبر الصديقة الزهراء عليها السلام إلى (باب النساء) عرضاً، وبين بيته وبيت النَّبي ﷺ فاصل قليل بقدر عنزة[٣] كما ورد في بعض الأخبار.

هذا ما استفدناه من الحدس والحس، وتطبيق الخبر على العيان والله العالم.

و(المسجد الشريف)[٤] قد أضيفتْ إليه زيادات ولكن القديم منه مُعلّم بعلامات ومحدّد بحدود بيّنة للمتأمل في خصائص هندسته وطرزه.

أما المدينة نفسها فهي قديمة وحادثة و(القديمة): صغيرة جداً ضيقة الأزقة وعليها سور يحيط بها كُلاً، وله أبواب محكمة، كان هواؤها في ذلك الفصل يأخذ بالمخنق، كما أنّ أخلاق أكثر أهلها من أزقتها أضيق، ولقد كابدتْ الحُجّاج وكابدنا من سوء أخلاقهم وتعصّبهم وشدّتهم وتعرضهم وإيذائهم ما تقشعر له أبشار البشرية، ويحمرُّ خجلاً من همجيّته وجه الإنسانية، ولا سيّما خدّام

---

(١) أي في طول أربع أسطوانات.

(٢) مقام جبريل: يقع في الزاوية الغربيّة الشماليّة من بيت رسول الله (صلى الله عليه واله)، داخل المسجد النبوي المقدس.

ظ: (معجم معالم الحجاز ٨: ١٦٣٩).

(٣) العنَزَة: أطول من العصا واقصر من الرمح.

(٤) المسجد النبوي الشريف: هو ثاني الحرمين الشريفين، أسسه رسول الله ﷺ في السنة الأولى من الهجرة عند وصوله إلى المدينة المنورة.

ظ: (معجم معالم الحجاز ٨: ١٥٩٠).

الحرم الشريف وعلى الخصوص المخاصي السود منهم، فقد كادتْ ليلة أن تقع الفتنة بيني وبينهم، بعد أن طال بيننا الخصام وكثُر الكلام وإلى الله ورسوله لا لسواهما المشتكى، أما أولياء الأمور وأمراء الدَّولَة فهم لا يسمعون صُراخ المظلوم ولا يُؤاخذون الظالم، فالله هو الحكم بيننا والحاكم، نعم والحقّ يقال: قد اجتمعتُ ببعض أهل الكمال من أهل المدينة كادتْ حسنة الدهر به أن تكون كفارة لسيئات أهل وطنه، ألا وهو الحرّ بحقيقة معنى اللفظ الفاضل المهذَّب محمد شكري أفندي حفظي - حفظه الله - وكثّر في المدينة أمثاله، وهو وإن كان رسماً مأمور الدخانيّة؛ ولكن أكثر وقته مشغول بتحصيل الفضل والكمال، وهو على حداثة سنّه قد هذّبته الأسفار ولم يؤدّبه أبواه بل أدّبه الليل والنهار، ولمّا جلستُ عنده في محلِّه توسمّتُ الكمال من شمائله، ولمحتُ الفضل من خلال مخايله، ولم أدرِ أوجهه أصبح أم أخلاقه؟!، ولسانه أعذب وأطيب أم أعراقه؟!، ووجهه أجمل أم فعله؟!، وحياؤه أكثر أم عقله؟!، وبالجملة فقد برّ وأكرم، وتلطّف وأنعم، واجتمعتُ به مرتين أو ثلاث فامتلك ودّي وحبّي، ووقع أحسن موقع من قلبي، ولاءمت طباعه طباعي، فكال لي من المودَّةِ بصاعي، فلو نظرته لوجدته مجسمة النجابة والحياء، ولو اختبرته لشهدتَ لطيفة الصدق والصفاء، وقد فارقته وقلبي يهفو إليه، وأجنحة أشواقي ترف عليه - حفظ الله كماله وجماله - وكثّر في المسلمين أمثاله.

و(المدينة الحادثة): وراء السور القديم، وعليها صورة سور، وأزقتها أوسع، وعماراتها أبدع، وهواؤها أصفى، وأهلها أنصف.

البْقِيع

و(الْبَقِيع) خارج عن المدينة القديمة متصّل بها من جانبها الشرقي قبالة (باب الجمعة) وهو واقع حالاً في البلد الحادثة، وفيه مقبرة (أهل المدينة)، وعامَّة قبور السلف، والعمارات الحادثة شاسعة عنه قليلاً؛ ولكنَّها في ناحية جانبيه شمالاً وجنوباً.

أما سعة المدينة فهي يوشك من أواسط الأمصار مثل (كربلاء) أو أقلّ، ولكن من جهة ما يحفُ بها من البساتين، وما يجلب (الشمندفر)[(١)] من (الشام) وأطرافه، تجمع بين فواكه الصيف والشتاء، وبقول الربيع والخريف، فترى البطيخ الأخضر والأصفر، مع الشلجم، والجزر، والليمون، والرمان مع العنب، والتفاح، كل ذلك وما أشبه حاضر مجموع بها دفعة واحدة كما أنَّ (مكَّة) كذلك، أما الأثمان والأسعار ولا سيّما على الحُجَّاج فلا تسل عنها، فالقسط هناك عدم القسط.

وقد خرجنا بعد دخولنا بيومين إلى زيارة أسد الله ورسوله حمزة عليه السلام.

طريق مكّة

خرجنا من (المدينة المنورة) ليلة الخميس ٢٤ ذي القعدة الحرام أوّل الغروب، وجئنا بمشقّة عظيمة في الأخشاب على الجمال، وكان يوماً مشهوداً من الازدحام وتدافع الناس للخروج وهم في كثرة لا يحصيها سوى خالقها ومدبّرها، حتّى أتينا إلى السفح من (جبل أحُد)[(٢)]؛ ولكن على أنَّ المسافة دون الفرسخ،

---

(١) من وسائل النقل.

(٢) أحد: جبل بالمدينة مشرف عليها من الشمال، أحمر معروف لدى الجميع، وأهل المدينة يُسمّونه (حِنّ) ويقع حي الشهداء بسفحه... .
ظ: (معجم معالم الحجاز ١: ٦٤ – ٦٥).

امتدّ الوقت بنا إلى أكثر من ثلاث ساعات من ظلمة الليل الدامس[(١)]، وتوقيف (عشائر حرب) للقوافل لأخذ ما يُسمّونه بـ(الخاوة)[(٢)]، ونحن مصبّرون على ظهور الإبل، وما جزنا إلاّ بعد جهد شديد، ثم نزلنا بين السفح وبين قبر أسد الله حمزة عليه السلام في فسحة بالسفح ممتدة، وكان مسيرنا مع المحمل الشامي وفي ايالته جملة من العسكر النظامي والعقيلي من الأعراب تحت رئاسة بعض الأشراف، وبعض الباشات، والصرة اميني[(٣)]، فكانت مبيتنا تلك الليلة هنالك؛ ولكن في ضوضاء وضجّة عظيمة، فلما سلّ الأفق عضبه على زنجيّ الليل، وقمنا للصلاة عليه سال ذلك الوادي بأعناق الإبل، واندفعنا قبل طلوع الشَّمس، وسرنا في حَرَّة صعبة خشنة سوداء قد أخذتْ عرض الأرض وطولها، وانتثرتْ فيها انتثار القتاد[(٤)] في شجرة الشوك، فما كان ليرفع البعير خفّه ويضعه إلاّ ويخفّ بنا الوهل والوجل خشية السقوط على تلك الحجارة التي لا ينهض صريعها ولا يسلم قريعها[(٥)]، هذا مع شدّة الازدحام وتدافع المحامل وضيق البغازات[(٦)]، وما زلنا على ذلك حَتّى أتينا إلى مضيق بغاز يكتنفه أصلب ما يكون من الجبال الصخرية الشاهقة يُسمّى بـ(المخنق) وهو أوّل منازل هذا الطريق إلى (مكَّة) وهو المعروف

---

(١) الدامس: الشديد الظلمة.

(٢) خوى: ما عند فلان أخذ كل شيء من عنده.

(٣) أمين الصرّة: يُعيّن بإرادة سنية كأمير للحجّ، وربما يُعيّن في إرادة واحدة، وينتخب ممن يحوزون الرّتبة الثانية ويبلغه الإرادة ناظر (وزير) الداخلية.
ظ: (مرآة الحرمين ٢: ١٤٦).

(٤) القتاد: الواحدة قتادة شجر له شوك.

(٥) القريع: الرئيس.

(٦) البغز: كذا في الاصل.

بـ(الطريق الشرقي)[١]، ويقابله (الفرعي)[٢]، و(السلطاني) وهما أسمح أرضاً، وأعدل جَادَّة، وأقل منازلاً ومسافة، وأكثر مياهاً وأعمر قرى ومحالاً، و(الشرقي) خلافه في كل هذه الأحوال ولكن حببّه إلى الناس أمران:

أحدهما: قرب ميقات إحرامه، فإنَّ ميقات (السلطاني) و(الفرعي)، (مسجد الشجرة)[٣] وهو ثمانية فراسخ عن (المدينة) تقريباً، ومُدّة الإحرام منه تكون تسعة أو عشرة أيّام، وميقات الشرقي (وادي العقيق)[٤] كما سيأتي.

وثانيهما: النجاة من أبالسة (حرب) الّذين لا نجاة من شرِّهم إلاّ لمن نجّاه الله، وهم يرون قتل الحاج وسفك دمه غنيمة فوق سلب ماله، ولا تجوزهم قوافل الحاج إلاّ وقد ضحّوا جملة من النفوس المحرّمة في ذلك الطريق، رمياً بالبنادق، أو رضخاً بالصخور، أو شدخاً بالعمد، وهذا هو الّذي أعجز الدَّولَة مع عدتها واستعدادها وقوة جنودها وعساكرها حَتّى عدلت بالمحمل الشامي عن هذا الطريق مع عمرانه وسماحته إلى سلوك الطريق الشرقي مع صعوبته وشدّته وقلة مياهه. وبالجملة ففي (الخنق)[٥] غدير ماء يجتمع فيه من ماء الأمطار ويحول تمام

---

(١) الطريق الشَّرقي: هو الطريق التي تأتي المدينة من مكّة مارة شرق الحرة، فتمرُّ بالمحاني، فحاذة، فالمهد، فالصويرة، ويسمّيه أهل الحجاز (الفرعي) وفرع عندهم مطلع الشمس.
ظ: (معجم معالم الحجاز ٥ :١٠٦١).

(٢) ظ: (طريق الفرع) في معجم معالم الحجاز ٥: ١٠٦١.

(٣) مسجد الشجرة: يقع شرق طريق مكّة، في ذي الحليفة المعروف الآن بأبيار علي، وبالحساء، وبالمحرم، على الجانب الغربي من وادي العقيق.
ظ: (المغانِم المُطابة في معالم طَابة، للفيروزابادي (ت ٨١٧هـ - ١٤١٥م) ص ٤٥٨).

(٤) سيأتي التعريف عنه.

(٥) الخنق: هو مضيق وادي رنية بين الأملح والروضة حتّى يكون مخنقاً للسيل فيسمّى الخنق.
ظ: (معجم معالم الحجاز ٣ :٥٧٧).

الحول وكاد أن يكون لغزارته من الشطوط الغزيرة: وهو مصبُّ جملة من تلك الجبال المناطحة أعنّة السماوات، والماء مجتمع محيط بأسفل جبل من تلك الجبال، ولكن لم يكن ماؤه بالعذب الهنيّ، فقضينا ليلتنا تلك وهي ليلة الجمعة ٢٥ ذي القعدة ، وملأنا المزاود وسرنا بعد أداء الغداة في تلك الحرّات السود المبثوثة في عرض الطريق، بحيث لا يجد البعير لخفّه موضعاً من الأرض خالياً منها ليضعه مستقراً مطمئناً، ومازلنا نسير على ظهور الإبل في المحامل حَتّى أوشكتْ الشَّمس ان تجبَ[١] فنزلنا في برحة من الأرض على غير ماء ولا كلاء ويُسمّى هذا المنزل بـ(المغبّة)، فإنَّ منازلَ هذا الطريق يوم ورود، ويوم مغبّة[٢]، إلاّ أن يصادف بعض المياه من (غُدْرَان)[٣] ماء المطر اتفاقاً.

الحجيرية وصفينة

وقبل طلوع الشّمس تَحَمّلنا بعد تنبيه المدفع الشامي، وسرنا في طريق وعر وحزون من الأرض صعوداً ونزولاً على الحرّات السود والعقبات الكؤود، وكلّما سبقنا المحمل الشامي في السير قهرونا عن التقدّم وأوقفونا حَتّى يتقدّم وهو يسير سيراً بطيئاً ومعه من العساكر الشامية والعقيلية ما ينوف على المائتين مع ضباط وقوّاد، ومدافع وأسلحة، ولكن ليس لهم هم سوى حفظ أنفسهم والله هو الحافظ من شرِّهم، ولا تنفكّ منزل من المنازل من سرقات أو قتلى من الحُجَّاج غِيلة وعلانية، خارج القافلة وداخلها، عند السير وفي المنزل، والسالم من حفظه الله لا

---

(١) وجبت الشمس: غابتْ وغربتْ.

(٢) الغِبُّ: وِرْودُ يوم، وظِمأ آخرَ، وقيل: هو ليوم وليلتين، وقيل: هو أن تَرعى يوماً، وتَردَ من الغَد.

(٣) غُدْرَانٌ: جمعه غُدُر: الماء الذي يُغَادِرُهُ السّيل في مستنقع ينتهي إليه.

دافع ولا مانع، فسرنا من طلوع الشَّمس وهجم علينا الليل وغشانا الظلام ونحن نتوغل في شعاب الجبال يدفعنا شعب إلى جبل، وجبل إلى شعب، وتفرق الحاج في تلك المضائق والشعاب كل خزلة[١] في مضيق، فاستوحشنا لذلك أشدّ الوحشة، وخاطرنا أعظم المخاطرة، ولو أُخذَ نصف الحاج - وكان أكثر من عشرين ألف - لم يدفعْ عنه أحد، وقد تلفتْ بعض النفوس والأثقال، حَتّى نزلنا الثالثة من الليل في بغاز ضيّق بين جبال شاهقة وأرضه متوعرة بالصخور التي أطرافها كالشفار، فنزلناها في ظلام الليل الدامس الّذي لا يبصر الإنسان البصير فضلاً عن الكلب في ظلمائه الطُنبا[٢]

ويُسمّى هذا المنزل (الحجريّة)[٣]، لكثرة أحجارها ولكن - ولله القدرة - فيها آبار كثيرة متقاربة ذات ماء معين عذب غزير قريب مشرجة[٤] دوائرها بتلك الأحجار السود، وكُنَّا على نفاذ من الماء، ويبس من الرواء، فتروّينا وأكثرنا، وبتنا هنالك وملأنا المزاود، وسرنا بعد صلاة الفجر حَتّى أتينا آخر النهار إلى مغبّة (الحجرية) وهي وسط بين (الحجرية) وبين الورود الّذي بعده، الّذي يعرف

---

(١) الخزلة من الشيء: القطعة.

(٢) من قول مُرَّة بن مَحكان السَّعديّ ، وأصلُهُ:

في ليلة من جمادى ذات أنديةٍ ... لا يبصر الكلب من ظلمائها الطُنبا

ظ: (مرة بن محكان السعدي حياته وما تبقى من شعره: جمع وتحقيق د. عباس هاني الجرّاخ، مجلة (العرب)، ص ٧٩٠، ج ١١- ١٢، س ٣٣، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

(٣) الحَجَر: قرية لبني سليم، وتعرف (قرية الحجرية).

ظ: (معجم معالم الحجاز ٢: ٤١٢).

(٤) شَرَجُ الوادي: مُنْفَسَحُه.

بـ(صُفينة)[١] فعشّينا هنالك وسرنا منه صبحاً حَتّى أتينا قبل العاشرة من النهار إلى (صُفينة)، وهي أرض حَرَّة ذات صخور مختلفة الألوان أكثرها السود العظيمة، وفيها آبار قريبة القعر، غزيرة الماء، عريضة واسعة مُشرجّة إلى موضع الماء بتلك الصخور بناء محكماً، أما موضع قرار الماء منها فهو عبارة عن صخرة واحدة سوداء قد نُقر فيها مثل الحوض الكبير ونبع الماء من وسطه، حَتّى تخيّلتُ أنّه مطليّ الأطراف والأرض بالقار، وبعد التأمل وجدتُه صخراً منقوراً، وهي أيضاً آبار كثيرة ماؤها متوسط لا يخلو من مجاجة، وهناك بيوتات من صخر وطين، وقليل من النخيل، والمزارع يستقون لها على النواضح من تلك الآبار.

وتلك الأراضي من قبل (الحجرية) إلى ما بعد (صُفينة) لـ(مُطير)[٢] وهي عشيرة كبيرة معروفة الفتك والقوة والفروسية في أعراب (الحجاز) تتبع (ابن صباح)[٣] أمير الكويت، وعشينا تلك الليلة وهي ليلة الثلاثاء ٢٩ ذي القعدة هنالك

---

(١) صُفَيْنة: تصغير صفنة، أرض زراعية آهلة بالسكان في ديار مُطير، وهي جوفة في صفن حَرَّة بني عبد الله من الشرق، تصب فيها أودية عديدة، وفيها نخيل وقرى متناثرة... .
ظ: (م. ن. ٥: ٩٩٨).

(٢) مطير: هي قبيلة عربية كبيرة من قبائل شبه الجزيرة العربية، استوطنتْ في نجد والحجاز وتنقسم القبيلة إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي بني عبد الله، وعلوي، وبرية تمتد منازلهم من حدود هضبة الصمان في شمال شرق شبه الجزيرة العربية مروراً بعالية نجد وحَتّى أطراف الحجاز قرب المدينة المنورة وما جاورها.
ظ: (الموسوعة الحرة ويكيبيديا).

(٣) مبارك بن صباح بن جابر بن عبد الله ابن صباح، من عنزة: (١٢٥٤ – ١٣٣٤هـ = ١٨٣٨ – ١٩١٥م). أمير الكويت وسابع من وليها من آل الصباح، من الشجعان الدهاة، له شأن في تاريخ العرب الحديث، وتقدمتْ الكويت في أيامه.
ظ: (الاعلام ٥: ٢٧٠).

في السبختين

وبكرنا منها في الرحيل بعد تزود الماء منها لما بعدها، وسرنا حَتّى أتينا إلى أرض واسعة ووادي فسيح كلّه أرض سباخ يعلوها من الشورة والملح الأبيض الرقيق قدر أصبعين، فسرنا فيها على مثل هذه الحال قدر أربع ساعات بل وأكثر، ووقعنا بعدها في أرض طيبة قدر ساعة أو أكثر، ثم وقعنا في مثل السابقة ولكن أقل منها مسافة، ومن - فضل الله تعالى - أنَّ هذه الأرض لم يكن قد مسّها المطر أو الطل من كثب؛ وإلاّ لكانت مزلقة للإبل لا تستطيع أن تسلكها دون عطبٍ كثير، وخطر عظيم، ولأوجب التجافي عنها بما يستلزم زيادة منزل على المعتاد، وعلى يبسها وجفافها كانت الإبل تسير فيها وئيداً خوف الزلق وتُسمّى هذه الأرض بـ(السبختين)[1] وفي منتهاها عشينا هنالك على غير ماء سوى ما حملناه معنا من المنزل السابق.

حاثة - الفُرَيع

وسرنا منها صباح السلخ[2] يوم الأربعاء، حَتّى أتينا بعد المرور على حرَّات وعقبات وقد جفَّت القرب والأزواد إلى شُعب فيه آبار كالآبار السابقة، وفيه قلعة مهدومة على أطراف الجبال، ووراء الجبل بعض البيوت، وتُسمّى هذه المواضع

---

(١) السَّبَخَة: موضع بالمدينة بين موضع الخندق وبين سَلع الجبل المتصل بالمدينة، وبالسبخة جالتْ بعض خيل المشركين، وقد اقتحمتْ من مكان ضيق في الخندق، منهم عمرو بن ود العامري فقتله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بالسبخة. وهي حي حديث جميل من أحياء المدينة.
ظ: (معجم معالم الحجاز ٤: ٧٨٤).

(٢) السلخ: هو آخر يوم من الشهر.

(حائه)[١] و(الفُرَيع)[٢] بالتصغير، والأراضي إلى عدّة منازل لاحقة لعشيرة كبيرة أيضاً من أعراب الحجاز تُسمّى (عُتيبة)[٣] بالتصغير، وكلّ هذه القبائل كـ(حرب) الّذين لهم في هذا الطريق من المدينة إلى (الحجرية) لا يتجاوزهم قوافل الحاج سواء كان تحت راية الحكومة أو تحت راية أحد أمراء نجد كـ(ابن الرشيد) وغيره إلا بخاوة أو رفق ودفع أموال طائلة، واستصحاب خفير ومبدرقة منهم كعامَّةِ (الطريق السلطاني) الّذي هو أتعس وأشدّ، وهو كلّه خاصّةً لـ(عشائر حرب) ويأخذون فيه الخاوات الباهضة حَتّى من الحكومة أنفسهم لو مرّوا عليه، ومع ذلك كلّه لا يسلم الحاج من بغيهم لا في هذا ولا ذاك، وانَّ الشَّرَّ في الّذي نحن فيه أهون من ذلك الطريق.

وبالجملة فالبلاء عظيم، والمحنة شديدة، والأمنية معدومة؛ وحقّاً لو أنَّ الكفارَ ملَكوا هذه الطرق لما عاملوا المسلمين بأشدٍّ من هذه المعاملة.

والله هو الحفيظ والكافي.

ثم عشيّنا في (حائه) ليلة الخميس غرَّة ذي الحجّة الحرام وسرنا منها صباحاً بعد ثورة المدفع على العادة نزولاً ورحيلاً، وكان مسيرنا من أوّل منزل وهو (جبل أُحد)

---

(١) لم أعثر على تعريفها.

(٢) الفُرَيع: مكان من ديار الروقة زراعي خصب التربة غزير المياه، يقع بين قاع النّجيل وحرَّة الرّوقة في تجويف من الحرَّة، متصل بالقاع من الشرق. ملاكه الرُّوقة من عتيبة... .
ظ: (معجم معالم الحجاز ٧: ١٣٢١).

(٣) قبيلة عتيبة: هي قبيلة عربية قيسية مضرية عدنانية، وهي من قبائل شبه الجزيرة العربية تستوطن نجد والحجاز .ويرجع نسبها إلى هوازن.
ظ: (الموسوعة الحرة ويكيبيديا).

إلى هذا المنزل كلّه إلى جهة المشرق، ومن (حاثه) انحرفنا إلى جهة الجنوب.

وادي العقيق

وبعد تجاوز (حاثة) بسويعات من النهار استدبرنا الحرات والعقبات، واسترحنا منها وصرنا في بسيط من الأرض، ووادٍ لا أمَتَ فيه ولا عوج، ولكنَّه مشحون بشجر الغيلان العالي ذي الشوك والقتاد المستطيل الّذي يخرق ما مرّ به من الثياب وملابس القائدين والرجّالة، واستار المحامل، فسرنا على ذلك إلى وقت الطِّفَل[١]، ونزلنا في برحة من ذلك الوادي الفسيح الرحب، وقال المترددون وأهل الخبرة: إنَّ هذا أوّل (وادي العقيق)[٢] وهو (المَسْلَخ)[٣]، وانَّ إلى يسارنا قريباً (البركة)[٤] وعلامات الحدود، وحصل لنا من الفحص والاستعلام نوع شك وترديد في كونه هو أوّل، وشهد بعض من على كلامهم أمارات الصدق أنَّ

---

(١) الطِّفْل: الشمس عند غروبها.

(٢) العقيق: أودية العقيق في الحجاز سبعة: عقيق المدينة وهو الأشهر، والاكثر في كتب التاريخ، يأخذ أعلى مساقط مياهه من قرب وادي الفرع، ثم ينحدر شمالاً بين الحرار شرقاً، وسلسلة جبال قدس غرباً حيث ترفده أودية عظيمة... .
أنظر العقيق في (معجم معالم الحجاز ٦: ١١٧٣ - ١١٨٥).

(٣) المَسْلَح: قرية في وادي عقيق عُشيرة في أسفله، شمال بركة زُبيدة بحوالي (٦٠) كـ فيها مقاه وبيع محروقات على الطريق بين الطائف ومهد الذهب، أهلها من عتيبة.
ظ: (م. ن. ٨: ١٥٩٤ - ١٥٩٥).

(٤) البركة: اسم يطلق اليوم على آثار زبيدة بنت جعفر بن المنصور، أم محمَّد الأمين، ولزبيدة برك كثيرة تعرف اليوم باسم برك زبيدة... .
ظ: (م. ن. ١: ١٩٥ - ١٩٧).

الحاجَ طول السنين حَتّى من اتفق من أكابر العلماء كحجّة الإسلام الشيرازي[(١)] والشيخ محمَّد طه نجف[(٢)] وغيرهم من الأعلام لم يُحرموا من هذا الموضع الّذي يقابل (المسلخ)، وإنَّما أحرموا من أمامه مما يلي نصف الوادي وهو (غَمره)[(٣)]؛ ولذلك توقفنا عن الإحرام ليلتنا تلك، ولكنّا تهيأنا له فاغتسلنا وأحضرنا الثياب وقلعنا سقوف المحامل، وارتحلنا منه على العادة بين الطلوعين والبرد كالح[(٤)] والريح بالقّر[(٥)] عاصف، فسرنا قدر ثلاث ساعات من النهار، فنزلنا في أثناء الطريق، وصلّينا وعقدنا الإحرام وثيابه في بطنان (الوادي)[(٦)] في برحة منه بين شجر الغيلان، وارتفعتْ الأصوات بالتلبية، وبدتْ الناس في صورة مشجية، وهيئة مبكية، الرؤوس مكشّفة، والمحامل لا مغطاة ولا مسقّفة، والناس قد أعروا أبدانهم ولبسوا أكفانهم وبرزوا إلى الله جميعاً كهيئتهم يوم العرض عليه في

---

(١) هو السيّد الميرزا محمّد حسن بن محمود الحسيني النجفي المعروف بـ(المجدد) (ت ١٣١٢هـ).
أعظم علماء عصره، وأشهرهم وأعلى مراجع الإماميّة في سائر الأقطار الإسلاميّة في وقته.
ظ: (النقباء ١٣: ٤٣٦-٤٤١).

(٢) هو الشيخ محمّد طه ابن الشيخ مهدي النجفي. (ولد سنة ١٢٤١هـ - وتوفي سنة ١٣٢٣هـ).
مرجع كبير من مشاهير علماء عصره.
ظ: (ن. م. ١٥: ٩٦١-٩٦٧).

(٣) أنظر (غمرة) في (معجم معالم الحجاز ٦: ١٢٦٦ – ١٢٦٨).

(٤) كالح: شديد.

(٥) القرد: البرد.

(٦) الوادي: إذا اطلق اسم الوادي في المدينة فهو يعني العقيق، وإذا أطلق في مكّة يعني مر الظهران، ويُسمّى وادي فاطمة، ووادي الشريف.
ظ: (معجم معالم الحجاز ٩: ١٧٨٢).

المحشر، و(الوادي) كلّه قطعة بياض واحد رجالاً[١]، وركباناً، وجماعات، ووحداناً.

أمّا (وادي العقيق) فهو فسيح واسع جداً؛ وحقّاً أنّه لأوسع من الدهناء[٢]، وأبسط من سطح الماء، لا تجد في أرضه الحَرَّة صخوراً ولا حَرّة، ولا تلاً ولا جبلاً، بل لا تجد في قاعته إلاّ الطين الحُرّ أو الحصيات الملوّنة من السّود والحُمر، وفيه كثير من الأشجار البرية: كالضّال[٣]، والأثل[٤]، والعُشر[٥]، وأكثر شجره الغيلان الّذي هو أشدّ الشجر شوكاً لم يدعْ لماشٍ ثوباً إلاّ مزّقه، ولا لراكب ستار محمل إلاّ خرّقه، وأكثر نباته الْإِذْخِر[٦] الطيّب الرائحة المشتمل على جملة من الخواص، ثم سرنا حَتّى أتينا قُبيل المغيب إلى برحة من الوادي كان إلى جنبها غدير ماء من مياه السماء، وكان ذلك عناية من الله على يأس، ولو لم نعثرْ عليه لأضرّ بنا العطش، وكظّنا الظمأ، فقد تروّينا من (حاثه) قبل منزلين ولم يبقَ معنا هلّة[٧] من الماء ولا بَلّةً[٨]، فعشّينا ليلة السبت هنالك وسرنا مع بزوغ الشّمس وصرنا في (بغاز) من الأرض ومضيق من الجبال، ووجدنا في أثنائه ثلاث نخلات عاليات قد نبتت من أنفسها وقد جلّلها السعف والكرب من أعلى

---

(١) أي راجلين.

(٢) الدهناء : الفلاة.

(٣) الضّأل أو الضّال: هو السّدر البري وهو من الفصيلة النبقية، شجرة شائكة كثيرة التفرع.

(٤) الأثل: شجر يشبه الطرفاء، إلا أنه أعظم منها و أجود منها عوداً، تصنع منه الأقداح الصفر الجياد.

(٥) العشر: فيه حراق مثل القطن لم يقتدح الناس في اجود منه.

(٦) الْإِذْخر: نبات مَعرُوف ذكى الريح وإذا جَفَّ ابْيَضّ.

(٧) الهلّة: قطرة المطر.

(٨) البِلّة: أدنى بَللٍ من الخير: أي لم يبق معنا شيء.

إلى أسفلها، لم تجدْ مَنْ يريحها منه لِتَمَنّعِها بوحشية مَنْ يوجد هناك لو اتفق.

ذات عرق - ضَّربية

وبعد مسير ثلاث ساعات من النهار انتهينا إلى آخر ذلك (البغاز) وهو آخر (وادي العقيق) المعروف بـ(ذات عرق)[(١)]، ويُسمّى اليوم (ضَّريبة)[(٢)]: وهو شِعب أرضه من رمل متلبّد من الحصى الصغار المتلوّن، فنزل الحاج كلّه وجعلوا يحتفرون فيه قدر ثلاثة أشبار أو أربعة، فيخرج الماء الزلال العذب في الجملة، وصاروا يملأون منه المزاود والقرب، وكل ما معهم من الأواني والظروف، والحفيرة كلّما أخذوا منها نبع منها بقدره أو أزيد، والشِعب كلّه على طوله على هذه الصفة. ونزل المحمل وموكبه فأحرموا كلّهم من هذا الموضع وهو الميقات عند غيرنا.

وادي الليمون

ثم سرنا ضحوة يوم السبت من (ضريبة) حَتّى نزلنا عصراً دون (وادي الليمون)[(٣)] للاكتفاء بما معنا من الماء، ثم سرنا صبحاً حَتّى أتينا الظهر إلى (وادي الليمون): وهو وادٍ أنيق فيه بساتين زاهرة ذات نخيل باسق، وأشجار يانعة، وتربة

---

(١) ذات عرق: الجبل المطل على موضع الإحرام.
ظ: (معجم معالم الحجاز ٥: ١٠٣٥).

(٢) الضَّربية: وادٍ حجازي يدفع سيله في (ذات عرق)، وموضع ميقات أهل العراق والقصيم (ذات عرق) في الضرِيبة؛ حيث يقطعها درب المُنَقَّى، فيها مياه وفيرة، ولها روافد متعددة منها: أنجل، والرصن، والصِّبير، والمحفار، ونجار، وأمعاء. وفي الأصل كانت الضريبة قسم من (ذات عرق)، أما اليوم فهي محل الإحرام؛ لكون الماء في وادي الضريبة تفرد الوادي بالأسم ... .
(م. ن. ٥: ١٠٣٥ - ١٠٣٦).

(٣) أنظر: (مرآة الحرمين ١: ٣٧١ - ٣٧٢).

طيبة مرتفعة على حافتي مسيل[١] عريض كأعرض ما يكون من مواضع (شطّ الفرات)، وهو منخفض جداً عن موضع البساتين وفيه تجري السيول المتراكمة حتّى يكون كالشطوط الكبيرة، وقد يبقى فيه يجري أشهراً ثم يجف، وعلى حافاته أرض من الطين الحُرّ الحَرِيّ[٢] بالغرس والزرع كأراضي مزرع العراق، ويتصل بتلك الأرض الجبال السوداء الشاهقة من جانبي المسيل، وتستقي تلك البساتين الأنيقة والمزارع المريعة من قناة تجري في شَلَخ الجبل على الصخور السود منه، ويجري هناك في نهر مكشوف قد سُرّح تسريحاً حتّى صار يندفع بانحدار وقوة، وهو أعذب ماء وأصفاه في كلّ هذا الطريق، ثم تُجرُّ منه سواقي وأنهار إلى البساتين والمزارع، وتجري منه شعبة إلى بركة رشيقة مبنية بالصخور والكلس من الساروج[٣] يستقي منها الحاج والقوافل، ويزدحمون على الغُسل والغَسل حتّى يتكدر صفاء ذلك الماء ويكاد أن يخرج عن حقيقته من أقذارهم وأوساخهم، وتلك الرساتيق[٤] والأملاك كلّها لأشراف مَكَّة وأعظمها لسيد الجميع[٥]، وله نائب عنه هو الحاكم فيها، وحولها بيوت وعمارات كثيرة كقُرى وجماعات مُتفرِّقة أكثرها على قُنن الجبال؛ خوفاً من السيل، وحرصاً على زراعة السهل.

وكنتُ في حاجة إلى الاغتسال من مسّ الخبيث فمضيتُ إلى النهر، واغتسلتُ

---

(١) مسيل: ماء ظاهر من الأرض.

(٢) الجدير.

(٣) الساروج: مادة للبناء.

(٤) الرساتيق: جمع رستاق، وهو السواد.

(٥) سيد الجميع هو: الشريف حسين بن علي، ولي في ٦/ شوال/ سنة ١٣٢٦هـ. ثم أعلن نفسه ملكاً على الحجاز ثم خليفة.

فيه بثياب الإحرام ثم صلّينا الظهر والعصر في بطحاء المسيل، وركبنا ساعتين أو ثلاث، ثم نزلنا دون (برود)(١) وعشِيّنا ليلتنا هناك وسرنا صباح يوم الاثنين ٥ ذي الحجة الحرام فمررنا بـ(بئر برود)(٢) ضحوة النهار وهي بئر واسعة عليها شجرة كبيرة لم يسعنا النزول للنظر إليها واكتشاف بعض شؤونها.

في مكّة

ثم تجاوزناها قدر ساعتين فأتينا إلى أوّل الحرم وهو عن (مكّة) ثلاثة فراسخ تقريباً، وهو مُعلّم ببنيان حائطين مستطيلين كالرواق من الجّص والصخور في وسط تلك الفلاة الهيماء، فنزلنا من محاملنا وأدّينا المسنون من الدخول فيه حافياً داعياً حاملاً نعليه في يديه، وهذا هو اليوم الرابع من إحرامنا، وقد قاسينا شدائد الحرّ والبرد، وكُنّا منه في اختلاف الجديدين على حالين متناقضين أشدّ التناقض، فالنهار بِحَرّ شمسه يشوي وجوهنا، والليل ببرد قَرّه يضوي(٣) جسومنا، وكان الموظّفون للخيام يجمعونها نصف الليل فيتركون رؤوسنا المكشوفة للسماء وأبداننا العارية للهواء فترانا نهتزُّ وننتفضُ:

كما انتفض العصفور بلّله القطر(٤)

---

(١) أنظر: (برود) في معجم معالم الحجاز ١: ١٩٨.

(٢) بئر برود: بئر كانت في الزاهر من مكة.
ظ: (معجم معالم الحجاز ١: ١٩٨).

(٣) يضوي جسومنا: يوهن قوتنا.

(٤) عجز بيت البيت لأبي صخر الهذلي، وصدره:
وإني لتعروني لذكراك فترة
ظ: (خزانة الأدب ٣: ٢٣٦).

أو

كما اهتزّ تحت البارح الغصن الرطب[١]

فإذا طلعت الشَّمس فقل: جمرة غضى[٢] على صفحات وجوهنا من غير مبالغة ولا تمثيل، ولا زالتْ تستدير تجاه وجوهنا من طلوعها إلى الغروب كأنما نحن هي وهي لنا حرباء[٣] لا نجد من لذعها مفراً ولا محيصاً، ولقد بقي أثر موضعها في قرني رأسي كما يبقى من أثر الجمرة على الجلد الرقيق، حتّى بعد الحل من الإحرام عشرة أيام، هذا ونحن يومئذ في صبّارة[٤] الشتاء أوّل كانون، ولقد كان يهوّن عليّ ما بي تذكري حال من يحجّ في حمّارة القيظ[٥]؛ وأعجب لحياة واحد منهم غاية العجب فضلاً عن حيّاة الأكثرين، وكنتُ أعدّ سلامتنا مع مفاجأة تلك الأحوال الهائلة المتناقضة المضادة لما تعوّد عليه هذا الجسم الضعيف طول العمر ليس هو إلاّ بتصرف إلهي ونفوذ روحي، وعند هذا المقام ينتهي الكلام، فقد كنتُ وكل مسلم حسب الديانة اعتقدَ ديناً وأعقدَ القلب يقيناً على أنّ الصحَّة والسقم، والحياة والموت، والرزق والحرمان، كلّها بمشيئة الله وإرادته وسابق علمه وقضائه من غير عزل لوساطة الأسباب ومجاري المسببات، ولكن رأيتُ

---

(١) عجز بيت للأقرع بن معاذ القشيري يشكر برّ ابنه، وصدره:

وتأخذه عند المكارم هزّةٌ

ظ: (التذكرة الحمدونية، ٤: ٩٣).

(٢) الغضى: شجر ويستعمل وقوداً.

(٣) الحرباء (معرّبة): دويبّة تتلون ألوانا بحرّ الشمس.

(٤) صبّارة الشتاء: شدّته وقوته.

(٥) حمّارة القيظ: شدّة الحر وقوته.

هذه الطوية والركيزة في سفري هذا شهوداً وأبصرتُها عياناً؛ فإنّنا ونحن الألوف من أشتات العناصر ومتفرقات الشعوب كُنّا نمرّ على أسباب الهلكة ومقتضيات المنيّة التي لو قطعنا النظر عن تلك المشيئة القاهرة أمّ الأسباب الأول والمعلولات والعلل؛ لكان الهلاك بها لزاماً؛ ولكن لعدم تعلّق تلك المشيئة نمرّ على تلك الأسباب القاضية فنجدها برداً وسلاماً.

وربّما نجد الأقل منها ناجزاً[1] في تأثيره، نافذاً إلى غايته ومصيره، فيُعلم من هذه الإثارة ويشاهد بتلك المطالعة السيّارة إنّ شيئاً هنا وراء الأسباب هو روحها، وبه نفوذها، وعليه يدور محورها. نعم ولا ينْخَدعَنَّ الأغرارُ[2] بهذه الومضة من ناصع الحقيقة فينفض يده من التعلّق بالأسباب بتّة، ويتّكل على قضية القضاء والقدر جملة، ويتكّئ على لوح المحو والإثبات، تاركاً للتثبت والتدبر والحزم والتحفظ بل النمرقة الوسطى والسبيل الجدد الّذي من سَلكه أمِنَ العِثار، أن يمدّ المرءُ عينيه إلى كلٍ من مثل قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [النساء: من آية ٧٨] مع مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: آية ٣٩]، «...اعملوا فكلٌّ ميسّرٌ لما خلق له...»[3].

---

(١) الناجز: الحاضر.

(٢) الأغرار: جمع (الغرّ) وهو غير المجرّب (الساذج التفكير).

(٣) عن الإمام علي عليه السلام قال: كان النبي (صلى الله عليه واله وسلم) في جنازة، فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض، فقال: ما منكم من أحد الا وقد كُتِبَ مقعده من النار، ومقعده من الجنة، قالوا يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، اما من كان من أهل السعادة فيسر لعمل أهل السعادة، واما من كان من أهل الشقاء فيسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ الآية.
ظ: (صحيح البخاري ٦: ٨٦).

والغرض أنّنا بعد خوض تلك الغمرات، وطيّ هاتيك الهنات والموهنات - بعناية الله ومساعدته وتوفيقاته - لأضعفِ ما ذرءَ وبرءَ من مخلوقاته، دخلنا (مكّة) المشرّفة يوم الأثنين ٥ ذي الحجة الحرام التاسعة من النهار، وبقينا قدر ساعات نتطلب المنزل المناسب وضعاً وقيمة؛ فإنّهم كانوا يَسومون الحجرة الواحدة بعشر أو تسع عثمانية على سبعة أو تسعة أيام، وبعد الجهد نزلنا في حجرة بمحلّة (الشِعْب) الّذي يعرف بـ(شعب عامر)[1] وهي بعيدة عن الحرم ولكن عادة العراقيين والإيرانيين النزول فيها، ولا أعرف ما الّذي حسّن لهم ذلك منها، وقبل النزول في المنزل تلقّانا وحيّانا بطلعته المباركة سيّدنا الشريف الأجل المولى السيد علي العلاّق[2] - أطال الله عمره، وأعلى قدره - وكان قد ورد إلى (مكّة) قبلنا بأربعة أيّام، وصار منزلنا قريباً من منزله، فأمر لنا تلك الليلة بوليمة على عادته من المكارم الدُثر والأيادي الغرّ، واستوفينا مع الرفقة العشاء عند محلّه وحملوا

(١) شعب عامر: شعب بمكة عليه حيّ من أشهر أحيائها يجاور (شعب علي) من الشمال يصب من الخندمة في الغزّة. والصواب (شعب ابن عامر)، وقيل: بل (شعب بني عامر)؛ وذلك انه كان منازل لبني عامر بن لؤي القريشيين.
ظ: (معجم معالم الحجاز ٥: ٩١٧ - ٩١٨).

(٢) هو السيد علي ابن السيد ياسين ابن السيد مطر الحسني العلاق النجفي. (ولد سنة ١٢٩٣هـ - وتوفي سنة ١٣٤٤هـ). عالم أديب وشاعر بارع.
ظ: (النقباء ١٦: ١٥٥٧-١٥٥٨).

وقال محبوبة في (ماضي النَّجف وحاضرها) ٥: ٢٣٦ - ٢٥١: (من أشراف السادة، وأعيان أهل الفضل والمجد، له مكانة سامية، ومحلّ رفيع في نفوس أهل العلم والأدباء من النجفيين، رأيتُه وحضرتُ ناديه، كان كاملاً اديباً شاعراً ناثراً، تعلوه الهيبة، ويجلّله الوقار، ويقطر ترفاً، وينطق ظرفاً، خفيف الطَّبع، حسن الكلام، حلو المفاكهة، محبوب المَعاشرة، اختلط بكثير من الأدباء والعلماء في النّجف...).

إلى العائلة كفايتهم.

وبعد الخامسة من الليل خرجنا لأداء الواجب من الطواف حول البيت، والسعي بين (الصفا)[١] و(المروة)[٢]، وبعد ان منّ الله علينا بفضله في أدائها تحللنا بالتقصير والخروج من محرّمات الإحرام ونزع ثيابه، وعدنا إلى منازلنا أخريات الليل، وأقمنا بمكّة إلى اليوم الثامن (يوم التروية)، ثم خرجنا إلى (مِنى)[٣] عصراً، وبينها من المسافة ما يقرب من ثلاثة أميال فأتيناها قبيل الغروب والناس تفيض إليها من (مكّة) فيض السيول من تلك الجبال الشواهق إلى تلك الغيطان[٤] والأودية، والازدحام شديد، والخطر من التدافع والتصادم عتيد، ولمّا أتينا (مِنى) وجدناها بلدة عامرة ذات عمارات أنيقة، وأزقة متسعة مستطيلة، وموقعها شرقي (مكّة) وهي شعب من شعاب تلك الجبال التي لا يحصيها العدّ ولا يعدّها الإحصاء، ونزلنا في ميسرة الجبل إلى جنب (مسجد الخَيف)[٥] وبتنا ليلة

---

(١) الصفا: جمع صفاة: أكمة صخرية بمكّة هي بداية المسعى من الجنوب، كان الصفا متصلا بـ(أبي قبيس)، فشق بينهما مجرى للسيل في عهد الدولة السعودية عند توسعة الحرم الجديد... .
ظ: (معجم معالم الحجاز ٨: ٩٨٧ - ٩٨٨).

(٢) المروة: جبل بمكة يعطف على الصفا.
ظ: (م. ن. ٨: ١٥٦٤ – ١٥٦٦).

(٣) مِنى: أحد مشاعر الحج وأقربها إلى مكة.
(م. ن. ٨: ١٦٧٠ – ١٦٧٢).

(٤) الغيطان: الأرض الواسعة.

(٥) الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمّي (مسجد الخيف) من (منى)...
خيف منى: معروف اليوم بـ(مسجد الخيف) في سفح جبل (منى) الجنوبي من الشمال.
ظ: (معجم البلدان،٢: ٤١٢، معجم معالم الحجاز ٣: ٥٩٠ – ٥٩٢).

(عَرَفَة)[1] هنالك وسرنا أوّل طلوع الشَّمس منحدرين إلى عرفات، فبلغناه ضحوة ذلك اليوم وكانت خيامنا مضروبة أمامنا فنزلناها وهي إلى مَيْسَرَةِ (جبل عرفات): وهو جبل صغير إلى جنب جبال شاهقة تحيط به مستديرة بوادٍ فسيح متسع وسهول من الأرض بسيطة، وعلى قُنة الجبل الصغير صخرة بيضاء منصوبة كالميل تُرى من بعيد، وفي وسط ذلك الوادي جداران مستطيلان لتعيين حدود (عرفة) بدايةً، والنهاية خلف الجبل.

أما منزل جماعاتنا فهو في السفح ممّا يلي (مكَّة)، وأمّا غيرنا فينزلون الجبل نفسه ويتزاحمون عليه، والبَقيَّة منهم تنزل السفح من جانبه الشرقي، وهم في تلك العشية فوق الجبل يتراكضون عليه ويتلاعبون بخرقٍ في أيديهم يرمون بها في الهواء، ولم أعرفْ وجه ذلك.

وعلى أيّ فقد أقمنا بقيّة هذا اليوم في (وادي عرفات) مشغولين بالذكر والدّعوات المقدّسات إلى وقت الطَفَل بعد العاشرة من النهار، وعندها نهض القائمون بالوظائف لتقويض الخيام والتهيّؤ للرحيل، فركبنا قبيل الغروب وبقينا على ظهور مطايانا في محاملنا نتهاون في السير ونتماهل حتّى سقطتْ الشَّمس في مغيبها، وعندها اجتمعتْ القوافل واندفعتْ الرواحل، وأفضنا من (عرفات) وخرجنا من حدودها المعلّمة المعلومة قاصدين إلى (المَشْعَر الحَرَام) فأخذوا يجدّون في السير الحثيث ويتصادمون أشدّ التصادم، وعندما جلّل الظلام وجه

---

(١) عرفة: هي المشعر الأقصى من مشاعر الحج، على طريق مكّة والطائف على ثلاثة وعشرين (كم) شرقاً من مكّة، وهي فضاء واسع تحف به الجبال من الشرق والجنوب والشمال الشرقي.
ظ: (م. ن. ٦: ١١٣٤ – ١١٣٦).

الأفق أُشعلتْ السُرج وأُسرجتْ المشاعل حتّى صار الوادي كلّه شعلة واحدة، وبعد الثالثة من ليلة النحر نزلنا في مَيْسَرَةِ (المَشْعَر الحرام) ونزلوا في ميمنته، و(المَشْعَر): موضع لا أثر فيه ولا رسم، ولكنَّه مكان من ذلك البغاز المستطيل مبتدأ من قرب (مكَّة) إلى أن ينتهي إلى (وادي عرفات)، وتتابعت عند النزول أصوات المدافع الهائلة من أمراء المحامل، والعساكر الشامية، والمصرية، والحجازيّة، وتأجّجت الشُعلات ومراسم الزينة، وكان نزولنا تحت خيمة السماء من غير أن نضرب شيئاً من خيامنا، وبعد أداء المكتوبتين والاشتغال بما يسّر الله لنا من الذكر والدعاء، قمنا إلى التقاط الجمرات فكل ذهب إلى مذهب، فبعض أبعد، وبعض استقرب، وكان إلتقاطي من موضع منزلي من دون التجاوز سوى خطوات يسيرة؛ فإنَّ الحصى هناك دفين في التراب. وكان المجتمع في كثرة رائعة يبتهر منها العقل، حتّى لقد نظرتُ إلى الوادي وكلّه دائرة من السرج والمشاعل، كأنَّه خطٌ واحد مستدير من النور، يبلغ قطره أكثر من الفرسخ، كما أنَّنا عند الإفاضة من (عرفات) كُنَّا في وسط الرواحل، فلمّا علونا إلى المَشْعَر نظرتُ إلى الوادي وهو فرسخ في فرسخ تقريباً، والجبال محيطة به مستديرة عليه فإذا هو مملوءٌ بالنفوس لا يُرى من أرضه موضع قدم، هذا من المتخلفين ورَاءنَا فضلاً عمّن تقدّمنا أو كان معنا، والتخمين والحدس كان يقدّرهم بالمليون ولا أظن أنَّ موضعنا من الأرض يجتمع فيه هذا القدر من النفوس في صعيد واحد، هذا وهم يقولون: إنَّ الحُجَّاجَ هذه السنة أقل من سائر السنين السابقة؛ لأنَّ ثلث الحاج هو الحاج المصري، ولم يتوفق منهم هذه السنة إلاّ نفر قليل مع المحمل المصري. وأكثر مَنْ شاهدناه في ذلك المجتمع وفي (مكَّة) هم البجاوة، وبعدهم

الأعراب من سودان أفريقيا المعروفون بالتكارنة[١]، ثم أهل اليمن، وبعدهم الإيرانيون، والبخاريون، وهم عدد كثير أكثر من سائر السنين، أما العراقيون والشاميون فهم مندكون مضمحلون في جنب مَنْ سواهم من الأمم. وعلى أيٍّ فقد بتنا تلك الليلة في المَشْعَر، وأفضنا منه قبل طلوع الشَّمس من يوم النحر، حتّى أتينا الضحى إلى (مِنى) وقد ضُربتْ خيامنا قبل ورودنا.

وريثما استقر بنا المنزل مضينا بأشدِّ الجهد والمضايقة إلى (جمرة العقبة)[٢]؛ فرجمنا شيطانها المرموز به إلى دحر القوة الغضبية؛ ولكن بعد أن ذبحنا الهدي المشار به إلى ذبح النفس الشهوية البهيمية، وقمعنا بالاحرام نزقات النفس الأمّارة حين تجرّدتْ الأبشار[٣] عن ملابسها العادية وعلائقها الدنيوية، وبعد الرجم عدنا إلى مضاربنا للإحلال بالحلق تنبيهاً على أقصى المراتب في السير والوصول، والتهيؤ للدخول والطواف في حرم حريم الكبرياء والعظمة، والسعي في رواق الجلال والعزّة، وهو تصفية رأس الإنسانية وأقصى مراتبها، ولا أعني بها سوى

---

(١) التكارنة: هي لفظة تطلق على المواطنين السعوديين من أصحاب البشرة السوداء الذين ينتمون الى عدّة قبائل و أعراق أفريقية مسلمة مثل الهوسا، والفلاتة، البرنو، والتي تعيش في المملكة العربية السعودية وهم يشكلون وحدة عرقية في المجتمع السعودي.
ظ: (الموسوعة الحرة، ويكيبيديا).

(٢) الجمرَةُ: الحصاة، وجمرة العقبة: موضع رمي الجمار بمنى، وسميتْ بذلك؛ لأنه يرمى بها يوم النحر، قال الداودي: و(جمرة العقبة) في آخر (منى) مما يلي مكّة، و ليست العقبة التي نسبت إليها الجمرة من منى، و الجمرة الأولى و الوسطى هما جميعا فوق مسجد الخيف مما يلي مكّة.
ظ: (معجم البلدان ٢: ١٦٢).(معجم معالم الحجاز ٢: ٣٧٥).

(٣) البشر: ظاهر جلد الانسان. يثنى ويجمع ابشار.
ظ: (ترتيب القاموس المحيط ١: ٢٢٤).

القُوَّة العاقلة التي هي اللائقة بذلك المقام المنيع والأوج الرفيع، من الطواف بحريم المليك والاعتراف له بالوحدانية ونفي الشريك، ولا تحصل تلك التصفية للقُوَّة العقلانية إلا بقلع المشاعر والشعور عن كل الأغيار، وقلع النظر إلى الآثار بمشاهدة المؤثر والاستهتار[١] بمعاينة جماله وجلاله؛ لَيسعَى ويطوف حوله طواف العاشق على الأنوار، أو الفراش على النار، وبعد أداء مناسك (مِنى) من الذبح، والرمي، والحلق، أحلّ بعض الحاج بلبس المخيط، وبقي آخرون على هيئة إحرامهم، وكنتُ ممّن بقي نظراً إلى ما يستفاد من كراهة لبس المخيط قبل الطواف والسعي، واستحباب البقاء على حالة المحرم، حتّى يتمّ العمل بطواف الزيارة والسعي وطواف النساء كما في قول صادق أهل البيتعليهم السلام لمن قال له: رأيتُ فلاناً بعد نزوله من مِنى يطوف في ثيابه قالعليه السلام: بئس ما صنع[٢]. وما هو بمضمون ذلك، ولم يكنْ ليتيسّر لنا النزول في ذلك اليوم وهو يوم الأضحى إلى (مكَّة) لأداء تلك الأعمال، فبقيتُ على إحرامي إلى الحادي عشر حسب الفتوى بجواز التأخير إليه، وبعد أدائها لبسنا ثيابنا وعدنا عصراً إلى (مِنى) للمبيت ليلة الثاني عشر فيها بـ(مِنى)، صنع الشامي، والمصري، والإيراني، والشريف، شعلات بديعة وأبرزوا تزيينات فاخرة، وصعادّات متعاليات متلونة، والموسيقى تُضرب أمام خيمة كل واحد منهم، وأقيمتْ مراسم العيد هناك تلك الليلة، حتّى برزتْ في أبدع شكل وأمتع صورة، وفي صباحها رمينا الجمرات الثلاث وعدنا إلى (مكَّة) أوّل الظهر من ذلك اليوم، وهو يوم الأثنين والمسافة بينها وبين (مكَّة)

---

(١) الاستهتار: – هنا – الولوع بالشئ والإفراط فيه، ومنه المستهتر بالسماع: أي المولع به.

(٢) انظر: الاستبصار ٢: ٢٨٩، ح (١٠٢٧).

فرسخ واحد، ولم نقطعه إلاّ بثلاث ساعات من شدّة الازدحام، وكان نزولنا مع المحمل المصري في أُبَّهَتِهِ الزاهرة، وعساكره من القاهرة، وزينته الزاهية الفاخرة، ثم جزناه وتقدّمنا والموسيقى والمزامير تُضرب أمامه، والعساكر والأمراء تسير جانبيه وقدّامه، وجَمَلُهُ في خِلَعِ جَمالِهِ، وأبَّهة زينته وإقباله، إلى أن أدخل (المسجد الحرام) تقود زمامه الشرفاء والأعلام؛ هذا وإنّي لم أعرفْ منشأ هذه العادة، وسرّ هذه السيرة ومبدأ تاريخها، وأوّل سانٍّ لها (والبحث كشّاف)، وعلى أيّ فالغرض أنّ المسافةَ إلى (مِنى) فرسخ، ومنها إلى (المَشْعَر) فرسخ، ومنه إلى (عرفات) فرسخان، وكلّها في بغاز واحد يضيق ويتسع حتّى ينتهي إلى (وادي عرفات)، وهذا الشعب واقع إلى جهة شرقي (مكّة) بين المشرق والجنوب.

وكان مضرب الخيام في (مِنى) خارج البلد، وعماراتها والذبائح أيضاً بمراقبة المأمورين والدقتورية [الأطباء] من الصحيّة تُذبح خارج الخيام بمسافة؛ محافظة على صحّة الهواء، ويمنعون الحاج من حمل اللحم إلى المنازل بل تذبح الذبائح التي لا عدّ لها هناك، ويأخذها السودان التكارنه وربّما يَسرقونها أو يوطدون أمرهم مع المأمورين فيعيدونها إلى السوق فتباع على الحُجَّاج أنفسهم.

والقصد أنّ هواء (مِنى) مع ذلك كلّه في غاية الوخامة والعفونة، حتّى كاد ليوشك أن يأخذ بالمخنق، وماءها هو ماء (مكّة) الجاري من فوق (عرفات) في قناة مبنية بالصخور، ولكن أعراب (مِنى) يضمنون الماء من الشريف أو غيره، فلا يستقي منه أحد في أيّام الموسم ويبيعونه بما يشاؤون، وكان مبلغ ما ندفعه بإزاء الماء على تقتير فيه أكثر من مجيدي في كلّ يوم. ولمّا رجعنا إلى (مكّة) وجدنا من رداءة هوائها، وكدورة مائها، وكثرة وفياتها، ما شوش الأفكار، وأضرّ

بالصحَّةِ أشدّ الإضرار؛ حتى كادتْ أرواحنا أن تُزهق من حبس الهواء، واختلافه، وحرارته أحياناً مع أنّ الفصلَ في أوائل كانون، وهو في البلدان المعتدلة كالعراق وغيره وقت صبّارة[١] الصَر[٢] وموضع نزول القر وأشدّ مواقع الشتاء، أمّا هنا فأكثر الليالي نرقد بلا غطاء على أنّا في أشدّ الاحتباس والضيق.

وبالجملة فهواؤها هواء البحر وسواحله لا يزال ندياً بنداوة لزجة بخاريّة مضرّة، مضافاً إلى ضيق مساكنها، واحتباسها، وسوء وضعها؛ حتّى أنّ الكنائفَ إلى جنب الحجرات، والروائح تهبّ وتختلف إلى الحجرة من عن يميني تارة وشمالي. نعم يوجد بيوتات أنيقة وحجرات واسعة رشيقة.

أما الجبال فهي مُطلّة عليها، حاصرة لها، مرتفعة عليها بحرّاتها السوداء، وصخورها الصمّاء، ولعل (أبا قبيس)[٣] أصغر أو اوسط جبالها ومع ذلك ما صعدناه إلا بأشدّ الجهد، والبلد كلّها أسفل منه؛ حتّى كأنّها في أعمق بئر، والناس تُرى في المسجد والمطاف كالدواجن في البيت لمن كان في أعلى سطوحه، وعلى قُنة (أبي قبيس) مساجد كثيرة منها: (مسجد أذان إبراهيم عليه السلام)[٤] في الناس

---

(١) صبارة: السحاب الابيض.

(٢) شدة البرد.

(٣) أبو قبيس: هو الجبل المشرف على الكعبة المشرفة من مطلع الشمس.
ظ: (معجم معالم الحجاز ٧: ١٣٥١).

(٤) مسجد إبراهيم: نسبة إلى إبراهيم القيسي، ويعرف المسجد بـ(مسجد بلال) ولا علاقة لبلال بن رباح رضي الله عنه بهذا المسجد. جدد عمارته رجل هندي عام ١٢٧٥هـ ١٨٥٨م، حيث بني بالحجر والآجر مع تجصيصه من الداخل والخارج، وتسقيفه بالخشب، أبعاده ١٥× ٦م، ويدخل إليه من باب في جداره الشرقي، وفي نهاية المسجد ترتفع مئذنة المسجد التي تأخذ من أسفلها شكلاً مضلعاً ثم دائرياً مغطى بقبة، كان المسجد قائماً على قمة جبل أبي قبيس، ←

بالحجّ، وعليه عمارة شاهقة، ومنارتان تشرفان على (المسجد الحرام)، ومسجد آخر، و(مسجد شق القمر)، وغيره. والبلد تستدير عليه على سعته وضخامته، ومَنْ ارتقاه ونظَرَ إلى البلد عرف سعتها، وأنّها من أمّهات البلدان، وأنّها (أمّ القرى)[١] والأمصار، ولا شك أنّها أوسع من (بغداد) بثلاثة أضعافها، هذا ما في الوهاد منها سوى ما على الجبال وما في أثنائها ومنحدراتها فإنَّها شيءٌ كثير، وأسواقها في غاية الكثرة والاستطالة وهي محيطة بالمسجد وزائدة عليه، وهي على نشرها الطبيعي من غير نسق ولا نظام إلاّ قليل منها، وبالجملة فالّذي أضرّ بهواء (مكة) وأوجب وباءته ورداءته جوهريًّا أمور منها:

قربها إلى البحر فإنَّ بينها وبينه يوماً واحداً.

ومنها: انخفاضها في الوهاد السحيقة، ومحاصرة الجبال الشاهقة لها؛ حتّى تركتها في أضيق من حِجر ضب.

ومنها: قلة مائها حتّى انَّك لا تجد في (مكَّة) داراً يكون فيها ماء دائم من ذاتها كبئر أو غيرها بل استعمالهم حتّى للمطهرة من ماء شربهم، فلا ماء إلاّ بالشراء ولا شراء إلاّ بأغلى الأثمان، ولا سيّما على الحاجّ، وكفاك أنَّ في هذه البلد التي عَرفتَ مالها من السعة والضخامة، وتهافتْ نفوس العالم من كل فجّ

←

ولكنّه أزيل قبل سنوات.

ظ: (الأثار الإسلامية في مكة المكرمة، د. ناصر الحارثي ١٩٦)، (المناسك وأماكن طرق الحج، ومعالم الجزيرة للحربي ٥١٠).

(١) أم القرى: من أسماء (مكَّة المكرمة)، وسمّيت بذلك لأنها أصلُ الأرض.

ظ: (معجم معالم الحجاز ٧: ١٣٦٥).

إليها، ليس فيها سوى حمّام أو حمّامين، وكان حقّها أن تشتمل على مائة حمّام وما ذلك إلاّ لضيق أمر الماء، وأما عرضياً فكثرة مَنْ فيها من المستقذرين كـ(الجاوة) وأضرابها مجاورين ومترددين؛ فإنَّهم أقذر الأمم عيشاً، وأشوههم وجوهاً، وأنتنهم ريحاً، قد كادوا أن لا ترى في (مكّة) سواهم، وأن يمتلكوا شؤونها لكثرة ما يبذلون فيها من الأموال الطائلة على سوء عيشهم، وبساطة شؤونهم وحاجياتهم، وقد رأينا بيوت (مِنى) وعماراتها على كثرتها مملوءة بهم بحيث ليس فيها احد من غيرهم، وكانوا السبب الوحيد في عفونة هوائها.

وحدّثني بعض أعيان التجّار القاطنين في (مكّة) من بغداد: إنَّ في رجب الموافق لتموز، ورد منهم إلى (مكّة) ستون ألف نسمة وكان أهل (مكّة) قد فرّ أكثرهم من الهاجرة[1] إلى (الطَّائِف)[2]؛ فكان هؤلاء يسبحون في البِرك ويضربهم السموم فيموت كل يوم منهم ستمائة، قد فني أكثرهم وفرّ الباقي إلى المدينة، وحدّثنا بعض أمراء (آل رشيد): - وقد زارنا في منزلنا - إنَّ في دفتر السَّيد الشريف من (الجاوة) خمسة وأربعين ألف، وباقي الحاج مائتان وأربعون ألف، فالمجموع قرب الثلاثمائة ألف وهم سدسه، وبعد نزولنا من (مِنى) وقعتْ الوفيات في الحاجِّ بأمراض - عافاك الله - مختلفة، ولقد غدوتُ يوماً من

(١) الهاجرة: وهي نصف النهار عند اشتداد الحر، أو من عند الزوال إلى العصر ؛ لأن الناس يسكنون في بيوتهم كأنهم قد تهاجروا من شدّة الحر.

(٢) الطَّائِفُ: مدينة في السفوح الشرقية لسراة الحجاز، شرق مكّة مع ميل يسير إلى الجنوب على (٩٩)كم يصلها بمكّة طريقان: أحدهما: يأخذ من مكّة فوادي نعمان فجبل كرا، والثاني: يخرج بين جراء وثبير غيناء فعلى حنين فنخلة اليمانية فالسيل الكبير فالسيل الصغير... .
ظ: (معجم معالم الحجاز ٥: ١٠٥٢ - ١٠٥٦).

(الأبطح)[١] من زيارة سادات بني هاشم كـ(عبد المطَّلب)، وأبي طالب (سلام الله عليه)، وسيّدات قريش كخديجة، وآمنة (سلام الله عليهما)، ورجعتُ في الشارع العام المبتدي من (الأبطح) وهو خارج البلد المنتهي إلى سوق (المَسعى)[٢] وهو من الشوارع العظيمة، وفي أثناء عبوري رأيتُ من تتابع الجنائز صورة مدهشة، ولكنَّها تمرّ بالناس والناس في غفلة عنها، تحملها الحمّالون حتّى عددتُ أكثر من مائة، وتركتُ هذا والناس يقولون: إنّها من أحسن السنوات - والحمد لله على منّه بالسلامة - ونسأله الإتمام بالكرامة.

في جوف الكعبة

ويوم الجمعة ١٦ ذي الحجة الحرام دخلنا متشرّفين إلى (جوف الكعبة) مع مَنْ معي من العيان؛ ولكن بعد تحمل هنات من متولّيها وهو شاب من بني شيبة[٣] يحسب أنَّ البيت إذا جلس في العتبة الشريفة بيته لا بيت الله، فينازع الله رداء كبريائه، فلا يكلّم أحداً إلاّ رمزاً، وبعد دفع الرسم على آقتراحه عن كلّ نفر، صعدنا قبل الظهر من يوم الجمعة فصلّينا إلى كل ركن ركعتين، ودعوتُ الله

---

(١) الأبطح: وادي مكّة المكرمة (وادي إبراهيم).
ظ: (م. ن. ١: ٣٥).

(٢) المسعى: مكان السعي في الحجّ والعمرة بين الصفا والمروة، وطوله ٤٠٠ مترا وعرضه ٢٠ متراً ويقع شرقي المسجد يطل بجانبه الغربي على المسجد، وبجانبه الشرقي على الطريق العام الدائر حول المسجد. ويتألف المَسعى حاليا من طابقين... .
ظ: (معجم ألفاظ الفقه الجعفري، د، أحمد فتح الله ٣٨٨ — ٣٨٩).

(٣) بنو شيبة: بطنٌ من بني عبد الدار بن قُصيّ بن كلاب بن مُرّة وقد كانت بيدهم سدانة البيت منذ الجاهلية ومازالت إلى عصرنا (القرن الخامس عشر الهجري).

سبحانه بدعاء من شرفت الكعبة به وبابآئه عليهم السلام في يوم الأضحى والجمعة وهو الّذي أوّله «إنَّ هذا يومٌ مباركٌ ميمونٌ والمسلمون فيه مجتمعون...»(١) الخ، وحُسْن قراءَته هناك عندي كافية من قوله عليه السلام: «... اللّهم إنَّ هذا المقام لخلفائك وأصفيائك ومواضع أمنائك في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها قد أبتزّوها منهم وأنت المقدّر لذلك...»(٢) الخ.

ورزقني الله سبحانه بركاتهم من الحالة ما يليق بذلك المحل، فذكرتُ مَنْ يعزّ عليّ من إخواني بآسمه، وكافة المؤمنين في موضع ولادة أمير المؤمنين عليه السلام قرب (المُسْتَجار)(٣) بين الاسطوانتين الحمراوين، وبعد الفراغ من الصلاة والدعاء لم يمهلنا مَنْ فيها من الجلاوزة لآستقصاء خصوصّيات ما فيها من الكتابات في جدرانها وغير ذلك من شؤونها. نعم هي حِجْرةٌ كبيرةٌ واسعةٌ مربعةٌ تزيدُ على عشرة أمتار في مثلها بأبعادها الأربعة، وترتفع عن أرض المسجد والمطاف بأكثر من قامة وهي من الأرض إلى قاعتها مكلّسة بالصخور، مفروشة أرضها بالصخور المرمرية الأنيقة الملّونة، وفيها عمودان في وسطها من الخشب المشبع بالحمرة إلى السواد ما هو(٤)، وجدرانها من خارج من الصخور المربعة السُود، ومن

---

(١) ظ: (الصحيفة السجادية، دعاؤه في عيد الأضحى والجمعة ص ٢٨٣ - ٢٨٤).

(٢) م. ن.

(٣) المُسْتَجار: مكان من المسجد الحرام في ظل الكعبة الصباحي، على يسار مستقبل الركن اليماني بينه وبين الباب المسدود، وهو من الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء كالركن، والملتزم، والمقام.
ظ: (معجم معالم الحجاز ٨: ١٥٨٢).

(٤) كذا ورد في الأصل.

داخلها من صخور المرمر الأنيق المنقوش بالنحت والتخريم الرشيق، وفيه كتابات كثيرة بالنحت أسماء الملوك والسلاطين الّذين تشرّفوا بلثم تلك السدّة المقدّسة، وسقفها من الخشب ولكنّه مغطّى بالديباج الأحمر، كما انّ ظاهرها كلّه إلى الأرض بالديباج الأسود المكتوب في أصل حوله (لا إله إلا الله محمّد رسول الله)، وليس الظاهر من ظاهرها إلاّ موضع (الحَجَر الأسود) وهو مركوز في داخل الركن الّذي يُسمّى بـ(الركن العراقي)، وعندي ما هو به؛ بل (الركن العراقي) الّذي يقع الجدي في قبالته هو الركن الّذي يلي حجر إسماعيلعليه السلام[1]، ويعرف اليوم بـ(الشامي) كما رصدتُه مكرّراً.

أمّا حجر إسماعيلعليه السلام فقوس هلالي مشرج بالصخور البيضاء المنحوته بنقوش رشيقة وارتفاعه أقل من قامة، واستدارته أكثر من ثلاثين متراً، ومجموع ما يطاف من الحجر ونفس الكعبة أكثر من مائة متر، والمسافة عرضاً ستة وعشرون إلى مقام إبراهيمعليه السلام، وهو حجرةٌ يستدير عليها شبّاك حديد وباب مقفلة، وفيها صندوق عالي عليه ستار أنفس من ستار الكعبة يقال: انّ في الصندوق الصخرةَ التي عليها أثر قدم إبراهيمعليه السلام، وأمامه طارمة صغيرة هي مكان مصلّى الطائفين اليوم.

---

(١) حِجر إسماعيل: بن إبراهيمعليه السلام كان بيتاً له، وفيه قبر أمه، وقبور الأنبياءعليهم السلام

عن أبي عبد اللهعليه السلام قال: سألته عن الحجر فقال: إنّكم تسمّونه الحطيم، وإنما كان لغنم إسماعيل، وإنما دفن فيه أمه وكره أن يوطأ قبرها فحجر عليه وفيه قبور أنبياء.

ظ: (وسائل الشيعة : ٩: ٤٣١، ب ٣٠ من أبواب الطواف ح ١٠).

المسجد الحرام

أمّا المسجد الحرام: نفسه ففي غاية السعة، أمّا أنا فأحسب أنَّه أكبر من (مسجد الكوفة) ثلاثة أضعاف، والاسطوانات تستدير عليه من جوانبه الأربعة في ثلاثة صفوف كالرواقات، واسطواناته من كل جانب تناهز الخمسين في عرض ثلاث وأربع داخلة، وأبوابه أيضاً تقرب من الخمسين، وكان دخولنا إليه من (باب السلام) غالباً، و(باب بني شيبة)[1] اليوم طاق يتصل بـ(بِئْرِ زَمزَم)[2] في وسط المسجد تقريباً، والكعبة في وسطه تحقيقاً، و(باب بني شيبة) تتصل بالمطاف وإلى جنبها منبر عظيم كأنَّه من رخامه من آثار (سلطان سليم)[3] تاريخه في التسعمائة وكسر قليل، وأرض المسجد مفروشة بالحصى الّذي يعسر المشي عليه لخشونته. نعم من كل باب إلى المطاف قد مُدّت جَادَّة عريضة مفروشة بالصخر الموطد الّذي يميل إلى السواد كفرش الاسطوانات.

---

(١) باب بني شيبة: وكان يُسمّى الباب الكبير، ويعرف بباب عبد شمس بن عبد مناف، وبهم كان يعرف في الجاهلية والإسلام عند أهل مكّة، ثم صار في وسط الحرم شرق المقام مرموز له بعقد يمرّ الناس تحته وحوله، ثم أزيل في التوسعة السعودية.
ظ: (معجم معالم الحجاز ١: ١٦١).

(٢) بِئْر زَمْزَم: سمّيت بهذا الاسم اشتقاقاً من زمزمة الماء أي صوته، وهي بئر قديمة، موقعها داخل المسجد الحرام شرقي الكعبة، وجنوبي مقام النبي إبراهيم، مقابلة للحجر الأسود تقريباً، والمسافة بينها وبين الكعبة حوالي ١٥ مترا.
ظ: (معجم ألفاظ الفقه الجعفري، د. أحمد فتح الله ص٨١).

(٣) عمارة السلطان سليم خان للمسجد: في (سنة ٩٧٩هـ - ١٥٧١م) أمر السلطان سليم خان ببناء المسجد الحرام على أكمل درجات الأتقان، وان يعتاض عن السقف بقبب دائرية، وبلغ ما انفق هي هذه العمارة (١١٠٠٠٠ دينار)، (٥٥٠٠٠ جنيه تقريبا)، ومائة الف من الذهب الأبريز ... .
ظ: (مرآة الحرمين ١: ٢٤٢).

أمّا الكعبة: فارتفاعها في الفضاء أكثر من عشرين متراً وليس عليها ولا على المطاف سقف ولا ظلّ، وكنتُ أوّل تشرّفي أحسب أن لو كان المطاف مسقوفاً لكان أولى دفعاً لحرّ الشَّمس عن الطائفين، ثم اتضح لي أنَّ ما هو عليه الآن أصوب، وإلاّ لكان هواؤه قاتلاً لاجتماع الأنفاس المتراكمة فيه الّذي لا يفرّقه في الجملة إلا حرّ تلك الشَّمس، وأحياناً يكاد أن يختنق الإنسان من تلك الأنفاس الوضرة[1] والأجسام القذرة من السودانيين، واليمانيين، والجاوة، وأضراب هؤلاء من أهل السواحل وغيرهم، هذا وهو مكشوف والشَّمس لها تمام التصرف والنفوذ فيه، فكيف لو كان مسقفاً، أمّا أهل (مكّة) ولا أظنّ فيها من الصميم من الألف واحداً؛ بل الكل متوطنون من شرق الأرض وغربها من كل لئيم الأصل، خبيث العنصر، فلا تسل عن ظلمهم وتعدياتهم مع الحاج وسوء أخلاقهم، فكأنّ طباعَهم قُدّت من جبالهم، وقلوبَهم صُبّت من صخورهم، وأكثرهم السّودان من التكارنة، والنوبة، والحبش، ويليهم الجاوة، والأبيض فيهم قليل كالخال البيضاء في الجسد.

واللهو والطرب بل الفسق والفجور فاشٍ فيهم ظاهر عليهم من تزويقاتهم وملابسهم وهم غير خالين من العصبية والتعرض.

كنتُ يوماً في المسجد أدعو بعد الطواف بصوت مجاهر فوقف شاب منهم يستمع حتّى انتهيتُ إلى آخر الدعاء، وفيه: «...وصل على ملائكتك المقربين وأنبيائك المرسلين وعبادك الصالحين...». فقال: لي، قل: والصحابة المرضيين والخلفاء الراشدين، فقلتُ: إن كانوا من العباد الصالحين فقد دخلوا، وإن لم

---

(١) الوَضَر: ما يشمه الإِنسان من ريح يجدها من طعام فاسد.

يكونوا من الصالحين فأنت لا ترضى بالصلاة عليهم، فسكتَ وولّى، وهم مع ذلك أهون من أهل (المدينة) بكثير.

وبالجملة فـ(الحجاز) كلّه باديته وحاضرته من أعتى الأمم وأشقاهم، ولا يأمن الإنسان فيهم، وبالخصوص هذه الفرقة المستضعفة الّذين يطلقون عليهم (العجمي) ويعنون به من لم يكن على ما هم عليه، لا يأمن فيهم على ماله، ولا عرضه، ولا دمه، ويا لله وللعجب! كأنَّ الإسلامَ لمّا خرج من (الحجاز) ما دخل إليها وفيها أبداً بل تجاوزها إلى غيرها وبقوا على الجاهلية الأولى، وجزى الله الشرفاء خيراً فإنّه لولاهم لكان البلاء على هذه الفرقة بل على مطلق الحاج شديداً جدّاً، وسلطنة (الحجاز) في الحقيقة لهم على البادي والحاضر، والمأمورون كلّهم منقادون بأمر الشريف، والقوانين كلّها منوطة بإرادته وبالخصوص الشريف الحالي (حسين باشا)[1] فإنَّ له من النفوذ السياسي والروحي والسلطة على عامّة (الحجاز) باديه وحاضره؛ بل وعلى أكثر (نجد) و(اليمن) مالم يكن لغيره من أسلافه، وحقّ له ذلك، فقد زرناه في داره بـ(مكّة) التماساً لسراح بعض حملدارية (النجف) كان قد أمر بحبسهم، فوجدنا من عقله وكماله وهيبته وجلاله ومعرفته بالشؤون وتعارفه ما يعجب ويدل على استحقاقه لما هو فيه، وأنّه من تلك الشجرة الطاهرة وهو ملائم للحَقّ مائل إليه، معروف

---

(١) الملك حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين الحسني الهاشمي، (١٢٧٠هـ = ١٨٥٤م – ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م). أوّل من قام في الحجاز باستقلال العرب عن الترك، وآخر من حكم مكّة من (الأشراف) الهاشميين... .

ظ: (الاعلام ٢: ٢٤٩ – ٢٥٠).

عند الخواص، وظهرتْ منه لذلك إمارات صريحة للحاج هذه السنة وقبلها، وهو معروف بالعِفَّةِ والتَرفّع عن الأطماع التي لا تليق بمقامه.

الرجوع إلى المدينة

ثم من يوم الخامس عشر والسادس عشر صارتْ الحُجَّاج تتابع على الرحيل زرافات زرافات وآحاداً، وجماعات على طريق البحر وغيره، وقضتْ لنا الاستخارة والاستشارة العدول عن الخروج على البحر إلى (الشام) بتوسط بيروت؛ وذلك لما فيه من المَشَقَّةِ الباهضة، وهيجان البحر الأسود في هذا الفصل - أعني الشتاء - عكس البحر الأحمر، مضافاً إلى صدمات الحجر الصحي في ذلك الطريق عند (طُورِ سَيْناء) ومحنه التي لا يحتملها أمثالنا، فمن ذلك كلّه عزمنا بترجيح الإخوان المشفقين، ومشورة أهل المعرفة على العود إلى (المدينة المنورة) ومنها في الوابور إلى (الشام) - بتسهيله تعالى وعونه - على النحو الّذي جئنا به، وإن كان فيما بين الحرمين من هتك حرمات الحاج، وكثرة الصدمات التي تكاد توجب تحريم سلوكه لولا أنَّ الأمر بيد الله - سبحانه - وأنَّه هو الواقي ولا يغلب على أمره، مضافاً إلى تلافي ذلك وتداركه بزيارة سيِّد الكائنات وعترته الهداة (صلوات الله عليهم) أن مَنَّ الله بالسلامة ببركاتهم - إن شاء الله تعالى -.

وعنده دخلنا في جمعية سيدنا الأكرم الأخ البر الشريف المتقدّم الذكر[١] - أدام الله له الفخر، وطول العمر، إن شاء الله تعالى - فعدلناه في المحمل ولا

---

(١) السّيد علي العلاق.

عديل له، وخرجنا من (مكَّة) المشرّفة بعد طواف الوداع عقيب الظهر من يوم الأحد الخامس والعشرين من ذي الحجة في خفارة الله وكلاءته، ومع حمل أمراء حائل من (آل الرشيد)[١] - أرشدهم الله للحَقِّ ولخدمة الحاج بالصدق والنصيحة - وكانت الناس في أشدّ الرغبة عنهم والتآبي عن السير معهم، ولكن السّيد الشريف قسر[٢] الحملدارية على ذلك واعتقلهم أشدّ الاعتقال حتّى تطامنوا اضطراراً لذلك، والّذي قضى بتنفر الطباع عنهم سوء معاملاتهم وسيّما هذه السنة، فإنّهم أقحموا الناس في العطب وأوردوهم المهالك كرات ومرّات أقلّها عدم الماء أربعة أو خمسة أيام، ولكن مع ذلك التناصر والتحزّب من السيِّد الشريف الّذي هو ملك الحجاز اليوم لم ينفعْ تمام النفع لهم، وتفرق الحاج أيدي سبأ، ولم يخرجْ معهم سوى عددٍ لا يتجاوز الألف ولا أظن يوافقهم من (المدينة) عُشر ذلك طبقاً لقاعدة (إنَّ القسرَ لا يدوم، وعاقبةَ الظلمِ شؤم).

أُخرجتْ الأثقالُ والمحاملُ والأخشابُ والرواحلُ قبل الظهر إلى (محل التبريزة) وهو دون الفرسخ من (مكَّة)، وخرجنا بعد الظهر ومررنا لتجديد الزيارة والوداع بسادات البطحاء وأشياخ بني هاشم: (عبد المطّلب)، و(عبد مناف)،

---

(١) آل رشيد (إمارة جبل شمر): هي إمارة أسستْ (عام ١٨٣٤م)، في نجد بمدينة الحائل (شمال وسط الجزيرة العربية)، على يد كل من عبد الله العلي الرشيد، وأخيه عبيد العلي الرشيد، وتوسعتْ الإمارة في السنوات اللاحقة لتأسيسها حتّى اصبحت تضم في العقود الخمسة الأخيرة من القرن التاسع عشر (١٨٥٠م - ١٩٠٢م) جميع الأقاليم النجديّة.

انظر: الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

(٢) القسر: القهر على الكره.

و(أبي طالب)، والسّيدات (خديجة)، و(آمنة)، وهم في (الأبطح) خارج البلد في سفح جبل عال، و(قبر خديجة) في تمام الزينة والتحسين كأنّه حَجلة العروس، وفيه معلّقات وقِطعٌ كثيرة في خطوط نفيسة من حديث، أو آية مناسبة، ومن جملتها ألواح فيها أشعار في مدح (خديجة) وأهل البيتﷺ قصائد ومقاطِيع، ولكن أكثرها شعر بحراني يقول بما قضتْ به القافية مثل قوله في رسول الله ﷺ:

وخديجة وتطلعت منها أشعة آله ... بخديجة الكبرى وصاحبة الجمل

وما أدري أيّ آل لرسول الله من صاحبة الجمل؛ ولكنّها وقعتْ في طريق القافية أو أنّه استخدم الآل في معنييه، وممّا أنستُ من الشعر المعلّق هناك البيتان المشهوران وهما:

أصبر فانَّ وراء العسر تيسيرُ ... وكلّ شيء له وقتٌ وتقديرٌ
وإنَّ لله في حالاتنا نظرٌ ... وفوق تدبيرنا لله تدبير[1]

فاتخذتهما فالاً حسناً بمعونته - إن شاء الله تعالى -.

ثم خرجنا من (الأبطح) متوجهين راجلين نتمشّى حتّى وصلنا غروب الشَّمس إلى مضرب الخيام، وهو دون الفرسخ عن (مكَّة) في برحة كبيرة تستدير عليها تلك الجبال الشاهقة من جميع جوانبها، وهي شماليّ (مكَّة)، كما أنّ (منى)

---

(١) نصُّ الأبيات:

اصبر قليلاً فبعد العسر تيسير ... وكل أمر له وقت وتدبير
وللمهيمن في حالاتنا نظر ... وفوق تدبيرنا لله تقدير

ظ: (ديوان الإمام علي بن أبي طالبﷺ، جمع السيد محسن الأمين العاملي ص٦٩).

و(عرفات) في شرقها، ومن تلك الجبال المطلّة على تلك البسيطة التي كانت مضرب خيامنا (جبل النور)[١] الّذي هو أعلى وأعظم ما يحيط بـ(مكّة) من الجبال على كثرتها وضخامتها، وبتنا ليلة الاثنين هناك ونحن نأمل المسير صباح ذلك اليوم، فلمّا انكشف الصبح ظهر عزمهم على الإقامة ذلك اليوم، وكان أشدّ يوم علينا من شدّة الحرّ، واحتباس الهواء، ورداءة الماء، وكثرة الذباب الّذي يسلب الراحة والقرار، وكان ذلك اليوم كبعض أيّام الصيف التي تأخذ بالمخنق.

جبل النُّوْر المقدّس

ولمّا رأيتُ أنّنا مقيمون هناك لا محالة عزمتُ على الصعود على (جبل النُّور) لما فيه من المآثر النبويَّة التي ظهرتْ عليه لتلك الذات المقدَّسة، وعليه اليوم قبة بيضاء عظيمة في أعلى قُنّته، وهي لتناهي علوّ ذلك الجبل تُرى من مسافة فراسخ، وكلّما عرضتُ تصميم عزمي لصعوده على جماعة من القافلة ثبطوني[٢] عنه؛ استصعاباً له واستعظاماً، فلمّا كانت التاسعة من النهار نفذتُ إلى ذلك، وأخبرتُ أصحابي ومَنْ إلى حوالينا من الحاجّ، فتقاعد جماعة وتبعني آخرون، وكان بيننا وبينه مسافة تقرب من نصف فرسخ، فسرنا مشاة في تلك البسيطة حتّى انتهينا إلى

---

(١) قال البلادي في (معجمه) ٢: ٤٢٦ - ٤٢٧ ما نصّه: حِرَاء: هو الجبل الشامخ ذو الرأس الأزلج المقابل لـثَبير الأثِبرة من الشمال، بينهما وادي أفاعية، يأخذه (أفاعية) الطريق من مكّة إلى الشرق ماراً باليمانية، فيه الغار الذي كان يتعبد فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وفيه نزلت عليه أول سورة من القرآن (أقرأ باسم ...)، وكان يسمّى ثبيراً الأعرج، ويسمّى اليوم (جبل النُّور)، يسيل منه إلى الغرب وادي جَليل، وقد وصل اليوم عمران مكة إلى سفوحه الغربية. يرتفع حِراء (٢٠٠ م) عن سطح البحر، وبسفحه الجنوبي آثار عين الزعفران ...).

(٢) ثبط: ثبطه عن الامر تثبيطا، إذا شغله عنه.

قرار الجبل وأصله، وهو واحد من سلسلة جبال متصل بعضها ببعض من أسفلها، وتنفصل من أوساطها وأعاليها وهو أعظمها ضخامة وأرفعها سمكاً، وكلّه كصخرة صمّاء في لون السواد والحمرة الشديدة، ومقدار عظيم منه مرتفع بتسريح، وفي أعلى ذلك قطعة عظيمة في ضخامة هائلة وهي مُسنّمة كالمنارة، وفي أعلى هذه القطعة تلك القبة البيضاء، ولما انتهينا إليه وجدنا بيتاً في أسفله من شعر كبعض بيوت الأعراب ولكنّه من خِرق بالية، وفيه عجوز سوداء تستظل به، وتستند إلى صخور تلك الجبال الصغار التي حواليه، فسألناها عن طريق مَصعده فأرشدتنا إلى جَادَّة تنتهي إليه تدريجاً، وتَصعدنا عليه تسريحاً، وفيه مثل الدرجات المصنوعة وما هي إلاّ كالمنحوتة على صفحته في صخوره الصلداء وأحجاره السوداء، وتلك الجَادَّة والمراقي تلتوي عليه التواء الأفاعي، ولكن دون الدائرة المحيطة أعني في صفحة واحدة، وهي في غاية الوعورة ومظنة الزلق، وما قطعنا منه إلاّ قليلاً حتّى نفذت قوّتنا، وبلغ الجهد بنا والتعب أقصاه، وكلّما نظرنا إلى أعلاه وما نحن فيه من التعبِ والمَشَقَّةِ ضعفتْ قوّتنا ووهتْ عزائمنا، وأصرّ مَنْ معي على العود دون بلوغ الغاية، وكنتُ على أنّي أضعفهم جسماً أقواهم عزماً، فكنتُ أثبطهم عن الرجوع والإحجام وأحثّهم على الإقدام، فكُنَّا نتسلّق على تلك الصخور تارة، ونستريح من شدّة الأين[1] والوجى أخرى، حتّى أجهدنا الإعياء ونحن بعدُ في أوائل المرحلة، ثمّ أحمينا أنفسنا وتصعدنا طيتين أو ثلاث، فاشتدّ الجهد والإعياء ببعض الرفقة فرجعوا ناكصين دون الغاية، واندفعنا

---

(١) الأين: التعب.

بقوة العزم وكان وبئ هواء مكّة، والحمّى التي أصابتني فيها التي كان قد منّ الله عليّ بالرُّحَضاءِ[١] منها قبل خروجي من (مكّة) بيومين قد أضعفا كلّ قواي وقوّتي وأذهبا ماء شرّتي، ولم يتركا بعد جَلَدي سوى عظمي وجلدي، فمن جرآء ذلك كلّه وهنتُ أشدّ الوهن، ولاحتْ عليّ لوائح الاختلال حتّى ضجّ من لغبٍ نِضْوي، ولجّ في عذلي صحبي[٢]، وأخذ الخفقان بفؤادي، حتّى كأنّ قطاةً عُلقتْ من جناحها على قلبي، ولكن مدّنا الله بالعناية وبألطافه الجليّة، حتّى صعدنا إلى أعلى الجبل المفرطح[٣]، وعليه فسحة مسوّاة ممهّدة عليها مربّع جدار من صخر قدر ذراعين، وفي وسط قُنة هذا الجبل ذلك الأعلى المُسنَّم، فتسلقنا على مصعد في جداره كالدرج، وبعد مسافة بلغنا إلى فسحة واسعة في صفحة منه فيها بركة لماء السيول كبيرة محتفرة، كأنّها بحفر طبيعي منقورة في سطح الجبل التي هي من الصخر الصلد، وهي في عمق ما يبلغ خمسة عشر متراً، وهي مربعة، أرضها وجدرها من نفس الجبل من غير بناء، وعلى أطرافها حاشية من بناء بالجص والصخر بارتفاع ذراع، وفيها ميازيب لانصباب مياه السماء، وتقابلها أيضاً فسحة مسوّاة معدّلة فيها بعض الأثاث من قدور صغار، وحصير، وكِيزانٍ[٤]

---

(١) الرُّحَضاءُ: العَرَقُ. وفي حديث نزول الوَحْي: فمسَحَ عنه الرُّحَضاءَ؛ هو عرَق يغسل الجلد لكثرته، وكثيراً ما يستعمل في عرَق الحُمّى والمرض.

(٢) أفاد من بيت للشريف الرضي:

فوقفتُ حتّى ضَجَ مِنْ لغَبٍ ... نِضْوي وَلَجَ بعَذْليّ الرْكبُ

ظ: (ديوانه ١: ١٨١).

(٣) العريض.

(٤) الكُوزُ: من الأواني.

ماء صغيرة، وليس إلى جنبها أحدٌ، وكنتُ في أشدِّ العطش ولم أتناول منها خوفاً من لائمة أهلها، ثم ارتقينا إلى الغاية المقصودة وهي أعلى القُنة وموضع القبة البيضاء فإذا هي أرض بسيطة من صخر مفروشة بالرمل بعض منها مكشوف كالطارمة أمام القبة تحوطه حاشية مبنيّة، ومنها يكون الدخول إلى ذلك الموضع الشريف الّذي عليه تلك القبة الرفيعة العالية المبيّضة بالجصّ الناصع، مرتفعة على أربع اسطوانات عالية عظيمة، والقبة في غاية الارتفاع والعظمة، وهي ترى في السفل كأصغر ما يكون، ويبلغ مساحة ذلك الموضع الّذي تحتها سبعة أمتار طولاً، وثلاثة عرضاً، عدا الأساطين الأربع، وأرضها من صخرة واحدة سوداء في وسطها الحقيقي شقّ بقدر قامة في عرض شبر، وكانتْ هناك عجوزان سوداوان يُعَرّفان ويتطلّبان المعروف، يَزعمان أنَّهما من بقايا قريش، فقالتا: إنّ هذا موضع اعتزال النَّبيﷺ قبل البعثة للعبادة والانقطاع إلى الله، ومن هذا الشق اشرقتْ له أنوار النبوَّة، وتطلّعتْ أشعة الرسالة، وألبسه الله خلع الكرامة، وهذه القبة المبنية عليه في قبلتها كتيبة وطرّة شاهية تتضمن تلك الكتابة: (انَّ تجديدَ هذا البناء وقع بأمر السلطان عبد العزيز(١) في سنة (١٢٧٩ هـ)، وعلى محزمها أبيات شعر قد درستْ إلاّ أثرها، ولم يسعْ الوقت لاستخراجها، ثم ذهبْن القرشيتان بنا وأنزلتانا

---

(١) عبد العزير خان نجل محمود خان الثاني: (ولد سنة ١٢٤٥هـ = ١٨٢٨م – وتوفي سنة ١٢٩٣هـ = ١٨٧٤م)، جلس على سرير السلطنة (سنة ١٢٧٧م = ١٨٦٠م)، فأخذ في إصلاح البلاد وقسم المملكة إلى ولايات وألوية ومديريات، وأحدث مجلس شورى الدولة... .

ظ: (دوائر المعارف: للسيد محمد مهدي الموسوي الكاظمي/ص٥٧).

من نيق[١] الجبل عن صفحته الغربية في درج منحوتة في الصخر بمثل ثلاثين درجة أو أكثر، فدخلنا في مضيق شعب في الجبل لا يجوزه المرء الأ صفحاً، ثم خرجنا منه إلى فُسحة صغيرة مكشوفة إلى ميسرتها غار في عرض بدن الإنسان وطول قامته، وإلى جنبهِ صخور لو أطبقتْ واحدة على بابه لغاب عن الحسّ والوهم إنّ شيئاً هناك!، وهذا الغار بزعم القرشيتين وما هو المسموع هناك، هو الغار الّذي صدف قريش، وصار صدفاً لذلك الجسد الطاهر عن أعين المختلّسين منهم لدّرة التقديس واللؤلؤ النفيس، وربّما يُستبعد في النظر أنّه هو ذلك الغار الشهير، الّذي اكتتم فيه ذلك الوجود المقدّس وصاحبه، حتّى طلبته قريش ووصلتْ إلى الموضع الّذي هو فيه، فصدّهم الله عنه ﷺ، وذلك لبعد هذا المحلّ ومشَقَّة الوصول إليه وكثرة الجبال حوله التي يوجب الفحص عنها جميعاً مُدّة طائلة، ولكن لا يبعد أن يكون الأثر في البسيطة التي هي بأسفله قد دلّهم على أنّه ﷺ قد صعد إلى هذا الجبل؛ فارتقوا إليه يستبرؤون من خبره، وينتهون إلى أقصى أثره، حتّى مرّوا على ذلك المكان المشرّف.

وعلى أيٍّ فقد تشرفنا بزيارة ذلك المكان وتبرّكنا به ثم أصعدنا إلى تلك النيقة[٢] ووقفتُ تحت القبة إلى جنب الشق، فصلّيت الظهرين وركعتين تحية ذلك المكان، ودعونا الله سبحانه بما تيسّر، وإذ هي مكشوفة من جوانبها الأربعة، نظرنا من بابها التي هي إلى الغرب فرأينا جميع دور (مكّة) وعماراتها،

---

(١) النيق: حرف من حروف الجبل.

(٢) النيقة: أرفع موضع في الجبل .

و(الكعبة)، و(أبي قبيس) ولكن هو وسائر ما حولها، وفيها من الجبال كان يُرى كالتلال اللاطئة[١] إلى الأرض، وكانت في أسفله بعض الجمال السارحة، وهي تبين كقطيع شاء، ثم خرجنا منها وقد كادتْ الشَّمس ان تجبَ[٢]، ودفعنا إلى ذينك المرأتين بعض قطعات الفِضَّة المشوفة[٣]، واستقينا الماء من كِيزانهم، وانحدرنا وما بلغنا إلى مخيّمنا إلاّ الواحدة من الليل، فكان مجموع مُدّة رواحنا وصعودنا وانحدارنا منه زهاء أربع ساعات.

وبتنا تلك الليلة وهي ليلة الثلاثاء ٢٧ ذي الحجة وفي صبيحتها ركبنا المحامل وارتحلنا في راية (أمراء حائل)[٤].

بئر برود إلى صفينة

حتّى أتينا أوّل الظهر إلى (بئر برود) فنزلنا حولها وهي عن (مكّة) أربعة فراسخ تقريباً، ووقفنا على نفس البئر عصراً، فوجدناه من عجائب الآبار، ومن غرائب قديم الآثار، وقد تطلعتْ من جدار محوطتها الصخريّة شجرة كبيرة بريّة حتّى ظلّلتْ فُوَّهَةِ البئر، وزادتْ على أنَّ تلك البئر في غاية السعة، ولعلّ قطر دائر الفُوَّهَةِ يبلغ عشرة أمتار أو أزيد، وهي على ذلك حتّى قعرها، وماؤها طيّب عذب غزير جمّ وكأنّه يجري من قناة تحت الأرض؛ لأنّ في جنبي سطح الماء فُوَّهَتين كبيرتين كان الماء يجري منهما، وقد ارتوتْ كل تلك القافلة وكل ذي روح

---

(١) اللطء: لزوق الشيء بالشيء .

(٢) تغيب.

(٣) المشوف: الدينار .

(٤) هم آل رشيد من شمّر، تقدّم ذكرهم.

فيها، وتزوّدوا منها، أمّا الشجرة فهي أيضاً لا تخلو من غرابة فضلاً عن ضخامتها وتعاليها، فإنّ ورقَها كورق السدر، وهي حاملة بثمر التين الأخضر الّذي لم ينضجْ وهو فيها كثير، وقد جاءها الحاج كافة يعجبون بها ولا يعرفون من أمرها شيئاً، ثم عشينا تلك الليلة هنا، وصبّحنا السير حتّى أتينا عصراً إلى (وادي الليمون) الّذي مرّ بك ما يحلو من ذكره، فنزلنا في عدوة الجبل الوسطى والمسيل أسفل منّا والجبال مطلّة علينا، وكانت أرض مزرع، وقد نزل جماعة في عدوتها العليا عنّا، ولم تطعمنا بساتينه اليانعة وأشجاره الزاهرة سوى الرارنج النفيس الّذي هو كأنفس ما يكون في العراق، وفيه قليل من الليمون الحامض الّذي يعرف بـ(نومي البصرة) في طعمه وشكله، سوى أنَّه جديدٌ رطيبٌ، وقد تزوّدنا كثيراً من رارنجه وتمتّعنا منه إلى المدينة متاعاً حسناً، وكان منه في كل المنازل صبغ أكلي وإدام خبزي، ولا تميل نفسي إلى مطعوم ومأدوم سواه، ومن جملة ما تمتعنا منه خيار الماء الطيّب الطريّ الرويّ بذلك الماء العذب الجاري على الصخور المنضودة باندفاع قويّ، وتزوّدنا من ذلك الماء وسرنا صبح الاربعاء وعشّينا عصراً دون (ضريبة)، وسرنا منه ومررنا على ضربية (ذات عرق) بعد الشَّمس ضحوة الخميس فأناخ الحاج واحتفروا في الرمل حتّى نبع الماء وترووا، واحتملوا حتّى أتوا إلى (وادي العقيق) دون البركة قريباً من موضع إحرامنا، وكان من عجيب الاتفاق وحُسْنِه أنّ إحرامنا يوم الجمعة، وموقفنا في عرفة يوم الجمعة، وخروجنا من الوادي يوم الجمعة، وكان مبيتنا في الوادي ذهاباً وإياباً ليلة الجمعة أيضاً.

ثم سرنا صباح السبت حتّى أتينا العصر إلى (حاثة) ونزلنا في العراء دون قلعتها المنهدمة وأضلاعها المسنّمة، فعشّينا تلك الليلة وهي ليلة السبت هنالك

وانصرف الرواة فتروّوا، وارتحلنا منها صباح الأحد، وسرنا قدراً من النهار حتّى أتينا إلى أرض سباخ قد علاها الملح كالجليد المتراكم، وبقينا نسير فيها أكثر النهار حتّى نزلنا عصراً آخر النهار في فسحة بين ضلعين من الجبال متباعدين، ويُسمّى هذا المنزل (بما بين السبختين)؛ لأنّ وراءه سبخة أخرى وكانتا - بمنّ الله تعالى - كأيّام الورود لم يصبهما المطر وإلاّ لأشكل الأمر جداً، وهذا المنزل مفازة ومغبّة ليس فيه ماء ولا كلاء.

ثم سرنا منه بعد صلاة الفجر ومررنا ضحى بـ(السبخة) الثانية حتّى أتينا التاسعة من النهار إلى قرب المنزل المعروف (بصُفينة) بالتصغير، وهذه الأرضون من (حاثة) إلى قرب (المدينة) لقبائل (مُطير)، وتمتد أرضهم إلى (الكويت) شرقاً وإلى قرب (المدينة) غرباً، وهم من فتّاك الأعراب واشقيائهم، وكانت طائفةٌ من الحاج والمحامل قد تقدّمت أمامنا فلمّا انتهوا إلى بعض أضلاع جبال المنزل رأيناهم أمسكوا عن السير، وسمعنا أصوات (بنات الرعد)[1] تندفع عليهم، وكانت الراية معنا، فركزها في الأرض وأناخ فأنيخت المحامل والرواحل على بكرة أمّها وأبيها، فاستبرأنا الخبر فاستبان أنّ طائفةً من (مُطير) سوى مَنْ له إلاّ الخاوة والرفق، يمنعون من الاستقاء من الآبار إلاّ بثمن يقترحونه، وأمراء البيرغ[2] يراجعونهم مع خفيرهم بالمدافعة عن الدفع، أمّا نحن فاعتصمنا ولجأنا إلى الصلاة وكفاها بها وَزراً وحصناً، فأدينا المفروض منها، وكانت في غضون ذلك تمرّ على رؤوسنا بعض البنادق ولها في آذاننا زمزمة، وفي قلوبنا همهمة، أمّا الضعيف فبعد

---

(١) بنات الرعد: كناية عن صوت الرصاص.

(٢) البيرغ: الراية، اللواء، وهي كلمة تركية.

الصلاة رقدتُ حتّى ملكتني عيني على تلك النغمات، وما أيقظوني إلاّ للركوب فركبنا حتّى نزلنا عن الآبار ناحية، وبيننا وبينها مسافة، وكُنّا في أشدٍّ حاجة إلى الماء والرواء، فأخذوا الخفير إلى الآبار وارتووا وعادوا أوائل العتمة[1].

ثم سرنا صباح الثلاثاء رابع المحرم حتّى نزلنا السادسة ونصف من النهار في فلاة من الأرض وإلى جنبها شرقاً غدير ماء من السماء، ببعد غلوة سهم أو سهمين من منزلنا، وكان سيرهم هذا اليوم خَمْسَ ساعاتٍ ونِصْفاً؛ وذلك لأخذ ما لهم على الحاجِّ من مرسوم الخاوة ومصرف البيرغ، وقد أجحف هذه السنة أمير الحاج وصاحبه بمنْ قهرهم الشريف على السير معه إجحافاً باهضاً، وابتدع بدعة لم يسبقه أحدٌ إليها، ولم تكن في التصوُّر والحسبان، حيث إنَّهم أجْروا الخاوة على العرب والعجم سواء وضاعفوها حتّى أخذوا من كلّ نفر - من أيّ صنفٍ كان - أربع ليرات إلاّ رُبْعاً، فضجتْ الحملدارية واستغاثتْ ولات حين مغيث، إلا العصيّ على العصاة حتّى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ولم يسمحوا بطرح ذلك عن أحد إلاّ لبعض الذوات، [الذين] عرفوا لهم من الشأن ما صدّهم عن اجراء ذلك البغي عليهم وابتغائه منهم، واحتسبوا محمل الأخ الشريف[2] وعديله الضعيف[3] من أولئك، وتوسّل بنا بعض الحملدارية لنشفع له إليهم في التخفيف عنه، لما رأى في عامَّة الطريق من ملاطفتهم بنا ورعايتهم لنا، فأتيناهم وقلنا لهم قولاً ليّناً، فسمحوا ببعض وتنازلوا عن بعض، وكثُر تلك الليلة العياط ووقع السياط.

---

(١) العتمة: الثلث الأوّل من الليل بعد غيبوبة الشفق.

(٢) هو السيد علي العلاّق.

(٣) هو الشيخ كاشف الغطاء صاحب الرِّحلة.

السوارقية - الصَّعْبيَّة

ثمّ سرنا بعد الصلاة من صبح الأربعاء حتّى نزلنا بعد الظهر في خلاء من الأرض واقع بين قريتين:

إحداهما: تسمّى بـ(السوارجية)[1] ذوات آبار عليها نخيل ومزارع، وفيها بعض أبنية الصخر والطّين من البيوت، تسكنها جملة من السادة الحسينيّة وجماعة من الأعراب المعروفين بـ(بني علي)، والجميع من الفرقة الجعفرية، والقرية عن محطّ مناخنا فرسخان أو أقلّ، وراء سلسلة من أضلاع الجبال، وجاء كثيرٌ من أهاليها من أشرافها وأدانيها وولدانها ونسوانها يتفرّجون ويتكسّبون ببيع أجربة التّمر والسمن، وحضر في خيمتنا منهم ما ينوف على العشرين، وقدّموا لهم العشاء وأُحسنتْ ضيافتهم وكانوا في بهجة ومَسرَّة بمشاهدة شاكلتهم ومجالسة جانستهم.

والأخرى تُسمّى بـ(الصَّعْبيَّة)[2] وهي من ناحية الغرب عنّا، وعليها آبار، ومنها كان الاستقاء والارتواء، والتزوّد من الماء.

ثمّ رحلنا يوم الخميس حتّى نزلنا بعد الظهر في خلاء أرض تُسمّى

---

(١) كذا في الاصل والصحيح (السوارقية): أرض زراعية آهلة بالسكان في ديار مطير، وهي جوفة في صفن حرة بني عبدالله كصفينة، وواديها قُرّان يأتي من حرة مطير من الغرب فإذا زاد ماؤها دفع إلى قاع السوارقية وهو قاع لا يفيض ماؤه لكبره، فيها إمارة لمهد الذهب، ومدرسة ابتدائية.
ظ: (معجم معالم الحجاز ٤: ٨٤٧).

(٢) الصعْبية: كالمنسوبة إلى الصعب: بلدة في ديار بني عبدالله من مطير، غرب السوارقية، فيها مدينة ابتدائية وفيها شيخ المهالكة بطن من بني عبدالله، لها وادٍ يعرف بها يأتي من حرة مطير الغرب فيدفع شرقاً في قاع السوارقية، فيها مزرعة على الضخ الآلي.
ظ: (معجم معالم الحجاز ٥: ٩٨٦ — ٩٨٧).

بـ(الغُراب)[١] أو (الخراب)، وكان السير في هذه الأيام الثلاثة تعليلاً قليلاً والنزول قريباً، حتّى أنَّهم كانوا يصيّرون المنزل الواحد منزلين؛ وذلك لاشتغالهم بأخذ الخاوات ودفعها إلى أهلها من (شيوخ حرب) وغيرهم.

فكُنَّا نحثّهم على السير استعجالاً؛ وهم يتعلّلون به إمهالاً؛ حتّى قضوا علينا بذلك الليالي والأيام.

في غدير ماء

ثم ارتحلنا يوم الجمعة بين الطلوعين حتّى أتينا ضحوة ذلك اليوم إلى (غدير ماء) في طول ثلاثمائة متر، وعرض سبعة في عمق اثنين تقريباً، يطلّ عليه جبل من الصخر الأسود على طول (الغدير)، فنزلنا على ذلك النهر فوجدنا فيه من العذب الزلال ما لم نذقْ مثله مُدّة أعمارنا، وما دجلة والفرات بالقياس إليه إلاّ كقياس سائر المياه إليهما؛ وكان السبب في تلك العذوبة والحلاوة أنَّ السماء تصبّ على ذلك الصخر فيدفعه إلى ذلك النهر فجأة من دون أن يمرّ على الأراضي المختلفة الطعوم من السباخ وغيرها، وأرضه من الطين الأحمر الحرّ.

فما هو إلاّ ماء الوقائع الّذي شبّه ذلك الشاعر العربي حديث حبيبته به في قوله كأنَّ حديثَها:

جنى النَّحل مَمْزوجاً بماء الوقَائع[٢]

---

(١) أنظر: (غراب) في معجم معالم الحجاز ٦: ١٢٤٦ - ١٢٤٨.

(٢) عجز بيت، وصدره:

ونِلْتا سِقاطا من حديثٍ كأنَّهُ

ظ: (ديوان ذي الرُمة، لغيلان بن عقبة العدوي (ت ١١٧هـ) ٢: ٧٨٦).

أو النُّطفة التي جعل الحماسي بالفراسة ريق عشيقته أطيب منها إذ يقول:

فَـمَا نُطْفَـةٌ مِـنْ مـاءِ مُـزْنٍ تَقَاذَفَـتْ   بِـهِ جَنْبَتَـا الجُـودِيِّ والَّلَيْـلُ دامِـسُ [١]

فلَـمَّا أَقَـرَّتْهُ الَّلصَـاب[٢] تَـنَـفَّـسَتْ   شَـمَالٌ لأَعْـلَى مائـهِ وهــو قـَارِسُ [٣]

بِأَطْيَـبَ مـنْ فِيهَـا ومـا ذُقْـتُ طَعْمَـهُ   ولكِنَّنِـي فِـيما تَـرَى العـيْنُ فَـارِسُ [٤]

وأناختْ الحاجُّ كلّها على حافتيه، ووردتْ الإبل ورود الخِمس[٥] عليه، وكان على شاطئه بعض النباتات الخضرة اليانعة، فجاءنا بعض الرفاق منه بالرَشاد فجعلناه من بعض أدامنا ذلك اليوم، وأهرقنا ما كان معنا من ماء تلك الآبار حيث كسد وبار، وملأنا المزاود وتزوّدنا من ذلك (الغدير).

ثم بعد ساعة تنادوا بالمسير فسرنا حتّى أتينا بعد الظهر إلى أرض بين حرّات وصخور، فنزلناه وهو دون (الخنق) فبتنا ليلة السبت هناك، ثم سرنا صباحه حتّى أتينا (الخنق) عصراً فعشينا ليلة الأحد تاسع المحرم هناك بين مضيق شعابه وهضابه على منزل وعث وعر من الصخور والأحجار، وبعد ضرب الخيام والأخذ من الاستراحة طرفاً مضينا إلى التفرج على مائه الّذي هو في أشلاخ الجبال العالية وأصولها، ونظرنا إلى العمارة التي عليه، وهي على ما يقال: من

---

(١) الدَّامس: المُظْلم.

(٢) اللِّصاب: شقوق في الجبل.

(٣) القارس: البارد.

(٤) الأبيات لأبي صَعْتَرة البَوْلاني.

ظ: (شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي (ت٤٢١ هـ) ٣: ١٢٨١ - ١٢٨٢).

(٥) الخِمس: شرب الإبل يوم الرابع من يوم صدرت؛ لأنهم يحسبون يوم الصدر فيه.

(عمارات زبيدة)[1]، وهو بناء هائل بديع قد انهدم أكثره، وهو كالقنطرة بين الجبلين العظيمين على الشعب العميق السحيق، الّذي يمتلئ بمياه الأمطار ويقطع طريق المارة ويصير كأعظم الشطوط في بعض الفصول.

الحرب مع قبائل حرب

ثم رجعنا مع الغروب إلى مضاربنا، وكُنّا نأمل على العادة المسير صبحاً لندخل (المدينة المنورة) نهار التاسع فنحظى بليلة عاشوراء عند النَّبي والأئمة (صلوات الله عليهم)؛ فبيناً نحن على ذلك إذ نادى مناديهم بعزم الإقامة غداة تلك الليلة، فاستأنا لذلك أشدّ المساءة وتضاعفتْ الأحزان والكآبة، وبتنا ولكن بليلة ذي الغابر نعلّل النفوس بأنّ الليلة حُبلى، فعسى أن تصبح بغير الغابر، وكان الباعث لهم على تلك الإقامة المزعجة في ذلك المنزل الخشن هو خوفهم من بعض (طوائف حرب) أن يَتَنَشَّبُوا في أثناء الطريق فَيَرْمُوهُمْ كما فعلوا في العام الماضي، وكان بينهم وبين أولئك الجفاة في المنزل تلك الليلة شغبٌ وصخبٌ،

---

(١) أمُّ جعفر أمة العزيز بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور المعروفة بـزُبيدة، زوجة الرشيد وام ولده الأمين، تزوجها في حياة أبيه المهدي، ولدت في حياة المنصور فكان يرقصها وهي صغيرة فيقول: أنت زُبدة، أنت زُبيدة، فغلب ذلك على اسمها، وتوفيت ببغداد في جمادى الاولى في سنة (٢١٦هـ)، لها آثار كثيرة في طريق مكة من مصانع حفرتها، وبرك احدثتها، وكذلك بالمدينة، وتبلغ نفقتها في الحجِّ في ستين يوماً (اربعة وخمسين الف الف).

ظ: (تاريخ مدينة السلام ١٦: ٦١٩ – ٦٢٠).

وعلى ثلاثة اميال من الشقوق قصر لأم جعفر، وعلى ستة أميال يمنة على الطريق بركة زبيدية، وقباب، ومسجد يدعى (الرُّستمية)...

ظ: (كتاب المناسك، للحربي ٢٨٨ - ٢٨٩).

ومراجعة ومدافعة، فـ(الحربيّون) لكونّهم في مواطنهم وعدم سلامة إسلامهم فضلاً عن إيمانهم يحتكمون بما شاؤوا وإلاّ قتلوا وفعلوا ما شاؤوا ولا مانع ولا دافع سوى الله، وهم عنه بمعزل، وأمراء البيرغ لشحهّم وحرصهم على الحطام الّذي جمعوه من الحاج وهو قرب ثلاثة آلاف ليرة لا يدفعون لأولئك ما يقنعهم، وما زالوا في ذلك اليوم وهو تاسوعاء مشغولين بفصل هذه الخصومة وإصلاح هذه المفسدة حتّى بعد الزوال، ولم يبقَ إلاّ من يهون أمره، وكان النهار قد ذهب أكثره ولم يبقَ سعة للمسير، فدخلتْ علينا ليلة عاشوراء ونحن عن (المدينة) أقل من مرحلة، ولكن الصدور متوغرة، والأكباد متسعرة، والعيون مستعبرة، والكآبة على الوجوه لائحة، والأصوات بلسان الحال والمقال بين نائح ونائحة، وكُنّا من أوّل ليلة من المحرّم أقمنا رسم العزاء لسيِّد الشهداء عليه السلام فيأتي الذاكر ويقرأ ما يحسن من الشعر والنعي، وما أقل ما يُحسِن!، ثم يتلو صاحُبنا الشريفُ[1] قدراً من (مقتل اللهوف)[2] وتحضر هنالك جماعة من الرفاق، حتّى كانت تلك الليلة التي زاد في فجيعتها ورزيّتها حبسُنا في ذلك المكان وحرماننا من الحظوة بتلك الأعتاب المقدّسة على القُرب منها، فاقتضى ذلك مزيد انكسار خواطرنا، وتألّم قلوبنا، أمّا الواهن الضعيف فما كانت ترقأ لي عبرة ولا تهدأ لي زفرة طول تلك اللّيلة اللّيلاء، ثم بعد إداء الفرض، انعقد محفل العزاء وجاء الذاكر فارتفع البكاء

---

(١) هو السيد علي العلاق المتقدّم ذكره غير مرّة.

(٢) اللهوف على قتلى الطفوف: للسيد رضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن طاوُس الحسَنيّ الحلي (ت ٦٦٤ هـ- ١٢٦٤م) مرتب على ثلاثة مسالك: في الأمور المتقدّمة على القتال، وفي وصف القتال، وفي الأمور المتأخرة عنه.

ظ: (الذريعة ١٨ : ٣٨٩).

وكانت النفوس مستعدة، والقلوب ممتلئة، لا تحتاج إلاّ إلى أقل مهيّج ومحرّك، ثم تليتْ المصيبة من (اللهوف)، وبعد استيفاء حظّنا من سكب الدموع وفيض الآماق ختمنا المجلس في مخيّمنا، وقمنا حتّى أتينا إلى الخيمة اللصيقة بنا وهي للشهم الغيور عمدة الأعيان الحاج (عبد المحسن شلاش النجفي)[1] شُكرتْ مساعيه، وزيدتْ معاليه، وكان قد عقد في خيمته الزاهية رسماً للعزاء في غاية الحسن والبهاء في أفرشته النَّفيسَة، وأضوائه الزاهرة، وشموعه المنيرة، والمجلس غاصّ بأهله، رائع بحشده وحفله، وبعد تلاوة الذاكر ما تيسّر وارتفاع الأصوات بالبكاء والحسرات ورنّة الزفرات، اجتمعَ عدد كثير من الأتباع والخدّام من حملدارية وعكّام، وبعض الحُجَّاج مثانِيَ وأزواجاً لِلدم الصدور ولطمها، ونشر النياحات والنواعي ونظمها على رسم العادة في العراق وما يجري بتلك الآفاق، واتفق من حسن التوفيق ومساعدة العناية اشتمال تلك القافلة على اثنين من أهالي كربلاء من العارفين المَهَرَةِ بالنواعي المشجية، والنياحات المثكلة، والطرائق الرائقة بالعربية والفارسيّة، فقام أمام الخيمة للعزاء والنياحة واللطم على الصدور، موسم رائع، ومحفل جامع، والمستمعون على عقد نظامهم الأوّل تحت الخيمة لهم حنين وأنين وبكاء ورنين، حتّى ارتفع هناك من الضجّة والرجّة ما لا أشك أنَّه بلغ في هَماهمِهِ إلى مرقد سيّد الأنبياء، وبقعة سيّدة النساء، والأئمة الأمناء عليهم السلام

(١) عبد المحسن شلاش: (ولد عام ١٨٨٢م في النجف الأشرف، وتوفي في عام ١٩٤٨م) من أعيان النجف وتجارها كان له دوره في الثورة العراقية ١٩٢٠م، عمل وزيراً للمالية، والأشغال، والمواصلات، وأختير عضواً في مجلس الأعيان العراقي. عرف بنشاطه التجاري الواسع ومساندته للمشاريع الخيرية.
(موسوعة أعلام وعلماء العراق ١: ٥٢٠).

وأسعفتْ العناية هذا الضعيف الواهن بما لم أكن أحتسب حصول مثله من الحالة في أيّ مكان حتّى في روضة سيّد الشهداء عليه السلام، وفاض من الدموع ما سكّن لهب الضلوع، وبقينا على ذلك إلى قرب نصف الليل حتّى انفضّ عقد ذلك النظام، وختم الله - سبحانه - لنا ولهم بأحسن الختام، فذهبنا إلى محلّنا للاستراحة، وكانت بذلك قد طابتْ نفوسنا، وسكن ولوعنا وغليلنا عن تأخّرنا، وحبسنا في تلك المنزلة الخشناء، والحالة الشعثاء، وريثما استرحنا أوّلاً أتانا بعض الحملدارية مخبراً شاكياً؛ انّ عزم الأمراء على الإقامة أيضاً في ذلك المحل حتّى في صبيحة تلك الليلة التي هي صبيحة عاشوراء، وما كان أحدُ من الحاجّ يشك في الرحيل ويعلّل نفسه عسى أن يحظى ولو بساعة من آخر النهار يُعزّي بها النَّبي والزهراء والأئمة الأطهار عليهم السلام؛ وذلك لعزمهم على احتلاب الحُجَّاج مرّة ثانية؛ بل ثالثة أو رابعة، برضخ [١] مجيدي من كلّ نفر مضافاً إلى ما سبق، وبالضرورة لا بدّ أن يقيموا لا أقل من يوم؛ لاستيفاء ذلك ولو بالضرب والغصب، والحبس والكبس، ولا تسلْ عند ذلك عمّا دخلنا من الانزعاج والانقلاب والكدورة والاكتئاب، وكان الأمير وصاحبه قد جاؤوا بعد خروجنا إلى خيمة الحاجّ المتقدّم الذكر التي هي إلى جنب خيمتنا، وهم بحيث يسمعون كلامنا إذا جهرنا فرفعنا أصواتنا بالسبّ والشتم والتهديد والوعيد، وأنّنا إذا أصبحنا ولم نجدْ لهم على السير عزماً؛ لنهجمنّ بكافة الحاج على حريرتهم الخضراء، وقناتها السمراء، فنمزّق تلك ونحطّم هاتي، ونُعجّل بسوء عاقبة أعمالهم اللواتي، ونسري ولو أنَّ الدماءَ تجري و:

---

(١) الرضخ: العطاء ليس بالكثير.

عنـد الصبَّاح يَحمـدُ القـومُ السُّـرى ‏ ‏ ‏ ‏ وتَـنْجلي عـنهُم غيابـاتُ الكَـرى[(١)]

وأنذرنا الحملدارية والحاجّ أن يدفعوا لهم قرشاً ولو حملوا لهم نعشاً، كلّ ذلك وهم بحيث يسمعون في (مجلس الشورى) الّذي اجتمعوا فيه للمذاكرة في ترتيب تلك العزيمة الظالمة، ثم لم نتمالك أن هجمنا عليهم إلى الخيمة ومعنا أمّة من الناس وأعيان الحملدارية، فأغلظنا لهم في الكلام وأوجعناهم في خشونة القول بحماس وشدّة، واندفاع وحِدّة اندفاع السيل الجارف على منحدر الوهاد، وهم مطأطؤا الرؤوس لا ينبسون[(٢)] ببنت شفة حتّى تجاسر الحاضرون على مهانتهم وقذعهم.

إذا مـا أهـانَ امْـرؤٌ نفسَـهُ ‏ ‏ ‏ ‏ فـلا أكْـرَمَ اللهُ مَـنْ يُكرِمُـه[(٣)]

وكأنّما كان بين الناس وبينهم سدّ فردمناه أو سور فهدّمناه، وبعد شفاء الصدر وإدراك النصر منهم ومفاجأة ما لا قبل لهم به ومباغته ما لم يكونوا يحتسبون، لم يجدوا ملجأً إلاّ لإنكار تلك النيّة، وفسخ تلك العزيمة، ونُودي في الحاج بالسير صباحاً، وخرجنا والناس معنا في فرح ومرح، وبشر وشكر، واحتسبوها يداً بيضاء وصنيعة غراء، يلهجون بها ويبتهجون فيها، وبعد خروجنا بعثوا على بقايا أهل الخاوات وفصلوهم على الرسم والعادة أو يزيدون، ومضى على هذا ومثله عامّة الليل، ولم نفرغْ من كل هذه المواد والأعمال إلاّ قرب الثامنة من اللّيل.

---

(١) للشماخ بن ضرار الغطفاني.

ينظر: ديوانه شرح: أحمد بن الأمين الشنقيطي ص١٠٨.

(٢) مانَبسوا: ما تكلموا بكلمة.

(٣) البيت لدعبل بن علي الخزاعي.

ينظر: ديوانه القسم الثالث: الشعر الذي نسب إلى دعبل وإلى غيره، ص ٣٢٦.

ثم انصرف كلٌّ إلى مرقده واضطجعنا، وريثما مسّت مضمضة الكرى جفوننا، وأطبقتْ سنّة النعاس عيوننا، أيقظتنا نغمات الأجراس، وغوغاء الناس، ورُغاء[1] الآبال، وقعاقع الحمول والأثقال، وسرنا بعد أداء قرآن الفجر ووضوح الفلق، وقطعنا تلك الحرّات والعقبات، والشعاب والهضاب حتّى سهّل المولى علينا ومَنّ بالتشرّف في الدخول إلى مدينة النّبي ﷺ الطاهرة المنوّرة يوم العاشر من المحرّم الحرام بعد الظهر بساعة، عشرين في كانون الأوّل سنة ١٣٣٠[2] هـ، وكان دخولنا إليها من جانبها الشرقيّ، وعبورنا على طرف (جبل أحد) من جبل وعير، وريثما وضعنا الأثقال في المنزل، تهافتنا على حرّم النبوة، ومهبط الوحي والرسالة، وعزّيناه وبضعته الزهراء بريحانته وأطايب عترته عليهم السلام ولا تسلْ هناك عن الأحزان، وهيجان الأشجان، وفيض الدموع من العيون والأجفان، وحمدنا الله –سبحانه –على ما لم نكن أهلاً له من هذا التوفيق، وسألناه ونسأله – تعالى – كما مَنّ بِنُجْحِ المأمول، أن يَمنّ بالقبول، ويستجيبُ لنا ما سألناه في إخواننا إنَّه سميعٌ مجيبٌ وهو أهل ذلك كلّه بفضله.

في طَيْبة

أمّا (طَيْبة)[3] فوجدناها هذه الدفعة طيّبة الهواء في غاية اللطف والصفآء، كأنَّ أيّامها من أطايب أيّام الربيع في العراق، ولياليها كمعتدل ليالي الخريف في صفاء

---

(١) الرُّغاءُ: صوتُ الإبل.

(٢) في الميلادي (١٩١٢م).

(٣) طَيْبَةُ: وهو اسم لمدينة رسول الله ﷺ، يقال لها: طيبة وطابة من الطيب وهي الرائحة الحسنة لحسن رائحة تربتها... .

ظ: (معجم البلدان ٤: ٥٣، ومعجم معالم الحجاز ٥: ١٠٧٤ – ١٠٧٦).

الجوّ وتلألؤ الآفاق، والّذي انسنا به واستطابتْ نفوسنا من أجله؛ حتّى وجدناه على العكس من الدفعة الأولى أمران:

الأوّل: تغيّر الفصل وإن كان يسيراً فإنّه كان في الأولى تشرين وفي هذه كانون.

والثاني: أنّنا أتيناها في الأولى من (الشام) وناهيك بها وبطيب هوائها وأرج أرجائها، وفي هذه جئناها من هواء مكّة الّذي كان قد أخذ منّا بالمخنق وحزّ بشفار حدّه وحَرّه كل مفصل وطبّق، فكان كل هواء سواه نجده نعيماً ونحسبه نسيماً.

وقد تقدَّمَ بعض شؤون (المدينة) وشكوانا إلى الله وإليك أيها السامع والناظر من أهاليها، وسوء معاملاتهم وآدابهم مع خصوص الحاجّ، خاصَّة العجم، وهم باصطلاح أولئك عامَّة (الفرقة الجعفرية)، وإن جاملوهم أحسن المجاملة، أخصّ من أهل (المدينة) خدّام ذلك المرقد الشريف، وحرم النبوّة الّذي بعث الله مُشرّفه رحمة للعالمين، فانقلب بهؤلاء على خصوص أمّته نقمة أخصّ وأعمّ، وأضحك وأبكى، وأشكو وأشكي من عامَّة خدّام الحرم، خصوص السُود المخاصي، إن كان كلّ واحد من المؤمنين هو المجبّ له والخاصي، فهم من الفظاظة والغلظة على أسوأ حال وأسود وجه، وعلى أيٍّ فلا شيء من اللوم عليهم عندي فإنَّهم لأحقر من (فَقَعٍ بِقَاعٍ)[1]، وأحقر منهم مَنْ يرتجي عندهم حسن المعاملة وكرم الطباع:

---

(١) قال الزمخشري في (مستقصى الأمثال) ١: ١٣٤: (أذل من فَقع بقاع، هو الكمأة البيضاء، ومنه حمام فقيع أي أبيض، والأنثى فقيعة؛ وذله أنَّه لا يمتنع على من اجتناه، وقيل: إنه يداس دائما بالأرجل ...).

مَـنْ عَلّـمَ الأَسْـوَدَ المَخصِـيّ مكرُمَـةً   أَقَوْمُـهُ البِـيضُ أمْ آبَـاؤهُ الصِّـيدُ
أمْ أُذْنُـهُ في يَـدِ النّخّـاسِ دامِـيَـةً   أمْ قَـدْرُهُ وَهْـوَ بالفَلْسَـينِ مَـرْدودُ[١]

وإنّما اللوم على مَنْ وضعهم بهذا الموضع الرفيع، وسلّطهم على الشريف والوضيع، أحقّاً هذا الأسود الطماطماني[٢]، الأبكم القَرْنان، الأعجم اللسان، يدخل في قندرته داخل الحجرة النبويّة والروضة المقدَّسة الروحيّة، والأعلام والأشراف، والمنيفون من بني (عبد مناف) يقفون وراء مشبكات الحديد، ويرمون السلام من بعيد، فإذا خرج أولئك العبيد واستداروا في الحرم لوظائف الخدمة، وتعظيم الحرمة، استبدلوا عن ذلك بتفريق الكلمة، وتشتيت جماع الأمة، وجعل المسلمين طرائق قدداً، ليعود بعضهم لبعض عدوانا، وقد جعلهم الله برحمته إخواناً، فيعاملون كلاً من الناس بما تأمرهم به أحلامهم، ويا حبّذا لو كانت لهم أحلام، ولكن صور الرجال ولا رجال، وعقول ربات الحجال، وما البثّ والشكوى إلاّ إلى عالم السرّ والنَّجوَى، من هذه الرزايا، وسرّ نتائج هذه القضايا التي ستقضي علينا أو كادتْ وأساءتْ ديننا ودنيانا بل زادتْ، والأمل الأشجى اننّا مع هذه الأحوال نأمل أن يعود إلينا مجدنا الأوّل، وعزّنا الأمثل، حتّى نقف ولا أقل في صفّ الأُمَم الراقية بعد أن كُنّا أمامهم، وهيهات مع هذه الأعمال والنيّات أسعف الله بنصره المُسلم المسكين السالك في سبيل الله لحجّ بيته الحرام، ماذا يقاسي من الشدائد، والمهانات، والمحن، وهتك الحرمات،

---

(١) أنظر: (شرح ديوان المتنبي، للبرقوقي) ٢ : ١٤٧ – ١٤٨.

(٢) الطمطم، والطمطمي، والطمطماني: هو الأعجم الذي لا يفصح.

يتدافعه ظالم إلى ظالم، ويتهادى من غاشم إلى غاشم. (الحجاز) وما أدراك ما (الحجاز)، ما مرّ العدل والإنصاف بها ولا جاز، باديتها (بنو حرب) وما أدراك ما (بنو حرب) أحقّ ما نتمثل فيهم ما قاله الفاروقي [١] في إخوانهم:

واحرباً يا آل حَرْبٍ منكُمُ ... يا آلَ حَرْبٍ مِنْكُمُ واحَرَبا
فيكم وعنكم وبكم ومنكم ... ما لو شَرَحْناهُ فضحنا الكتبا [٢]

وأمّا حاضرتها فلتعدياتهم بحرٌ من الظلم مُظلم، وعندها (حدّث عن ذلك البحر ولا حرج)، ولولا الثّقة واليقين بما عند الله من الأجر وحسن الجزاء، وكريمة ما يصيبهم نَصَب ولا مخمصة الا كتب له به عمل صالح [٣]، وخشية الإثم والحرج من تثبيط المسلمين عن هذا العمل الطائل الّذي هو من أعظم شعائر الإسلام لقلتُ: إنَّ الحجّ قد انقلبَ بهذه الأحوال والأعوام من الوجوب إلى الحرمة، قل لي: - هداك الله - أين أمنيّة السرب التي هي من أهم شرائط

---

(١) عبد الباقي بن سليمان بن أحمد العمري الفاروقي الموصلي، (١٢٠٤ - ١٢٧٩هـ = ١٧٩٠ - ١٨٦٢ م): شاعر، مؤرخ. ولد بالموصل وولي فيها ثم ببغداد أعمالا حكومية، وتوفي ببغداد. له (الترياق الفاروقي - ط) وهو ديوان شعره، و (نزهة الدهر في تراجم فضلاء العصر)، و(نزهة الدنيا - خ)، ترجم فيه بعض رجال الموصل من معاصريه، و (الباقيات الصالحات) قصائد في مدح أهل البيت، و(أهلة الأفكار في مغاني الابتكار) من شعره.
ظ: (الاعلام ٣: ٢٧١ - ٢٧٢).

(٢) ظ: (الترياق الفاروقي أو (ديوان عبد الباقي العُمَري) ٩٥ - ٩٦).

(٣) أفاد من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ سورة التوبة: ١٢٠.

الاستطاعة؟، ولا سيّما على المستضعفين من الإيرانيين الّذين [هُم] ولا سيّما اليوم كأغنام غاب عنها رعاتها فأصبحتْ الذئاب والكلاب تختطفها من كل جانب؛ بل أحد المفترسين لها [هُم] الموكلون برعايتها وسفارتها.

(والحديث شجون) وما هي إلا نفثات مصدور، وإلا فـ:

لَسْتُ مِنْ قَيْسَ وَلاَ قَيْسُ مِني (١)

ولكن الجور ذميم، والبغي مرتعه وخيم، وشفاقي وحناني بما رزئت من بياني على أمتي وأبناء جنسي أكثر وأوفر منه على أولئك المستضعفين، أحسنوا أم أساءوا، والإحسان إلى المسيء أحسن في ردعه عن عمله السيء، لو صحتْ الألباب، وسلمتْ الطباع، وأصاختْ الآذان والأسماع، ولا تكونَنَّ مقالتي هذه موهنة لعزيمة أحد من المسلمين من أيّ العناصر كانوا عن المبادرة والنهوض لأداء هذا المفروض، ولو بالتوطين - عافاك الله - على اغتصاب نفسك، ورضخ بعض تلك الصخور السود من الحَرَّات على أمّ رأسك، وتمزيق لحمك، وإراقة دمك، وأخذ دراهمك من محزمك، فإنَّ كلَّ ذلك يلذّ لك ويهون عليك بتذكّر كريمة قوله (تعالى): ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٠٠] إن كنتَ موقناً بالله، واثقاً بما عنده، كما أحسبك كذلك، وقد تغرّبتَ من بيتك إلى بيته ملبّياً نداء صوت نبيّه وصوته، وإنّي

---

(١) قال ابن هشام: في النفس من هذا البيت شيء؛ لأنّا لم نعرف له قائلاً ولا نظيراً:

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْهُمْ وَعَنِّي ... لَسْتُ مِنْ قَيْسَ وَلاَ قَيْسُ مني

ظ: (خزانة الأدب ٥: ٣٨٠ - ٣٨١).

لأهنّي وأرى الفوز والبشرى لمن وفّقه الله لمقاساة هذه الأهوال، وسيئات تلك الأعمال، وأحتسبها في جنب الله وفي سبيله؛ فعسى أن يتقبّل الله بذلك عملهم وينجح أملهم، والله - سبحانه - لا يضيّع أجر من أحسن عملاً، وهو للظالم بالمرصاد، فما أسرع ما تقوم للمرء بموته القيامة، والجزاء عند ذلك أمامَه، والحساب بالعدل قدّامه، فلينظر كلّ أمرء لنفسه، وليختر لها ما شاء أحسن أم أساء، ونحن لا نملك إلاّ الدعاء، في إصلاح كل فاسد من أمور المسلمين - إن شاء الله - إنَّه أرحمُ الراحمين.

زيارة حمزة بن عبد المطلب

ولنعد إلى القصد خرجنا يوم الجمعة ١٤ من المحرم إلى زيارة أسد الله وأسد رسوله، حمزة بن عبد المطلب عليه السلام فركبنا العربيّة مع الرفاق حتّى أتينا إلى مرقده الشريف، وقبته البيضاء، فحال بيننا وبين الدخول الزاعمون أنّهم قوّامه وخدّامه، والحقّ أنّهم ظلاّمه، وما فيهم من (أنسيّ) بل الحقيقة أنَّهم شركاء قاتله و(حشيّ)، وما سمحوا لنا بالرخصة حتّى أخذوا الرسم من كل واحد قرشين صاع، وعدّونا عدّ الأغنام، ومن العجمي يأخذون أربعة أو أزيد، وهناك الصدم واللدم، والنزاع والدفاع، وبعد الفراغ من الزيارة والدعاء والصلاة والضراعة على أحسن الوجوه وأكملها من الرقة والخشوع، والابتهال والخضوع، صرنا نستدير في روضته الشريفة التي هي في غاية الفراهة واللطافة، والحسن والنيقة، وكان قد عُلّق على أطرافها وجوانبها وجُدرها وأرجائها ألواح وصفائح كثيرة، فيها مقاطيع وقصائد في مدح حمزة وأهل البيت عليهم السلام ولكنّه أكثره واهي النَّظم، محلول العرى إلاّ القليل منه، وفيها قِطعٌ موشومةٌ بآيةٍ شريفةٍ، أو حديث شريف، أو كلمة حكمة

محكمة، أو ما أشبه ذلك من بيت شعر أو فقرة ذكر، وكان ممّا أعجبني منها قطعة كبيرة بخط في غاية الحسن والجمال، فيها البيتان المشهوران، يحسن التفأل بهما لتفريج هذه الشدائد - إن شاء الله تعالى - وهما:

دع المقادير تجري في أعنّتها ... ولا تبيتنّ إلاّ خاليَ البالِ
ما بين غمضة عين وانتباهتها ... يبدّلُ الله من حالٍ إلى حالِ[1]

ومن الفقرات التي أعجبني شريف مضمونها، وعلوّ قدر مرموزها، واشتماله على الجليل من الحكمة العالية، قطعة كانت بالخط الجيّد الأنيق فيها (العقلُ آلةٌ لأدآء العبوديّة لا لإدراك الربوبيّة)[2]، نعم ما أصدقها، واسمقها، وأجلّها، وأجملها، وأعلاها، وأغلاها، وبالجملة فكل تلك الألواح والصفائح مرقومة بجيد الخطوط، مزيّنة من الذهب بأحسن الزينة كالتي في (قبر خديجة)، و(آمنة)[3] في الأبطح بمكّة.

---

(١) ظ: (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥: ٣٢٠).

(٢) ورد هذا النصٌّ الشريف في (مستدرك نهج البلاغة ص٦١) ونصّه: (إنَّ العقلَ لإقامة رسم العبوديّة لا لادراك الربوبيّة).

(٣) قبر آمنة: وهو مكان من بروث دفدَف بطرف وادي الخُرَيبة (الأبواء) من الشمال الغربي، فيه بناية بالحجر الجاف مسقفة بخشب الأشجار المحليّة والأذخر، ومتعارف في هذه الديار من مسافات بعيدة بأنه قبر أمه (صلى الله عليه وسلم) وكان يزار؛ فلما استولتْ الحكومة السعودية عليه هدمته بحجّة، زيارته بدعة شركية، ثم اختلس من بناه بناء كالرضم وهي حالته اليوم، يبعد هذا البناء (٢٥)كم شرق مستورة، وثلاثة اكيال غرب سكن أهل الأبواء، وقفت عليه في ١٣٩٣/١/٢٩هـ فإذا هو في خلاء مقفر من الرواد موحشة أرضه لا أنيس فيها... .
ظ: (معجم معالم الحجاز ٧: ١٣٤٩).

مساجد وزيارة قبور (شهداء أحد)

ثـم خرجنـا لزيـارة قبـور (شـهداء أحـد)، وهـم فـي بقعـة إلـى جنـب صـحنه الشريف، وليس لهم قبر مشيّد، ولكن في تلك (البطحاء)[1] مـن سـفح أُحـد قبب كثيرة، ومشاهد متعددة، ومساجد مشيّدة، منهـا: (مسـجد الأحـزاب)[2]، و(مسـجد القبلتين)[3]، و(مسجد الثنايا)، و(مسجد الدرع)[4]، و(مصرع حمزة)، وهـي كثيـرة لا تحصى، ولا كان يسع الوقت للتشرف بجميعها.

خطيب الجمعة في المدينة المنورة

ثم عدنا إلى البلد قبـل الظهـر بسـاعة، فـدخلتُ مـن (بـاب المجيديـة)، وهـي أقرب أبواب البلد إلى الحرم الشريف، فتشرّفتُ بالدخول إلى (المسـجد النبـويّ)

---

(١) تقدّم التعريف بـ(الأبطح، البطاح).

(٢) مسجد الأحزاب: ويُسمّى (مسجد الأعلى)، و(مسجد الفتح) . صلى فيـه رسـول الله (ص) فـي أثناء محاصرة الأحزاب المدينة ثلاثة أيام، ودعا عليهم فاستجاب الله له، يرتفع على قطعة مـن جبل سَلع في المغرب، غربية وادي بطحان.

ظ: (المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ص ٤٠١).

(٣) مسجد القبلتين: وهو في الشمال الغربي للمدينـة فـي رابيـة علـى شـفير وادي العقيـق الصـغير. سمّي بالقبلتين لأن النبي (صلى الله عليه واله) صلّى فيه إلى بيت المقدس وأمـر فيـه بالتحويـل إلى الكعبة المشرّفة.

ظ: (مرآة الحرمين ١: ٤١٤ – ٤١٦).

(٤) مسجد الدرع: سمّي بالدرع؛ لأنّ النبي (صلى الله عليه واله) وضـع درعـه وهـو لبـاس الحـرب الخاص به، يقع هذا المسجد على يسار طريـق سـيد الشـهداء وقبـل المسـتراح بثلاثمائـة متـر، وبناءه عثماني، وقد جدد في الوقت الحاضر.

ظ: (المساجد والأماكن الأثرية في المدينة المنورة ص٣٤).

لإدراك صلاة الجمعة والخطبة، فوجدتُ المسجد على عظيم سَعتهِ غاصّاً بالناس، ما بين واحد إلى الآخر (مفحص قطاة)[١]، وهم أجناسٌ متشتتةٌ، وأنواعٌ وعناصرُ مختلفةٌ من شرق الأرض وغربها، بين عربي وهم الأقل، وتركي، وهندي، وبخاري، ومغولي، وكاشغري وهم الأكثر، فتخطيتُ الصفوفَ بجهدٍ ومشقّةٍ حتّى أتيتُ قبالة المنبر الشريف النبوي، وهناك الازدحام الشديد، فجلستُ بين الصفين بعد التماس من الجالسين، أنتظر الخطبة، فطال الانتظار ونحن في تطلّع واستشراف إلى طلوع الخطيب تطلع المستهلين إلى هلال العيد، ونحتسب أن سيطلع - على ذلك الجمع الكثير، والجمّ الغفير، المشتمل على جملة من أعيان الرجال، وأفاضل الأمم الشتى في ذلك المسجد المعظّم - خطيب تُمتّع بخطبته الأسماع والألباب، وتنشرح به الصدور والأذهان، ويملي علينا من المعقول والمنقول ما يبهر العقول؛ (إذ ما وراء عبادان قرية)، وهذا أعظم مَحْفَلٍ ومجتمع للمسلمين، فهل يحسن أن يقوم به فيهم إلاّ المِصْقَعُ البليغ، واللّسن الفصيح، والأغر الصبيح، الجهير الصوت، البعيد الفوت، ولكن على رغم الفضل وأهله بعد تقطّع الأعناق انتظاراً، وتلف أكثر الوقت خساراً، طلع علينا أسودٌ أحصّ، حسبته أحد أولئك المخاصي سوى أنّه معمّمٌ بعمامةٍ مطويّةٍ غير طبقيّة، مُرْتَدٍ بعبائة خفيفة، مُتقلّد سيفاً قد توشح بحمائله، فلمّا رأيتهُ رقى منبر النَّبيّ ﷺ الّذي هو مصبُّ النور والرحمة، ومفاضة البركة والنعمة، استحقرته وأسفتُ على ذلك، ثم راجعتُ حلمي، وأثبتُ إلى حزمي، وقلتُ: إنَّ الرجالَ مخابرٌ لا مناظر؛ ولعلّه قد امتاز بميزة أوجبت له التقدّم على المشاهير والأكابر، فالمرء كلّه لسانه وعقله

---

(١) مفحص قطاة: مجثم القطاة لأنّها تفحصه.

وَلَمْ يَبْقَ إلاّ صُورَةُ اللّحمِ والدّمِ [(١)]

ثم بقيتُ أنتظر بعد الآذان خطبته لعلّي أعرف ولو قليلاً منزلته، فلمّا شرع في الخطبة زادني كربة على كربة، ففاضتْ عبرتي، وتتابعتْ حسرتي، على تولية هذه المقامات العالية غير أهلها، وتضييع الحقوق والحدود القاضي بتساوي الناس في علمها وجهلها، وبالجملة فقد كان عيي اللسان، ظاهر اللكنة، خفيّ الصوت، لا يظهر ولا يمتاز كلامه لأقرب الناس منه، لا سواد له إلاّ ما على بشرته أو سويداء قلبه، وأطال وما أتى بطائل، نعم أكثر من التسجيعات الباردة، والألفاظ الكاسدة، حتّى مللتُ برماً، ووددتُ لو أجد للفرار سُلّماً، ثم بعد تمام الخطبتين والأذانين أقحمتُ نفسي في بعض الصفوف، وتقدّم الإمام ولم أسمعْ ماذا قرأ وكيف قرأ، ثم خرجتُ ولم أنتفعْ شيئاً سوى الكدر والأسف، وسكب الدموع واللهف، الّذي أرجو أن يثيبني الله عليه لاحتراقي على الإسلام، وضيعة أهله، وفقدان صاحبه، وقد صرفنا هنالك ساعتين من النهار أو أكثر، فكان دخولنا أوّل السادسة وخروجنا بعد الثامنة.

مسجد قُباء ومعالم أخرى

ثم توجّهتُ صباح السبت ١٨ المحرم الحرام إلى (مسجد قُباء)[(٢)] وهو

---

(١) عجزُ بيتٍ، من معلّقة لزهير ابن ابي سُلمى وشطره:

لِسانُ الفَتى نِصْفٌ ونصفٌ فُؤادُهُ

انظر: (ديوانه، من معلّقته بشرح الزوزني ٩٤).

(٢) قُبا: وأصله اسم بئر هناك عرفت القرية بها، وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار، وهي قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكّة بها أثر بنيان كثير، كان المتقدّمون في الهجرة من أصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم)، ومَنْ نزلوا عليه من الأنصار بنوا بقُباء مسجداً يصلون فيه الصلاة سنة الى البيت المقدّس، فلما هاجر رسول ←

المسجد الّذي ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة من آية ١٠٨]، وكان أصحابي قد تقاعدوا عن زيارته حذراً من عدم أمنيّة الطريق، وليس الأمر كذلك؛ فإنّي خرجتُ إليه مع بعض أهل (المدينة) من صلحائهم وأهل المعرفة فيهم، وكان الطريق جَادَّة عريضة والبساتين متَّصلة من الجانبين من (باب قُباء) التي هي أحد (أبواب المدينة)، وهي في جهة جنوبها، كما أنَّ (الباب الشامي) الخارجة إلى (أُحد) من جهة شمالها، و(العنبرية) في مغربها، و(المجيدية) في مشرقها، وكان الطريقُ مسلوكاً كثير المارة، وعن يمين الطريق بفاصلة قليلة قلعة للحكومة حصينة في ارتفاع واحكامات موصدة، وبروج مشيّدة ومدافع كثيرة، وعسكر مجْر(١)، حتّى أتينا المسجد الشريف، وهو مسجد كبير كنصف (مسجد سهيل)(٢)، ولكنَّه في غاية الإتقان وحسن العمارة، فصلّينا فيه وردنا، وقرأنا الموظف من الأدعية والأذكار، وذكر إخواننا المؤمنين، ثم خرجنا إلى ما حوله من المشاهد الشريفة، كـ(بيت الخلوة) لأمير المؤمنين، و(الزهراء)، و(مشربة أم إبراهيم)(٣)، و(بيت عزلة النَّبي) (صلوات الله عليه وآله)، وهذه

←

الله ﷺ، وورد قُباء صلى بهم فيه، و أهل قباء يقولون: هو المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، و قيل إنه مسجد رسول الله ﷺ، و قد وسع مسجد قباء و كبّر بعد...
ظ: (معجم البلدان ٤: ٣٠١ – ٣٠٢).

(١) المجْر: الجيش العظيم أو الكثير.

(٢) مسجد السهلة: أحد أكبر المساجد في الكوفة.

(٣) مَشربة أم إبراهيم: (في المناسك ٤٠٢): بستان في عوالي المدينة، صلى الرسول ﷺ فيه . وفي (التعريف، للمطيري ص ٤٩): ان النبي ﷺ صلى في مشربة أم إبراهيم عليها السلام، قلت: وهذا الموضع شمالي مسجد بني قريظة قريب من الحرة الشرقية في موضع يعرف بـ(الدشت) بين نخل يعرف بالأشراف القواسم... . وفي (مجمع البحرين ٢: ٨٩): وإنما سميت بذلك لأنَّ
←

البيوت مواضع تفرّغهم للعبادة، وعليها تستدير بساتينهم ومزارعهم، وهناك ثلاثة ضياع تمتد من (المدينة) إلى أكثر من فرسخين، والضِّيَاع: (قُبا)[١]، و(العَوالي)[٢]، و(قُربان)[٣] وهي في الجنوب إلى المشرق، أما (فدك) فهي في الشمال في ناحية (أحد)، وتمتد إلى (خيبر)[٤] مسافة أربعة أيّام.

والسفح (الأبطح) الّذي يشتمل على (المدينة) وبساتينها وضياعها واقع بين (عير) و(وعير)[٥] غرباً وشرقاً، وهما جبلان عظيمان، وبين الحرّتين شمالاً

→

إبراهيم بن النبي ﷺ ولدته أمه فيها وتعلقتْ حين ضربها المخاض بخشبة من خشب تلك المشربة، وقد ذرعت من القبلة إلى الشمال أحد عشر ذراعا.

(١) قُبا: حي جميل من أحياء المدينة المنورة، يقع جنوب المسجد النبوي على قرابة ستة أكيال، له شارع جميل رأسه الجنوبي (قبا) ورأسه الشمالي (مسجد الغَمامة).
ظ: (معجم معالم الحجاز ٧: ١٣٤٧).

(٢) العَوالي: جمع عالية: أعلى المدينة حيث يبدأ وادي طحان الذي صار يسمّى اليوم(أبو جِيدة). أرض زراعية عامر بالبساتين، فيها أنواع الأشجار والخضار، والنخيل الذي تشتهر به، سكانها خليط من حرب والنخاولة، وهم شيعيو المذهب وأهل الديار من القبائل يتحاشون التزاوج معهم ... .
(م. ن. ٦: ١٢١٣ – ١٢١٤).

(٣) قُربان: قرية عامرة بالمدينة المنورة في الجنوب الشرقي مجاورة لقرية قُبا من الشرق.
(م. ن. ٧: ١٣٦٦).

(٤) خيْبَر: وهي ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام، يطلق هذا الاسم على الولاية، وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير، وقد فتحها النبي (صلى الله عليه وسلم)، كلّها في سنة ٧ للهجرة وقيل سنة ٨.. (معجم البلدان ٢: ٤٠٩ – ٤١١). وفي (معجم معالم الحجاز ٣: ٥٨١): مدينة تاريخية شمال المدينة بـ(١٧١) كـ على الجادَّة إلى تبوك، فيها اليوم محكمة شرعية وإمارة شرطة وعشر مدارس، وفيها من العيون (١٨٠) عين جارية، وقد بولغ في عدد نخيله فقيل: ثلاثة ملايين نخلة.

(٥) قال ياقوت في معجمه ٤: ١٧٢: (... وذكر لي بعض أهل الحجاز أنَّ بالمدينة جبلين يقال:

←

وجنوباً، وهذه هي حدود حرم (المدينة) ومسافته طولاً بين (عير) و(وعير) ثلاثة فراسخ وبين الحرّتين عرضاً ثلاثة أميال تقريباً، وإلى قرب (قُباء) آبار كثيرة يُستقى منها بالنواضح والسّواني[١] لتلك البساتين والنخيل، منها (بئر الخاتم)[٢] التي وقع فيها خاتم النَّبي (صلوات الله عليه واله) فطابَ ماؤها وعذب، فهي حتّى الآن من أعذب المياه وأطيبها.

ومنها (بئر الزَّرقة)[٣] التي هي مجمّع مياه عدَّة آبار وعيون تنصبّ فيها ثم يجري منها في قناة تحت الأرض إلى البلد، ومنها مستقى عامَّة البلد وأهلها والمترددين إليها، وتنفتح فيها على القناة فُوَّهات في الأزقة يستقي منه أهل ذلك الزقاق، وفي البلد أيضاً برك ومزملات كثيرة مسبلة لعامَّة الناس، وماء تلك البئر الملفق عذب طيب، ولكن هو دون ماء (الخاتم) الّذي هو أحد ما ينصب فيها، وفي طرف (أُحد)

←

لأحدهما عير الوارد، والآخر عير الصادر، وهما متقاربان...) . وفي معجم معالم الحجاز ٦: ١٢٢١: (عَيْر: جبل أسود بحمرة مستطيل من الشرق إلى الغرب يشرف على المدينة المنورة من الجنوب تراه على بعد عشرة أكيال، وهو حد حرمها من الجنوب، يتصل بحرة النقيع في الشرق...).

(١) السّواني: جمع السانية: الناضحة، وهي الناقة التي يستقى عليها.

(٢) بئر أريس أو بئر الخاتم: لا تزال معروفة بجوار قُباء في ساحة تقف فيها السيارات، وقد طمت بأمر من السلطات هناك، ولكن فوهتها لا تزال معروفة، أشار إليها خادم بمنى في مقهى، فوقفت عليها فإذا هي آثار طيها ترى بصعوبة... .
ظ: (معجم معالم الحجاز ١: ١٥٢- ١٥٣).

(٣) بئر الزَّرقة أو الزَّرقاء: بلفظ مؤنث الأزرق من الألوان، هي العين التي تسقي أهل المدينة، أجريت إليها في ولاية مروان بن الحكم، في الآونة الأخيرة كثر السكان فأضيفت إليها آبار لسقي البلد، ولكن الزرقاء ظلت هي الأساس كعين زبيدة بالنسبة إلى مكَّة المكرمة.
ظ (م. ن. ٤: ٧٥٨).

أيضاً آبار وقنوات وبرك كثيرة بعضها حارة، وفي طرفها عمارة شبه الحمّام ولكن الجميع مجّ أجاج، ووبئ آسن، تستقي منه البساتين ولا يدخل شيء منه إلى البلد، وبعد الفراغ من السير وبعض السير رجعنا إلى محلّنا أزيف الظهر.

خبر وفاة الشيخ الخراساني تدّس سرّه

وفي هذا اليوم عصراً وردتنا من النَّجف مكاتيب من بعض أعزّة إخواننا - حرس الله سعادتهم وأدام مودّتهم - وفيه أخبار موحشة، ووقائع مدهشة، أشدّها وأوجعها، وأمضها وأفظعها، خبر تهاجم الدولتين الغاشمتين الظالمتين، والحوتين المحتالتين، الدّب الروسي، والدّب البريطاني، كبحتْ آمالهم ولا نجحتْ أعمالهم، وضلّ سعيهم في الحياة الدنيا كما ضلّ في الأخرى.

ومن المدهشات أيضاً خبر وفاة الأستاذ الشهير[1] الّذي ملأ صيته الآفاق، وانعقدتْ الخناصر على أنّه الحائز في التحقيق قصب السباق، المجدّ في ترويج الدستور والحرية في دولة إيران، تلك الحرية التي حنظلتْ نخلاتها، وساءتْ ثمراتها، ووخمتْ عاقبتها ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق من آية ٩] وصار الأمر فيها على حدّ قوله:

مثل الحمار مضى يروم لرأسه ... قَرْناً فعاد وما له أُذُنان[2]

ولا يختلجن في وهمك أنّي أريد الغضّ من الحريّةِ والغميزة فيها، لا وكلا؛

---

(١) هو الآخوند الملاّ محمد كاظم ابن الملاّ حسين الخراساني النجفي. (توفي سنة ١٣٢٩هـ - ١٩١١م) . علامة إمام بل حجّة الإسلام وآية الله في الأنام، بلغ عدد تلاميذه أكثر من ألف تلاميذ. ظ: (النقباء ١٧: ٦٥- ٦٨).

(٢) لم أعثر على قائله.

ولكن أين الحريّة؟ وأين النفوس المستعدة لها؟، والطباع الصحيحة القابلة للتناول منها؟ وهل هو إلا كسقي الألبان للمزكوم، وإطعام الحوامض للمحموم، يريده وهو يرديه، ويهواه وفيه مهاويه - فإنّا لله وإنّا إليه راجعون - والحديث شجون:

فمطاع المقال غير سديد وسديد المقال غير مطاع[(١)]

والغرض أنّي من حين الوقوف على تلك الوقائع والفجائع، ألجمّ آلكمد فمي بلجام عن الطعام والكلام، وبتُّ - سلّمك الله - بليلة السليم[(٢)]، أراعي على ما يزعمون (بنات السديم)، تتدافعني الحسرات إلى أخواتها ولا تتمنى النفس سوى منيّاتها، وكنتُ أقول لمن بحيالي، وللسائل عن أحوالي: أما - وعزّة الله - أنّي لا أرى الآن شيئاً أشهى إلى نفسي من الموت؛ إذ لا أجد في الحياة إلاّ تجرّع سموم الحيّات، كيف لا - وأعزّك الله - وأن أولئك الأقزام الطغام، لا تزال تنهش لحومنا وتعرقها عرق الكلاب للعظام، وقد تركتنا (لحماً على وضم)[(٣)]

ونفضتنا من شرفنا نفض الوذام، فكيف يَلَذُّ العيش للغيور، أو يطيب له معهما المقام:

كيف الحياة مع الحيّات في سفط[(٤)]

---

(١) ظ: (شرح ديوان أبي فراس الحمداني ص ٢٩٠).

(٢) السليم: لملدوغ.

(٣) أفاد من قول أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: النساء لحم على وضم إلا ما ذبَّ عنه.
ظ: (مستدرك الوسائل ١٤: ٢٥٣).
والوضم: الخشبة التي يوضع عليها اللحم، تقيه من الأرض. أراد أنّنا من الضعف مثل ذلك اللحم الذي لا يدفع عن نفسه إلا منْ يذبّ أو يدفع عنه.

(٤) لعبد الله بنُ فرج اليحصبي المشهور بـ(ابن العسال)، وصدره:
ونحن بين عدو لا يفارقنا
ظ: (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٤: ٣٥٢).

نعم.

وغاية الشيء تُدْرَى من مبادئه[١]

ولقد كان ذو النظر النافذ، والرأي الثاقب، الّذي يبصر عواقب الأمور من خلال الستور، لا يرتاب في نزول هذه الزلازل الفادحة التي تقضي على شرف الإستقلال بل تأتي على مهجة الإسلام وروحه، وتجعلها فريسة للذئاب العادية التي هي لها بالمرصاد، ولكن كُنّا نسأل من لا يُغلب على أمره، أن ينسأ[٢] ذلك عن آجالنا أو يقدّم آجالنا عليها، كي لا نرى مثل هذا الرزء الفادح، والخطب الجلل، ولكن سبحان من لا تبدّل حكمته الوسائل، وهو غالب على أمره، وإنّنا لنعوذ به من اليوم الّذي هو شرٌّ من هذا:

ما أن دُفعت إلى زمانٍ آخرٍ إلاّ بكَيْتُ على الزّمانِ الأوّل[٣]

مكتبة عارف حكمت

والقصارى أنّه لمّا تكاثفتْ عليّ غيوم الغموم، وتكتفتني هوام الهموم، وجزعتُ من الدنيا وصارت عليّ كحلقة خاتم، وجفلتُ حتّى عن عمل البرّ من الدعاء والزيارة، طفقتُ أتطلّب لنفسي ما تتعلّل به وتستريح إليه من أوجاع تلك العلل، فتنبهتُ إلى الحضور في خزانات الكتب النبويّة، وصرف شطر من الزمان

---

(١) لم أعثر على قائله.

(٢) ينسأ: يؤخر.

(٣) البيت لأبي بكر أحمد بن محمّد بن الحسين الأرجاني.
في الديوان (وصلتُ) بدل (دفعت).
ظ: (ديوان الأرجاني ٣: ١٠٥٩).

فيها تسلية للنفس وترويحاً لها بأعزّ شيء عليها، وأحبّ النفائس إليها، ففزعتُ إلى أعظمها وأشهرها وهي مكتبة شيخ الإسلام في الاستانة (عارف حكمة)(١) من أعيان أوائل القرن الثالث عشر، ومكتبته إلى جنب (الحرم النبوي) ممّا يلي (باب جبرئيل ﷺ) و(مشهد عثمان بن عفان)، وهي عبارة عن إدارة كبيرة، ودار واسعة فيها محلاّت متعددة وفسحة منتزه، وموضع الكتب منها حجرة كبيرة مرتفعة مفروشة بأزين الأفرشة وأحسن الأقمشة، والكتب في صناديق من الأخشاب الصنيعة بأليق الصناعة، والأبواب من الجام المرمري، وبرنامجها عبارة عن ثلاثة مجلدات كبيرة في عرض طبقة من المهارق في ترتيب فائق وتنسيق رائق، كل علم على حدّه مرتب ذلك العلم على الحروف الهجائيّة، وفي الصفحة جداول عدد النمرة، واسم الكتاب، واسم مصنّفه بترجمة مختصرة، وعدد صفحاته، وذكر جملة من أوّل ديباجة الكتاب وآخره، وهي تشتمل على كافة العلوم، حتّى الرمل، والجفر، والحروف، والزايرجة؛ فضلاً عن مثل الحساب، والهندسة، والتسطيح، والكرات، والأسطرلاب؛ بل وحتّى العلوم الطريفة على طرزها

---

(١) أحمد عارف حكمت بن إبراهيم بن عصمت بن إسماعيل رائف باشا [الشريف الحُسينّي] (١٢٠٠ - ١٢٧٥ هـ = ١٧٨٥ - ١٨٥٨م)، قاضٍ تركي المنشأ، اشتهر بخزانة كتب عظيمة له في المدينة المنورة، تعرف إلى اليوم بمكتبة (عارف حكمت). تقلّد قضاء القدس، ثم قضاء مصر، فقضاء المدينة المنورة، وانتهى به الصعود إلى أن وليّ مشيخة الإسلام في الآستانة سنة ١٢٦٢هـ له نظم باللغات العربية والفارسية والتركية، وكتاب بالعربية سماه (الاحكام المرعية في الأراضي الأميرية)، و(مجموعة تراجم) لعلماء القرن الثالث عشر، وله (ديوان شعر - ط) بالعربية والتركية والفارسية . وللشهاب محمود الآلوسي كتاب في ترجمته سماه (شهي النغم في ترجمة عارف الحكم - خ).
ظ: (الأعلام ١: ١٤١).

الحديث، كالجغرافية، والتعليمات العسكرية، وأمثالها، وغير ذلك من نظائرها.

أمّا عددها فنفس العِدَّة التي أوقفها ذلك الشهم الغيور العارف، وجاء بها من الآستانة إلى تلك البقعة المقدّسة، فثلاثة عشر ألف كلّها من نفائس الكتب القلميّة المجدولة بأنواع الذهب، وأحسن الزينة، وأجود الخطوط، وأكثر الكتب مخطوطة وهي حتّى الآن غير مطبوعة ولا متداولة، وفيها ما لم نسمعْ به فضلاً عن عدم رؤيته، ثم أضيف لها عدّة من بعده لم تدخلْ في البرنامج، وهم مشغولون في تجديد برنامج للجميع، وفيها عشرة من العَمَلة الموظفين لمراعاتها والمحافظين عليها وخدمة الواردين إليها، ولكل واحد منهم راتب يُجرى له كل شهر من أوقاف في الاستانه من مبرات ذلك الشهم، يبلغ ما يجري عليها كل شهر للمحرّر، والمدير، والمجلّد، وغير ذلك ما يزيد على مائة ألف قرش (مائة ليرة)، ومكثتُ هنالك أكثر من خمس ساعات، صرفتُ ساعتين منها في مطالعة البرنامج، ثم طلبتُ من القائمين هناك بعض الكتب فأحضروها بلا مهلة حسب (النمرو) وكل كتاب منها رأيتُه عشقته، ووددتُ أنّني فارقتُ كلّ شيءٍ وما فارقته، فمما نظرتُ فيه كتاب (البرهان في إعجاز القرآن) للزملكاني[(١)]، من خطوط القرن السابع، وتصانيف [أخرى]، وهو فضلاً عن حسنه الجوهريّ، وتفوّقه الذاتي مزيّن بالمُحَسَّنات العرضية من جودة الخط والزينة الذهبية،

---

(١) محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري كمال الدين أبو المعالي الدمشقي الشافعي المصري قاضي حلب المعروف بـ(ابن الزملكاني)، (ولد سنة ٦٦٧ هـ - وتوفى سنة ٧٢٧ هـ). له من التصانيف (البرهان في إعجازالقرآن).

ظ: (هدية العارفين ٢ : ١٤٦).

ورشاقة الجداول، وقد نظرتُ في عدّة من فصوله، فأعجبني وآنسني، وكان موضع نظري منه كريمة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الانعام من آية ١٠٠]، وبيان نكتة التقديم في شركاء، وفوتها مع التأخير الّذي هو على الأصل، ومن كتبها النَّفيسَة (التحفة الشاهية)[١] و(نهاية الإدراك في دراية الأفلاك) للقطب الشيرازي[٢]، وأكثر كتب سلطان المحققين (نصير الدين الطوسي)[٣]، - شكرتْ مساعيه الجميلة - والجميع على ذلك الطرز البديع الفائق في مجلدات رائقة، وتحسينات شائقة، وعلى أوائل أوراق كافة تلك الكتب طرة كبيرة فيها صورة وقفيتها على (الحضرة النبويّة)، واشتراط عدم إخراجها من ذلك المحلّ الخاصّ،

---

(١) التحفة الشاهية: للسيد الأمير عبد الرحيم بن محمد الحسيني الجرجاني المعاصر للسلطان شاه طهماسب الصفوي، ألفه في مشهد عبد العظيم عليه السلام في سنة (٩٧٨ هـ)، رتبّه على خمسة مقاصد وخاتمة (١) في الطهارة (٢) في الصلاة (٣) في أمان الكفار (٤) في أحكام الأسارى (٥) في اللقطة، والخاتمة أيضا في بعض مسائل اللقطة.

ظ: (الذريعة ٣: ٤٤٤).

(٢) (قطب الدين) محمّد بن مسعود بن مصلَح الشيرازي. حكيم، فلكي، طبيب. ولد بشيراز سنة (٦٣٤هـ)، ودخل بغداد، ودمشق، ومصر، واستوطن بالآخرة في تبريز إلى أن توفي سنة (٧١٠هـ). من آثاره : (شرح مفتاح السكاكي)، (شرح حكمة الاشراق) للسهروردي، (نهاية الادراك في دراية الأفلاك)، رسالة في بيان الحاجة إلى الطب وآداب الأطباء ووصاياهم، (رسالة في البرص)، و(التحفة الشاهية في الهيئة).

ظ: (معجم المؤلفين ١٢: ٢٠ -٢١).

(٣) محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي (٥٩٧ - ٦٧٢ هـ = ١٢٠١ - ١٢٧٤م): فيلسوف، كان رأسا في العلوم العقلية، علامة بالارصاد، والمجسطي، والرياضيات، علتْ منزلته عند (هولاكو) فكان يطيعه فيما يشير به عليه، صنّف كتبا جليلة وكثيرة.

ظ: (الاعلام ٧: ٣٠).

وانتقاع العام بها والخاصّ، وفيها ذكر اسمه ولقبه ولواحق ذلك، ويظهر أنّ ذلك الشهم من ذوي الفضل والكمال، وله خطٌّ حسن رائق وعدد من تلك الكتب بخَطِّهِ، وفي حجرة التنفس الموضوعة للإستراحة، وشرب الدخان، قطعات كثيرة في خطوط مختلفة جملة منها بخَطِّهِ العريض في واحدة منها هذا البيت يشير إلى لقبه وفضله:

توسَّم والدي فيَّ المَزايا ... فحين وُلدتُ لقبّني بعارف

وبالجملة فهي من الكتابخانات الجَلِيلَة، والمطبوعات فيها قليلة، ولا أحسب أنّ لها مثنى في هذه الصفحات من العراق، والشام، والحجاز، وإن لم تكن في صف الكتابخانات الشهيرة: كـ(الخديوية)[1]، وكتب خانات (الاستانة) نفسها؛ فضلاً عن مثل (باريس) واخواتها على التسامع، سهَّل الله سبل العلم ونشر ألويته، وكثّر المتعلّمين بها والمتأدبين - إن شاء الله تعالى -.

من المدينة إلى الشام

وفي يوم الأربعاء ٢٠ في المحرم عزم الرفاق على الرحيل، ومجموع أقامتنا هذه الدفعة في المدينة عشرة أيام، وكنتُ أودُّ البقاء إلى الجمعة، ولم أزلْ أطارحهم الحديث في ذلك وأُراجعهم فيه فلم يتفقوا ولم يتوفقوا، ولم نجدْ بدّاً

(١) المكتبة الخديوية أو دار الكتب المصرية: اسست سنة (١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠م)، وذلك حينما عرض الوزير علي باشا – كان من علماء عصره - على إسماعيل باشا، أن يجمع الكتب من المساجد في مكان خاص يقيها من عبث العابثين وشرّ الجهلة الطامعين، فاعدّ علي باشا لها مكان خاصا في سراي درب الجماميز، وجعل بجانبها مدرسة خاصة سماها (دار العلوم).
ظ: (خزائن الكتب العربية في الخافقين، لطرازاي ١: ١٩١ – ١٩٧).

من موافقتهم فمضينا لزيارة الوداع، وبعد صلاة الظهرين في الحرم النبويّ فرغنا إلى البقعة الطاهرة في (البقيع)، فودّعنا وسألنا الله تعالى بحقّهم التوفيق للعود، ثم العود إليهم، ثم خرجنا والعيون عبرى، والقلوب حرّى أسفاً على فراق تلك البقاع المقدّسة، والعتبات العالية، وكانت الأثقال قد خرجتْ إلى المحطّة أمامنا فأتيناها، وبعد الدخول في الحجر ومشبكات الحديد، ودفع الرسوم وأخذ البطاقات الرسميِّة، وتحمّل سوء معاملات المأمورين وغلظتهم وخشونتهم مع عامَّة الحُجَّاج، ووزن أثقالهم وأخذ الكرى عليه من أكثرهم، وما فرغنا من تلك المصاعب والمتاعب الباهظة إلاّ وقد تولّى شطر من أوائل الليل ونحن تحت السماء، والأثقال مُتَفرِّقة في تلك الفسحة، وموعد السير صبحاً، وبعد الصلاة وتناول ما تيسّر من العشآء، نقلنا أثقالنا إلى الفرقون وبتنا ليلة الخميس ٢١ المحرم فيه بأشدّ الضيق، وغاية الازدحام، ثم أصبحنا ولم يتحرّك إلاّ وقد ارتفع النهار وبلغتْ الساعة الرابعة ونصف، وعندها اندفع بنا البخار وأخذ ينساب بين الشعاب ويتخلّل الهضاب، ويطوي بساط الأرض طيّ السجلّ، ويرينا علم طيّ الأرض، وكُنّا نحسبه من قبيل الفرض على أنّه لم تكن حركته في هذه الدفعة نهائية، وكان معدّل حركته في الساعة طيّ مسافة ثلاث ساعات ونصف إلى أربع، حسب الكيلوات المرقومة على أعمدة الطريق طول المسافة، وبين كل محطّة إلى أخرى يختلف المقدار في الزمان، وإن اتفق في المسافة؛ وذلك لاختلاف الحركة سرعة وبطوءً؛ حسب اختلاف الأرض صلابة ورخاوة، كما أنَّ وقوفَه في المحطّات يختلف مقداره حسب حاجياته فقد يتوقف بما لا يزيد على خمس دقائق، وقد يزيد على الساعتين بل الأربع كما في النقاط المُهمَّة كـ(مدائن

صالح) ونحوها، ومضى علينا نهار الخميس وليلة الجمعة ونهارها وإلى الساعة الثالثة ونصف من ليلة السبت ٢٢ المحرم بلغنا (تبوك) وهي نصف الطريق تحقيقاً، وكان المجموع عبارة عن ثلاثين محطّة في نهارين وليلة.

وهاك تفاصيل أسمائها وذكر أوقات وصولنا إليها حسب إحصائنا، وإن كنتُ لا أدّعي تمام الإحاطة إلاّ حسب الجهْد وهي:

عددها	أسماء المحطّات	أوقاتها بحسب الساعة
١	المحيط.	بعد ساعة من الحركة – ٥
٢	حُفَيْرة[١].	بعد نصف – ٦
٣	لبيد.	بعد – ٦
٤	آبار نصيف: وفيها قلعة قديمة.	بعد – ٧
٥	بؤيرة	بعد ساعة ونصف ٩
٦	محطّة[٢]: حولها جبال شاهقة عليها قلعتان وبرج مشيّد من العمارات القديمة يزعمون أنّه من بناء (عنترة العبسي) ويُسمّونه (اصطبل عنترة).	بعد تعطيل في المحطّة فلم نصل إلاّ في الحادية عشرة ١١
٧	أبو النعيم.	١١

(١) الحُفَيْرة: تصغير حفرة، جبل وواد غرب جبل غَمْرة بينهما الطريق من المدينة إلى الشام.
ظ: (معجم معالم الحجاز ٣: ٤٨٥ – ٤٨٦).

(٢) (عَنْتَر): محطّة لسكّة حديد الحجاز على (١١٣)كم شمالي غربي المدينة المنورة، ويسمّونها (اصطبل عنتر)، واقعة في ديار ولد محمّد من حرب.
ظ: (م. ن. ٦: ١٢١١).

٨	هَدّية[1].	١٢ الغروب
٩	ذهب عنّي اسمه	٢ من ليلة الجمعة ٢١ محرم.
١٠	المُدرّج[2].	٤
١١	طُوَيرة[3].	٥
١٢	البئر الجديد.	٦
١٣	المشهد[4].	٧
١٤	سهل مطر[5].	٨
١٥	البدائع[6].	٩

(١) هدّية: كانت محطّة للجمال ثم صارت محطّة لسكّة الحديد في وادي الطَّبق، وتقع المحطّة على (١٦٩)كـ شمال المدينة بينها وبين العلا. وقد نسب بعض الرحالين الوادي إليها فسماه وادي هدية وهو خطأ.

ظ: (م. ن. ٩: ١٨٢٨).

(٢) المَدْرج: محطّة لسكّة حديد الحجاز على (١٨٦)كم شمال المدينة إلى الغرب.

ظ: (م. ن. ٨: ١٥٢٨).

(٣) الطُّوَيرة: محطّة لسكّة حديد الحجاز، شمال المدينة على (٢١٢)كم.

ظ: (م. ن. ٥: ١٠٧٣).

(٤) مَشْهد: محطّة لسكّة حديد الحجاز جنوب العُلا، على (٢٩٠) كم شمال المدينة.

ظ: (م. ن. ٨: ١٦٠٦.

(٥) وتسمّى (سَهْلُ المِطْران): أرض بها محطّة لسكّة حديد الحجاز على (٢٦٨)كم شمال المدينة.

ظ: (م. ن. ٤: ٨٥٨).

(٦) البدائع: وهي قرية لبلي في وادي الجزل على ضفته الغربية قرب المروة. محطّة لسكّة الحديد قرب العُلا على (٣٠٣)كم شمال المدينة، منها يفترق الطريق إلى الوجه على الساحل.

ظ: (م. ن. ١: ١٧٦).

١٦	العُلى[١]: ذاك المنزل الأنيق والبساتين الرائعة وبساط البقاع الأخضر، والليمون والفواكه التي لم يساعد الوقت لتناول شيء منها	١٢ أول الفجر
١٧	مدائن صالح، وخلفه مبركة الناقة.	٢ بعد الشَّمس بساعة من نهار الجمعة
١٨	جبل أبو طاقة[٢].	٣
١٩	مطالع[٣].	٧ أول الظهر
٢٠	دارالحمراء[٤].	٨
٢١	خشم صنعا[٥].	٩

---

(١) العُلا: وهو اسم لموضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام، نزله رسول الله ﷺ في طريقه إلى تبوك وبني مكان مصلاه مسجد...
ظ: (معجم البلدان ٤: ١٤٤ — ١٤٥).
وقال البلادي في معجمه ٦: ١١٩١ -١١٩٢: كان بلداً زراعياً فتطّور اليوم فصار مدينة فيها كل مرافق الدولة مثل: الإمارة، والمحكمة، ومستشفى حديث، ومدارس للبنين والبنات، وشرطة، ومركز زراعي . يمرّ فيها طريق سكّة حديد الحجاز... وهي مشهورة بكثرة نخيلها وجودة ثمرها ... .
(٢) أبوطاقة: محطّة لسكّة حديد الحجاز شمال مدائن صالح على (٣٧)كم، والأصل جبل واقع في ديار عنزة.
ظ: (م. ن. ٥: ١٠٥٢).
(٣) وتسمّى (المُطّلع): محطّة لسكّة حديد الحجاز من مدائن صالح على (١٥)كم، واقعة في الشمال الغربي من ديار عنزة.
ظ: (م. ن. ٨: ١٦١٤).
(٤) دار الحمراء: محطّة لسكّة حديد الحجاز جنوب تبوك على (١٨٨) كيلاً... .
ظ: (م. ن. ٣: ٥٩٩).
(٥) صنعاء: محطّة لسكّة حديد الحجاز، جنوب تبوك على (١٦١)كيلاً، وصنعاء: هو جبل يقع على المحطّة يعرف بـ(خشم صنعاء).
ظ: (م. ن. ٥: ١٠٠٦).

٢٢	بركة المعظم[١]: نسبة إلى (إمام الحنفية)[٢]، وكانت تنزله القوافل قبل السِكَّة وفيه بركة ماء كبيرة تَمْلَؤُها الأمطار طول السنة وهي الآن ناحية عن السِكَّة.	١٠
٢٣	(تسعد): ويكتبونه (ديسعد) وأظنه تصحيف (دير سعد)، ذو الماء العذب الّذي ليس في طول الطريق كحسن مائه.	١
٢٤	(الخميس).	
٢٥	(الأخضر).	١١
٢٦	(محطّة البغاز).	١٢ بعد المغرب من ليلة السبت ٢٢ محرم
٢٧	(دار الحج)[٣].	١ من الليل

---

(١) المُعَظْم: من التعظيم . سهل واسع جنوب تبوك على قرابة (١٣٠)كم، تسيل فيه أودية كبا من حَرة العويرض جنوباً، ومن حرة الرهاة من الغرب، ومن جبال الفرو والرضيم والرَّحَل والزبد، ثم يتكوّن منه قاع كبير يعرف بقاع المعظم، وفيه بركة ضخمة باسمه أيضاً، ومحطَة للسكّة الحديد مشهورة في هذه الديار، عليها قلعة تعرف بقلعة المعظم، والمحطة: محطة المعظم.
ظ: (م. ن. ٨: ١٦٢٣).

(٢) والبركة منسوبة إلى الملك المعظم عيسى بن العادل.
ظ: (م. ن. ٨: ١٦٢٣).

(٣) دار الحج: محطّة لسكّة الحديد جنوب تبوك على (٥٢)كم بين الأخضر والأثيلي، وجميع المحطات بين المدَّورة ودار الحج هي في ديار بني عطية.
ظ: (م. ن. ٣: ٥٩٩).

٢٨	(قُرَين الغزال)[١].	٣
٢٩	(وادي الأثيل)[٢].	٣
٣٠	(تبوك)[٣].	٤

وحين وقف القطار، وسكن البخار، في (محطّة دار الحج) سمعنا صوت رجل مصريّ ينشد وينادي بصوت حرّان، ولوعَة ولهان، كناشد أعزّ ضالة له، صارخاً يا بنت عمّي يا (حاجيِّة نفيسة)، وطفق يأتي سائلاً من كلّ الفراقين، فانحدرتُ إليه وسألته ما الخبر؟ فقال: نزلتُ مع زوجتي وابنة عمّي في محطّة (الأخضر)؛ لنستقي الماء فجاء إلينا أحد العساكر وأرجعها بزعمه إلى الفرقون، فلما حملتُ الماء وجئتُ إلى موضعي لم أجدْ عرسي، ثم تحرّك الوابور ولم يمهلني، فقلتُ: لعلّه وضعها في أحد الفراقين اشتباهاً من ظلمة الليل وأنا أطلبها الآن في الفراقين فلا أجدها، وصار يذكر جمالها، وولوعه بها، وأنَّه تزوجها هذه السنة وجاء بها إلى الحجِّ، ولا أدري ما الّذي جرى وأجرى دموعي عليها، فرجعتُ وأنا أرثي له متوجعاً، وأتظلّم متفجعاً، فقال بعض الرفاق وقد أندفع بنا البخار: ألا نؤرّخها؟ وجرى على لسانه شطر لم يطابقْ، ثم أنشأ حضرة الأخ الشريف - دامت حراسته - قائلاً:

أتينا مَنْزلاً في جُنْحِ ليلٍ ... به المِصْرِيُّ قد سرقوا عَرُوْسَهْ

فأخذتُ القلمَ وأتممتُ نظمَ القِصّة والتاريخ على الفور قائلاً:

---

(١) ظ: (م. ن. ٢: ٢٥٧).

(٢) (واد الأثيلي): وادٍ تقطعه سكّة حديد الحجاز جنوب تبوك على (١٥)كم، كثير الأثل، عليه جسر عظيم للسكّة الحديد، رأسه من حرة الضُّيَيْقة فيُسمّى بها أو تُسمّى به.... .

(٣) ظ: (معجم معالم الحجاز ٦: ١٢٥٨ - ١٢٥٩).

فظــل مناشــداً عنــها بــصوتٍ يصــدع كــل مســتمع حسيســةَ
ينـادي مــن أحــسّ ببنــت عــمّــي فلســتُ أرى ســواها لي أنيســةْ
مهــاً لم تبلــغْ العشريــن سنــاً نفــى بنعيمهــا الجنــديّ بؤســةْ
تقــول هــي الغــزالة في أنــاس ســناً أو دميــة هــي في كنيســةْ
تناهبهــا العساكــر باختــلاس فيــا ليــت المنيّــة لي خليســةْ
علــيّ احتــال مختلســاً فــولّــى بهــا عنّــي لشهوتــه الخسيســةْ
بنيــت بــهــا بهــذا العــام لكــن لبيــت الله جئــتُ بهــا حبيســةْ
وبعــد ذهــاب ذاك العــرض منــه غــدى وقناتــه طــولاً كبيســةْ
شــنائع ليــس تفعلهــا يــهــود بمســلمة ولا الأمــم المجوســةْ
ونــاح مــؤرخاً تــاريــخ صــب بــدار الحــجّ قــد سرقــوا نفيسةْ

١٣٣٠هـ

وبقي المِصْريُّ ينتظرها عسى أن تأتي بها القطارات اللاحقة، ولمَّا وردنا (تبوك) بعد الثلث الأوّل من الليل، انخلعتْ المكينة من قطارات الفراقين وهي ثلاثة عشر، في كل واحد ما يقرب من أربعين نفراً، طول كل واحد عشرة أمتار في عرض اثنين تقريباً، وكان في الفرقون الّذي نحن فيه ما يقرب من خمسة وثلاثين، كلّنا - بحمد الله - من وطن واحد، ونحلة واحدة، ما فينا خارجي، أمّا المكينة فاندفعتْ إلى المحطّة في مركزها وهي إلى قبالة بلد (تبوك) وبساتينها، وألقتْ تلك الفراقن التي تنساب خلفها انسياب الثعابن بل كهضب الحديد مشحونة بالعدّة من الأمم والعديد، ألقتها إلى جنب الحجر الصحي (قردون) وهو

عن البلد والمحطّة قدر ميلين، فبتنا تلك الليلة ليلة السبت في مواضعنا المتضايقة، وانحجزنا فيها انحجاز الوحش في جُحْره، حتّى أصبحنا ننتظر عمليات الصحيّة فينا بل بليّاتهم علينا، عافاك من خلع ثيابنا وتبخيرها وإلباسنا تلك الخرق الخَلِقة المصبوغة بالأقذار والأوساخ، والشريف والوضيع سواء فيما يمحصّون به الناس من البلاء، فبقينا تلك الليلة وصبح ذلك النهار حتّى الزوال مصبّرين لا ندري ماذا يُراد بنا، وبعد الزوال أخرجونا من الفراقين ولم يبقَ فيها من ذى حجم سوى الأثقال، وجرى علينا ما سمعته آنفاً، ولكن في هذه الدفعة كظّنا البرد الشديد، وكانت الريح شماليّة عاصفة فيها صرّ ناهس[١]، وقرّ قارس[٢]، وقد لوّحتْ بجسومنا السبرات[٣]، وكلحتْ بوجوهنا الزعازع التي هي أحدّ من الشفرات، وكنّا إذ ذاك في أهون ثيابنا وأخفها حتّى مضى علينا أكثر من ثلاث ساعات، حتّى فرغوا من العمليات وأدخلونا مشبكات الحديد (القردون)، ثم بعد حين أتونا بأسبابنا المتخلفة في الفراقين، فنقلناها إلى مواضعنا، وبقينا نحتسب الساعات والدقائق لتمام المُدّة وهي ثلاثة أيّام، فبتنا ليلة الأحد وليلة الإثنين و الثلاثاء وفي صباحه جمعنا الأسباب وقوّضنا الخيام، وبقينا حتّى الآن ننتظر قدوم الفرقونات لتحملنا إلى الشام بَقيَّة النصف الآخر، وكان في الخيمة التي إلى جنبنا رجل تركيّ جاء في أحد فراقين قطارنا ونزل إلى جنبنا، وهو ذو شيبة بهية وشارة حسنة، فكان كل صباح يأتي إلى مخيّمنا ويطيل الحديث والجلوس أُنساً بنا، وكان محترماً بين المأمورين الموظّفين، فذكر أنّ أصله من (ديار بكر)، وأنّه منذ

(١) النُّهَس: ضرب من الصُّرَد.

(٢) القرس: البرد الشديد.

(٣) السبرات: جمع سبرة، وهي شدّة البرد.

ثمانية عشر [عاماً] في الاستانة أحد أعضاء الرسومات هناك، معاشه خمسٌ وأربعون ليرة، وآسمه (محمّد رفعت أفندي)، ولكن لم يكن يحسن من العربية شيئاً، ويعرف قليلاً من الفارسيّة، وذكر أنّ (السلطان سليم) كان مُصِرّاً على أن يجعل اللسان الرسمي ومحاورة كافة المأمورين والمستخدمين، وكتابة كل القيود والدفاتر كل ذلك عربيّاً، فلم يُوَفَّقْ لذلك بعد أن أجهد نفسه فيه، وذكر أنَّه ورد (مكَّة الشريفة) أوائل شوال وأنزله الشريف - لصداقة له معه في الاستانة أكيدة - في أحد الرواشن المتَّصِلة المطلة على (المسجد الأعظم)، وذكر أنّ إحصائيات الوفيات كل يوم في الموسم بـ(مكَّة) كانت ثلاثمائة أكثر من النصف بالقوليرة [الكوليرا] - عافانا الله - والباقي بأمراض مختلفة.

وبالجملة كان يحدثنا عن جملة من شؤون الاستانة وسياسات المملكة وأحوال الدول مع الدَّولَة العثمانية إلى غير ذلك من تفاريق المواضيع، ومن غريب ما حدّث به من أحوال السِكَّة الحجازيّة، أنّ الدَّولَة تدفع إلى الأعراب التي في نواحيه من حروب وغيرها أربعين ألف ليرة ذهب موظفاً في كل شهر، وأنَّ السِكَّةَ بين الحرمين قد عيّنتْ مصاريفها وأحضرتْ آلاتها وأسبابها في (جُدَّة)[1]، حتّى المهندس منذ سنة مقيم في (جُدَّة) ويجري له المعاش،

---

(١) جُدّة: تبعد ٧٣كم غرب مكّة، و٤٢٠كم جنوب المدينة، ولها مع كل منهما طرق معبدة، وعلى نظام القوافل القديم تبعد عن مكّة مرحلتين، وعن المدينة عشر مراحل.

وهي مدينة رائعة العمران والتنسيق، وهي الميناء الرئيسي اليوم في الحجاز، يؤتى لها من ثلاث وسائل: البر، البحر، والجو، ومطارها عالمي تحط فيه جميع الطائرات، وتجارتها تسيطر على معظم الجزيرة العربية، وتعتبر العاصمة الدبلوماسية للمملكة العربية السعودية، حيث فيها مقر وزارة الخارجية وجميع السفارات الأجنبية ... .

ظ: (معجم معالم الحجاز ٢: ٣٤٤ - ٣٤٨).

والشريف يماهل في ذلك لما في ذلك من الضروريات الطائلة ولا يتمكنون من إعمالها بدون مساعدته.

وفي ضحوة اليوم الثاني من دخولنا الحجر الصحّي سمعنا ونحن في الخيمة قائلاً يقول: ها قد جاءتْ المِصْرِّيةُ وهي تنشد زَوْجَها الحاجَّ (أحمد المِصْريَّ)، فخرجنا فوجدناها وراء الشبكة وحولها جماعة من الناس ينظرون إليها، ويستبرؤون خبرها، ومَنْ وقع النظر عليها أبصرناها جارية سمراء مليحة في إحدى عينيها خوص، والسماع عنها كان فوق العيان، وبعض الرفاق استكرهها وأوغل في تهجينها وأسف على ما تقدّم من الأبيات فيها، واستدعي ملتمساً نقضها فقلتُ عن لسانه:

وجارية ظننتُ لها جمالاً ... وقد خابتْ بها منّي الظنونُ
نَعُمن بذكرها الأسماع حتّى ... بدت فشقتْ برؤيتها العيونُ
نظمنا رائق الأشعار فيها ... وبعض الشعر إفْكٌ أو جنونُ
تسمّتْ بالنفيس كما يُسمّى ... بكافور لك العبد الهجينُ
ورب اسمٍ يروقك منه لفظٌ ... على معنىً يروعك لو يبينُ

ثم اختلفتْ الانقال عن شأنها، وكثرتْ الأقاويل، ورجمتُ الظنون، والله وليّ أمرها وإليه المفزع في أن يمنّ بسترنا وسترها، إنَّه جميلُ السترِ عليمٌ بما في السرّ وهو أرحم الراحمين.

الساعة العاشرة من نهار الثلاثاء ٢٥ المحرم فتحوا لنا باب القردون وأطلقوا لنا الأذن في الخروج، فأخرجنا الأثقال وطرحناها على حاشية السِكَّة، وبعد قليل

أتونا بالفراقين فاحتملتنا إلى المحطّة في قبالة البلد والبساتين، وبعد نصف ساعة اندفع بنا من أرض (تبوك)، وكان مُدّة تعطيلنا فيها أربعة أيام في أربع ليالي، ولولا هذه العقبة السيئة لكانت هذه السِكّة حسنة مشكورة ويداً مبرورة، وهي الآن على ذلك كلّه فيها من التسهيل والاستراحة، وتهوين الشديد وتقريب البعيد ما يستوجب لله الحمد والشكر، ولهذه الدَّولَة الدعاء إليه تعالى أن يوفقها لأمثال هذه الحسنات الجالبة راحة العموم والمنافع الطائلة للملّة والدَّولَة.

المحطّات من تبوك إلى الشام

أما المحطّات من (تبوك) إلى (الشام) فإليك ذكر أسمائها على نهج ما سبق حسبما تيسّر لنا الوقوف عليه، ولئن فاتنا شيء فلا يتجاوز الأثنين أو الثلاث، ولعلّ في بعضها تقديماً وتأخيراً، أخطأه التحري، وفاته الضبط، ثم انَّ معدّل المحطّات من واحدة إلى أخرى مع توقّفها في المحل لا يزيد عن ساعة، فنحن نذكرها درجاً والأوقات تُعلم على ذلك القياس.

اندفع البخار بالقطار العاشرة ونصف من عصر الثلاثاء ٢٥ المحرم من (تبوك) إلى ١. (المحطب). ٢. ثم إلى (الخرم)(١). ٣.إلى (بئر هرمس)(٢). ٤. إلى (ذات الحج)(٣). ٥. إلى (المدوّرة). ٦. إلى (رملة). ٧.إلى (تل الشحم). ٨ إلى (بطن

---

(١) أنظر: (خرم) في معجم معالم الحجاز ٣: ٥٤١ — ٥٤٤.

(٢) كذا والصحيح (بئر بن هرماس).

(٣) كذا والصحيح (ذات الحاج): وهي قرية تقع شمال المنطقة على مسافة (٨٥) كم على مقربة من الحدود السعودية، وكانت هذه القرية عامرة في العصور السابقة من أشهر المعالم التاريخيّة في منطقة (تبوك)، حيث تمر بها قوافل الحجاج للاستراحة والتزود بالمياه، وزادتْ ←

الغول). ٩. إلى محطّة لم أعرفْ اسمها. ١٠. إلى (العقبة). ١١. إلى (كور مقص). ١٢. إلى (بئر شديد). ١٣. إلى (غدير الحجّ).

وكان انتهاؤه إلى هذه المحطّة التاسعة من ليلة الاربعاء، وعند الدخول في مختلفات خطوط الحديد (مقص) قبل الوقوف على المحطّة نفسها، أفلتتْ (الجروخ)(١) من رباني المكينة، ولم يكن مَكيناً بها فزلّتْ عن السِكَّةِ، وتعرقلتْ في الرمل والصخور حتّى غاص وتعرقل أكثر من نصف قطر (الجروخ)، فمكثوا هنالك حتّى الصباح، واستبرقوا البرقية إلى المحطّات التي أمامهم فجاءت إليهم المكينة الصحيحة فوراً، ولكن أنّى له بتناول القطار ليسحبه وراءه؟!، وقد حال بينهما ذلك الجبل من الحديد الّذي تَمَكَّن في الأرض ولا يمكن اقتلاعه الألوف من الناس.

وبالجملة مكثوا طول ذلك النهار يجهدون، وهم عِدَّة كثيرة من العَمَلة بأيديهم الآلات الحديدية القوية الفتاكة، وما أمكنهم إخراجه من هاتيك الحفرة، وإقالته من تلك العَثْرة إلاّ بعد تفصيل أكثر أجزائه، وتحليل أغلب عقده، وما رفعوا غايلته عن السِكَّة إلاّ بعد الغروب، وكانت مسامحة ذلك الربانّي وغفلته أو تغافله من نعاس أو سكر دقيقة واحدة، قضى بتعطيل ألوف من النفوس في الطريق ثماني عشرة ساعةً، مع خسارات على السِكَّة طائلة، وفي الواحدة ونصف من ليلة الخميس ٢٧ المحرم اندفع بنا، حتّى أتى الثانية ونصف إلى بلد ١٤.

→

أهميتها بوصول سكّة حديد الحجاز لها ... .

ظ: (صحيفة الرياض اليومية الصادرة عن مؤسسة اليمامة (العدد ١٦١٨٨).

(١) أي العجلات.

(معان): وهي البلد العامرة الكثيرة الفواكه، وأطال الوقفة هناك إلى السادسة من الليل، والباعة من الرجال والأطفال من أهل البلد تحمل إلينا الرمان المجمّد الجيّد، فنشتريه بالسعر الواطِئ جميعاً، ويأكل منه كل واحد منّا أكلاً ذريعاً؛ ولكن كانتْ النفوس مُكْمدة، والخاطر كظيماً؛ حيث إنّ أخانا الشريف وهو شمع جمعنا أمسى - وعافاه الله - ذلك اليوم محموماً سقيماً، ثم اندفع نصف الليل إلى المحطّات التالية الذكر:

١٥. (وادي الجرذون). ١٦. إلى (عنترة). ١٧. إلى (جرف الدراويش)[1]. ١٨. إلى (الحسا). ١٩. إلى (فريفرة). ٢٠. إلى (المنزل). ٢١. إلى (القطران). ٢٢. إلى (السواقة). ٢٣. إلى (خان الزبيد). ٢٤. إلى (ضيعة). ٢٥. إلى (زيزة). ٢٦. إلى (اللبن). ٢٧. إلى (عمّان).

وبين هاتين المحطّتين إلى التالية بعدهما وهي ٢٨. (الزرقة)، عمليات لتمهيد خطوط الحديد، وتسوية الطريق، وتعديل الأرض، كلّها شاهدة بعظيم العناء، وجليل الهِمَّة، وبذل الأموال الطائلة، والنفوس الكثيرة في هذا المشروع، حيث إنَّ كلَ تلك المسافة التي هي عبارة عن مسيرة أيام ليس فيها إلاّ الجبال الشاهقة الصمّ، والأودية السحيقة، التي هي بمياه العيون ومجاري السيول فعم، فترى تلتوي على أطراف الجبل تارة، وتشقه من جزره أخرى، وقد يضطرّها الحال إلى نقبه والدخول في مغارته كما قد تضطر كثيراً إلى عقد قنطرة عظيمة أو مدّ جسر مستطيل من الصخور الصمّاء الرصينة بمحكم البناء، وقد دخل القطار اليوم قبل

---

(١) كذا والصحيح (حروف الدراويش).

الظهر قبل وصولنا لـ(عمّان) في نَقب جبل قد عُقد طرفاه وسقفه بالصخر والبناء الهندسي الصناعي، وبقي يسير فيه عدَّة دقائق، وصرنا في ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج الرائي يده لم يكدْ يراها.

وبالجملة لم نزلْ في تلك المرحلتين نشهدُ مشهداً رائعاً، وعناءً بارعاً، ولباقة صنعة، ومظاهر عزٍّ ومنعة، من قلع جبل أو نقب أطواد أو إحداثها ونصبه في منخفض وهاد، أو عقد جسور وقناطر، قد تبلغ العشرين أُسطوانة فأقلّ، وبعضها ذات مرتبتين في العلوّ وأكثر، والجميع في غاية الإتقان والقوة، ومع هذا فقد كانتْ تلك الهضاب والشعاب والوهاد والأطواد تسيّرنا وتَنزّه أبصارنا بين رياض خضراء أو أرض معشبة نضراء، تتخلّل بينها أنهار من عيون جارية وسواقي على الرضراض مطّردة، والجوُ أرِج النسيم، وبالسحب مطرّز الأديم، وكان ذلك اليوم أشرح نهار، وأفسح وقتٍ مرّ علينا، ثم اندفع بنا إلى المحطّات التالية:

٢٩. (خربة السمرة). ٣٠. (الفدين). ٣١. (المفرق). ٣٢. (نصيب).

٣٣.(الدرعة): وهي محطّة كبيرة وفيها عمليات ومحلات للوابور عظيمة، وفيها تخرج شعبة من الخط الحديدي إلى (حيفا) خمس أو ست ساعات، وهي أحدى السواحل والاسكلات كـ(بيروت)، ولم نستقص أثرها؛ لأنّنا أتيناها في أوائل العتمة، وكانتْ السماء بعد الظهر من يوم الخميس ٢٧ المحرم قد أرسلتْ السماء عزالَيْها[١] واتصل سحّ[٢] السحاب من الساعة الثامنة من ذلك النهار إلى ضحوة يوم الجمعة، قدر تسع عشرة ساعة، ثم اندفع من (الدرعة) إلى ٣٤.(تربة

---

(١) أرسلت السماء عزاليها: إذا جاءت بمطر منهمر.

(٢) سح: شدّة انصبابه.

الغزالـة). ٣٥. إلـى (أزرع). ٣٦. إلـى (المحجـة). ٣٧. إلـى (جبـب). ٣٨. إلـى (جباب). ٣٩. إلى (مسمية). ٤٠. إلى (در علي). ٤١. إلى (كسوة).

وهذه الثمانية كلّها من ضياع (دمشق)؛ ولكـن مررنـا بهـا لـيلاً والسـماء تسحّ هطلاً، والأرض قد فاضتْ سيلاً، حتّى دخلنا محطّة (الشام) الساعة الثامنة ونصف من ليلة الجمعة ٢٨ المحـرم فركبنـا العربيـة، ودخلنـا (الشـام) سـحراً تلـك الليلـة، وجيء بالأثقال بعدنا.

فهذه اثنتان وسبعون محطّة مع محطّة (الشام)، والمراكز المهمَّة منها المشتملة على عمليات كثيرة، ومحلات كبيرة، ومحطّات معـدودة منهـا: (مـدائن صـالح)، و(تبوك)، و(معان)، و(عمان)، و(الدرعة)، وقد بلغـتْ مُـدّة سـفرنا مـن (المدينـة) إلى (الشام) تسـعة أيّـام كلّهـا مـن الإلحاقـات والتبعـات وإلاّ فالأصـل ثلاثـة أيـام بلياليها ولله الحمد على تيسيره وتسهيله ونسأله - تعالى - أن يتمم فضـله ونَعْمـاءَهُ علينا بتسهيل ما بقي كما مضى، إنّه وليّ الفضل والنعماء.

ثم لا يبرحنَّ عن الناظر في هذه المهارق[1] والطروس؛ أنّـه قـد عـنّ لنـا فـي أوّل هذه المرحلة والجزوات أن نفرد المسـائل العلميّـة، والمـذاكرات البحثيّـة، عـن أثنـاء ذكر مدارج الأسفار، ومناهج السير والتسيار؛ حتّى ينتفع بكلٍ أهلـه ولا يختلط بعـض ببعض، ويشتبه على بعض بعض، وبمعونة الله وإمـداده سـنفرد ما مـرّ علينـا فـي هـذه المُدّة من المذاكرات التـي يحسـن إثباتهـا، ويليق ذكـر طُـرف منهـا - إن شـاء الله تعالى - ولله الحمد أوّلا وآخراً، وعليه التكلان وبه المستعان وهو أرحم الراحمين.

---

(١) المهرق: الصحيفة البيضاء يكتب فيها.

..[١] وبقدر ابتهاجنا وانشراحنا في زيارته أغاضنا وأكمدنا سوء معاملة الأكلب التي على بابه التي يسودّ منها وَجْهُ الغَيْرة اسوداد وجوههم.

والله سبحانه هو المنتقم والحاكم وإليه المشتكى من كل حال سيئة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) سَقَطت بعض ملازم (المخطوطة) ولم أعثر عليها في خزانة المخطوطات؛ وذلك لأنَّ أوراقها مُتَفرِّقة وغير مثبتة من سنة كتابتها سنة ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م، إلى سنة ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م.

الحاقات تتعلق بالجزء الثالث من النهزة(١)

مذاكرات علميّة

مما جرتْ المذاكرة به بيننا وبين صاحبنا الطبرسي - دام فضله - مسألة الأسماء الإلهيّة والصفات الربوبيّة، وخلاصة ما تلخّص من الخوض فيها: أنَّ فلسفةَ معنى الاسم، وتمام حقيقته أنّه هو الدال على المُسَمَّى الحاكي عن نفس الذات، إمّا بإطلاقها كما في أسماء الأعيان، والمعاني، والأجناس من الممكنات، أو هي باعتبار تعيّن من تعيّناتها الخاصّة، ونعني بالتعيّنات شؤون الذات، وهذه هي الأسماء للواجب - تعالى - فالاسم عند الحكماء والعرفاء غيره عند الغير، وعليه فالقادر والعالم ونحوها اسم عند هؤلاء، وإن كان وصفاً عند غيرهم، والصفة حينئذ عندهم هي نفس القدرة والعلم وإن لم تكن صفة باصطلاح غيرهم، وحيث إنَّ تمامَ حقيقة الاسم وملاكه هو الدّلالَة على المُسَمَّى فجميع الموجودات عند العارف أسماء الله تعالى؛ لدلالتها عليه - جلّ شأنه - شاهدة على وجوده ووحدانيته ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾ [فصلت من آية ٥٣]

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ(٢)

وهذه الأسماء هي الأسماء الحادثة بالحدوث الذاتي، وهي غير القديمة الدالّة

---

(١) العنوان منه رحمه الله.

(٢) صدر بيت، لابي العتاهيه عجزه:

تَدُلُّ على أنَهُ الواحِدُ

ظ: (الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية ص٦٩ - ٧٠).

على الـذات باعتبـار تعيّناتهـا الذاتيّـة لا الإضـافيّة، كـالعالم، والقـادر، والحـيّ، ونحوها الحادثة بالحـدوث الأسـمي، وتلك الأسـماء هـي المخلوقـة، ولهـا اسـمٌ جـامعٌ، ونعنـي بالاسـم – مهمـا اسـتعملناه – نفـس الموجـودات والمسـمّيات لا الألفاظ والأصوات، والحـروف والحركـات، وذلـك الاسـم الجامع هـو الوجـود المنبسط على هياكل الموجودات، وقوابـل الممكنـات، وهـو الـنفس الرحمـاني، والفيض المنبسط، والحقّ المخلوق به، كلٌ على اصطلاح قوم عن حقيقة واحدة، وفي لسان الأخبار (خلق الله الأشياء بالمشيّة)[1]، وحيـث إنَّ هـذا الوجـود أيـاً مـا كان في صقعه هو أقوى الدوال على ذاته المقدّسة، ووجوده الحقّ، فهو اسمٌ دالٌّ على مُسمّاه، كاشف عن مقوّم ومحقّق معناه، والاسم الّذي هو من مقوّلة الألفاظ، والحروف، والأصوات، هو الدالّ على هذا الأسم، وهو اسم الأسم.

والخلاصـة: أنَّ الاسـمَ هـو الـذات مع تعيّن خاصّ مـن التعيّنـات الإلهيّـة أو الكونيّـة، وأوّل التعيّنـات الكونيّـة هـو فيضـه الأطلاقـي فـي ذراري الممكنـات، المترّفع عن أفق الزمان والمكان، والأبعاد والجهات، وهو في بعض الملاحظات نفس الحقيقـة المصـطفوية، والـنفس المرتضـوية، وهـو أعظـم الأسـماء الكونيّـة الإلهيّة، ومن هذا الاسم خُلقتْ الأسـماء الأُخـر الكونيّـة، التـي هـي مـن مراتـب تعيّنات هذا الاسم الإطلاقي، ونسبتها إليه كنسبته إلى ما فوقـه، لا فـرق بـين هـذا الاسم وبين مُسمّاه، إلاّ أنّه عبده وهو ربّه، ولا ينقص عن الذات في الكمالات إلا بالنقص الإمكاني والتأخّر المعلولي اللازم لذات التعيّن بـالله إلـى المتعيّن، وإلـى هذه الحقائق بل الرفائق الإشارة في حديث (الكافي) الّذي تقدّم آنفاً ذكـره عـن

---

(١) ظ: (الكافي ١: ١١٠ح٤).

أبي عبد الله صادق آل محمد عليه السلام حيث يقول: (... خلق الله اسماً بالحروف غير مصوّت وباللّفظ غير منطق وبالشخص غير مجسّد...)(١) الحديث لآخره.

وأوضح من ذلك في الدّلالَة على ما ذكرنا ما مَنّ وأفاده الحُجّة (صلوات الله عليه وعلى آبائه الحجج) في دعائه الرجبي الّذي رواه شيخنا الطوسي قدس سره في (المصباح)(٢) وغيره بسند معتبر حيث يقول عليه السلام: (اَللّـهُمَّ اِنّي اَسأَلُكَ بِمَعاني جَميعِ ما يَدْعُوكَ بِهِ وُلاةُ اَمْرِكَ، الْمَاْمُونُونَ عَلى سِرِّكَ، الْمُسْتَبْشِرُونَ بِاَمْرِكَ، الْواصِفُونَ لِقُدْرَتِكَ الْمُعلِنُونَ لِعَظَمَتِكَ، اَسأَلُكَ بِما نَطَقَ فيهِمْ مِنْ مَشِيَّتِكَ، فَجَعَلْتَهُمْ مَعادِنَ لِكَلِماتِكَ، وَاَرْكاناً لِتَوْحيدِكَ، وَآياتِكَ وَمَقاماتِكَ الَّتي لا تَعْطيلَ لَها في كُلِّ مَكان، يَعْرِفُكَ بِها مَنْ عَرَفَكَ، لا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَها إلاّ اَنَّهُمْ عِبادُكَ وَخَلْقُكَ، فَتْقُها وَرَتْقُها بِيَدِكَ، بَدْؤُها مِنْكَ وَعَوْدُها اِلَيكَ اَعْضادٌ واَشْهادٌ ومُناةٌ واَذْوادٌ وَحَفَظَةٌ وَرُوّادٌ، فَبِهِمْ مَلأْتَ سَمائكَ وَاَرْضَكَ حَتّى ظَهَرَ اَنْ لا اِلـهَ إلاّ اَنْتَ...)(٣).

أنتهى موضع الحاجة من هذا الدعاء الشريف.

ولو ذهبنا في شرح هذه الفقرات النيّرات، وما اشتملتْ عليه من النكات

---

(١) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الله تبارك وتعالى خلق اسماً بالحروف غير متصوت، وباللفظ غير منطق، وبالشخص غير مجسد، وبالتشبيه غير موصوف وباللون غير مصبوغ، منفي عنه الأقطار ... .
ظ: (الكافي ١: ١١٢ح٦).

(٢) مصباح المتهجد: لأبي جعفر محمَّد بن الحسن بن علي الطوسي (شيخ الطائفة)، (٣٨٥هـ = ٩٩٥م - ٤٦٠هـ = ١٠٦٨م)، من أجل الكتب في الأعمال والأدعية، وقدوتها في أعمال السنة، وفي أقسام العبادات، وما يتوقف منها على شرط وما لا يتوقف، وفي آخره أحكام الزكاة والأمر بالمعروف... .
ظ: (الذريعة ٢١: ١١٨ -١١٩).

(٣) ظ: (مصباح المتهجد، للشيخ الطوسي ص ٨٠٣ - ٨٠٤).

والدقائق، لطال الكلام، وخرجنا عن الخطّة، ولكن لا يبرَحنَّ عنك أنَّ هذا الاسم المخلوق الّذي أشارت إليه أمناء الله في مرتبة الربوبيّة وسردنا فيه بعض القول ليس هو من الأسماء الإلهيّة الثابتة كما نبّهناك عليه أوّل الخوض؛ بل تلك الأسماء لها السلطنة والربوبيّة المطلقة على ذلك الاسم المخلوق؛ وإن كان هذا الاسم المخلوق حق مخلوق به الأسماء الخلقية الآخر، فالاسم الإلهيُّ سواء كان في مرتبة الخلق أو في مرتبة الربوبيّة المطلقة ليس ما هو في الأوهام العامّة من الحروف والأصوات والألفاظ؛ بل هذه الحروف أسماء الأسماء المخلوقة وإن كانت تلك الحروف أسماء أيضاً بملاحظة كونها موجودات كونيّة كسائر المخلوقات الكونيّة، ومن هنا ظهر أنَّ الأسماء الإلهيّة: التي هي عبارة عن الذات المتعيّنة بتعيّنات كونيّة خلقيّة حادثة بالحدوث الاسمي بمعنى تأخّر التعيّن عن نفس المتعيّن ضرورة، أعنى عن الذات المطلقة حتّى عن جهة التعيّن والأطلاق (يَا هُوَ يَا مَنْ لا يَعْلَمُ مَا هُوَ إلاّ هُوَ).(١)

فتدبر نوّر اللهُ قلوبَنا وإيّاك بالعرفان واليقين، إن شاء الله تعالى.

(وسأل) بعض أفاضل رفاقنا في مسيرنا بين الحرمين عن الحديث القدسي المعروف وهو: (كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِيًّا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِكَيْ أُعْرَفَ)(٢).

---

(١) وردت هذه الفقرة الشريفة في أدعية كثيرة منها: دعاء الجوشن، ودعاء المشلول، ودعاء المجير، ودعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة.

(٢) رُوي أنَّ داود النّبيّ عليه السلام، قال: ياربّ لم خلقتَ العالم والخلق فقال: يا داود كنت كنزا مخفيّا اردت ان اعرف.

ظ: (معارج نهج البلاغة، للبيهقي ص٥٧)، و(بحار الأنوار ٨٤: ١٩٩).

←

وموضع السؤال أنّ خفاءه - جلّ شأنه - عمّن ذا كان مع أنّه لم يكنْ شيء سوى ذاته المقدّسة، وهو عالم بها في أزل الآزال، والخفاء لا يتطرّق إليها في حال من الأحوال، ثمّ ما هذه المحبَّة؟! ومالقصد من المعرفة؟! التي وقعتْ غاية لخَلق الخلق.

(وتقرير الجواب له) بادراً؛ أنَّنا لو افترضنا أنّ هناك كائناً في منتهى ما يقع في ظرف الواقع وإلامكان من الحسن والجمال الّذي لا يفرض ولا يمكن ما هو أعلى منه، بحيث لو رآه عارف لصار من مشاهدة حسنه وجماله في منتهى الابتهاج والحظوة، وأقصى مراتب اللذَّة والغبطة، فمن الواضح والمستبين لدى كلّ عاقل ناقد، أنّ نفسَ ذلك الكائن المتناهي في حسن الصورة، وجمال الخلقة، وملاحة الشمائل، لو شاهد هو صورته البديعة الحسناء ولو بمعاونة الآلات الحاكية من مرآتٍ وغيرها؛ لابتهج وانبسط مرتاحاً أشدّ الارتياح والابتهاج، بمشاهدة حسنه وجماله، وَتَلألُؤ صورته وبديع خلقته، ولا محالة يكون ابتهاجه بنفسه أشدّ من ابتهاج كل أحد به إذ هو الواجد لذلك الجمال، والغير فاقد له مشاهد له عند غيره، والواجد أشدّ فرحاً بما وجد من الفاقد، وأعلى من ذلك، إنّ ضعف الابتهاج وقوّته ليس إلاّ من قوة الادراك والشعور وضعفهما، وقد قالوا: (إنّ

←

قال الشيخ كاشف الغطاء في كتابه (الدين والإسلام أو الدعوة الإسلاميَّة) في ج٢ هامش ص٢٩: (قد ذكرنا في رحلتنا الموسومة بـ(نهزة السفر ونزهة السمر) قدراً يسيراً؛ ولكنّه مقنع من شرح هذا الحديث، ولم نذكرْ هنا شيئاً ممّا ذكرناه، نظراً لبعض الملاحظات. والله - سبحانه - هو المسدّد).

وأنظر شرح هذا الحديث (جواب الاعتراضات العشرة أو شرح حديث حبب من دنياكم ثلاث).

الحقّ - جلّ شأنه - أجلّ مُدرِك بأجلّ إدراك لأجلّ مُدرَك)، فهو إذاً أجلُ عاشق لذاته، ومبتهج بذاته، وقصاراك أنّ الحقَّ - سبحانه - كان عليماً بذاته قبل إيجاد العلم والعلة، فهو مبتهجٌ بذاته قبل إيجاد الخَلق، ولا يخفى عليه شيء لم يكن.

حق زايجاد جهان أفزون نشد   آن جه از اوّل نبود اكنون نشد[1]

قلنا: نعم، ولكن علّمه بذاته قبل الخَلق والإيجاد، وكان في مرتبة ذاته المقدّسة على نحو البساطة والإجمال، وإن كان في عين الكشف التفصيلي، ولكن علّمه التفصيلي بذاته في مرتبة الكثرة في المرآة التامة إنما هو بعد الإيجاد والخَلق، فهو - سبحانه - أراد رؤية نفسه ومشاهدة جماله في المرئي التام والمجلى الأتم؛ ليشاهد ذاته الباهرة فيها كمشاهدته لها في مرتبة ذاته البسيطة، فكانتْ رؤيته لذاته في مرآة الكثرة الإمكانيّة مخفيّاً؛ بل وحتّى عنه - تعالى شأنه - (ولانقص)، وتَذكّر ذلك الوجه الجميل الّذي تمثّلناه ومثّلنا به ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل من آية ٦٠]؛ فإنّه وإن كان يُشاهد صورته في مرآة خياله، وهو عالمٌ بها قبل النظر إلى المرآة المجسمة، ولا يصحّ أن يُقال ضرورةً أنّه جاهلٌ بنفسهِ؛ ولكنَّه شغفاً بجماله، وحباً لنفسه يحب لو يشاهدها في كل شيء؛ إذ لا يرى شيئاً أجمل منها، وكلّما عاينها ونظر إليها ابتهج بها وولّه عليها على كمال علمه بها، والحقّ بهر جماله وجلاله على كمال علمه بذاته، أحبَّ أن يعرف ويرى ذاته في مراتب الكثرة الإمكانيّة، وعلى صفحة مرآة العين والخارج «فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِكَيْ أُعْرَفَ»، وإليه الإشارة في الحديث القدسيّ الآخر خطاباً

---

(١) ظ: (شرح مثنوي ٢: ٣٢٦).

للمَجْلَى الأتم، مظهر ذلك الاسم المقدّم «خلقتك لأجلي وخلقت الأشياء لأجلك»[١]؛ خلقه ليبتهج بذاته في النظر إليه، نظراً إلى جامعيته وتمام حكايته، (والحاكي من كلِّ وجه عين المحكى بوجه وغيره من وجه). فتدبّر.

أما السؤال عن سبب هذه المحبَّة وعن غايتها فهو ساقط بتّة؛ إذ هذه المحبَّة من شؤون حبّ الشيء لذاته، وهو ذاتي لا يُعلّل، كحبّ الشيء لوجوده وكماله دون عدمه ونقصه، وكذلك معرفته بنفسه ومعرفة غيره به، وهذا الّذي لمحناه وشرحناه من هذا الحديث الشريف يُساق إليك، ويُلقى عليك، إن كنتَ تطلب وترتاح إلى غوامض الأسرار، ودقائق المعارف، ومخبّآت الحكم، وإن كنتَ من أهل القناعة بالسطوح والظواهر، المتأبّي عن تلك التدقيقات والتعمّقات، فشرح الحديث واضح، ووجهه مكشوف ظاهر فإنّه - جلّ شأنه - كان كنزاً مخفيّاً عن الموجودات الشاعرة، المخبّأة في خِزانةِ علمه، وكنوز كرمه وجوده، فأراد أن يُعرف ذلك الكنز المُخْفَى الّذي ضمّ ذلك الجود الإلهي، والكرم الغير المتناهي، فخلق الخلق لكي يُعرف بما لَه من صفات الجمال، وتقديسات الجلال، فخفائه إنّما هو عمّا في خِزانةِ علمه وقدرته من الممكنات والكائنات، وسبب حُبّه؛ لأن يُعرف عندهم، هو ما ذكرناه من حبّه لذاته الموجب حبَّه لأن تُعرف، وتُحمد، وتُقدّس، ولعلّك ترى أن هذا هو الوجه الجميل، وتستظهر ببناء فعل المعرفة مجهولاً، ولكن الأمر فيه سهل، والله وأوليائه أعلم بمراده وهو - جلّ شأنه - أجلّ

(١) إنّ الله - تعالى - يقول: عبدي خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي، وهبتك الدنيا بالإحسان و الآخرة بالإيمان.

ظ: (الجواهر السنية في الاحاديث القدسية، للشيخ الحر العاملي ص٣٦١).

وأعلى، ونحن بالجهل من كلّ الجهات أولى، ومنه الاستمداد وعليه الاعتماد وهو أكرم الأكرمين.

(جرت المذاكرة) أيضاً، في الحديث المشهور المرويّ في (الكافي) المتضمّن لقوله عليه السلام: (انّ جميع جسد ابن آدم يَبْلَى في القبر إلاّ طينته الأصلية التي خلق منها فإنّها تبقى مستديرة في القبر كهيئته يوم خُلق)[1]، الحديث بتمامه، وقد شرحناه في (الدعوة الإسلاميّة)[2] شرحاً كاملاً، وسنوفّي تمام القول والتدقيق فيه هناك - إن شاء الله - بمعونته تعالى وتيسيره.

---

(١) ورد هذا الحديث الشريف في (الكافي ٣: ٢٥١) ونصّه: عن عمار بن موسى، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سئل عن الميت يبلى في جسده، قال: نعم حتى لا يبقى له لحم ولا عظم إلا طينته التي خلق منها فإنها لا تبلى، تبقى في القبر مستديرة حتّى يخلق منها كما خلق أول مرة.

(٢) الدعوة الإسلامية إلى مذهب الإمامية، (ج١) طبع بمطبعة دار السلام في بغداد (سنة ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م) ويقع في ٢٢٤ صفحة، والنسخة نادرة توجد في خزانة حجريات مكتبته العامة.

قال عنه في كتاب (عقود حياتي) ٨٩ – ٩١: (وكنتُ على اثر إعلان الحرية في الممالك العثمانية، وإنتشار الكتب المشحونة بالطعن على الأديان عامة، مثل كتاب (فلسفة النشوء والارتقاء) تعريب شبلي شميل، وعلى الإسلام خاصّة مثل كتاب (الهداية) لجمعية البرتستانت في مصر، على أُثر إنتشار هذه الكتب المضلة، ألفتُ كتاباً لدفع تلك الضلالات ولكن كان عنوان الكتاب موحشاً وهو (الدعوة الإسلامية إلى مذهب الإماميّة)... فلما أنتشر الجزء الأول منه أستاء رجال الدين من السنة في بغداد، وفي طليعتهم المفتي محمد سعيد الزهاوي فأوعز إلى السلطة وكان الوالي يومئذ (ناظم باشا) الشهير فكبست الشرطة المطبعة وحملوا جميع النسخ من الجزء الأول والمطبوع من ملازم الجزء الثاني، ومنعوا المطبعة من إكمال طبعه...).

ثم طبعه في بيروت في جزأين باسم (الدين والإسلام أو الدعوة الإسلامية) في سنة ١٣٣٠هـ - ١٩١٢م، وحَقَّقَه - باشراف سماحة الشيخ محمد مهدي الاصفي - أخيراً الشيخ محّمد جاسم الساعدي في مجلدين سنة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، وطبعه المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

شرح حديث (حُبِّبَ إلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلاثٌ...)

(جرى) الكلام أيضاً في الحديث المشهور عن سيّد الأكوان (صلوات الله عليه واله) (حُبِّبَ إلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)[1].

والكلام أوّلاً عن إعرابه أعني عن المحبّب الثالث؛ حيث إنّ الجملة الأخيرة ظاهرة في الاستقلال والانفصال، ثمّ ما وجه حبّه للنساء مع ما هو (صلى الله عليه) من المقام المترفّع عن الانهماك في الشهوات الحيوانيّة واللذات الفانيّة البهيميّة.

وكان الّذي حضرني من القول وأبديته من الرأي في ذلك المنتدى بما يتعلق بهذا الحديث، أنّ الّذي في ذكري من مراجعتي لبعض الكتب طرداً لا قصداً، أنّ هذا الحديث في موثوق كتب الأخبار خالٍ من لفظ الثلاث[2]، وعليه فلا إشكال من هذه الجهة، وأمّا بناء على ثبوتها فمن الممكن أن يكون الثالث هو مدلول هذه الجملة (وقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)، ويكون الغرض من سوقها في جملة مستقلة بياناً لمزيد الاهتمام بها، وأنّها ليستْ في الحبّ والميزة عنده صلى الله عليه وآله كأخواتها، ولعلّ هذا الأسلوب غير خالٍ من النظير في كتاب الله الكريم، وأمّا السؤال عن وجه حبّه للنساء الّذي لا يناسب مقامه الشامخ فهو ساقط أيضاً، بأدنى تأمّل، حيث أنّه (سلام الله عليه) ما أفاد أنّه هو يحبُّ النساء، والطيب؛ بل قال: (حبب إليّ...) بالبناء للمجهول، مشيراً بذلك إلى أنّ الله حَبَّبَ إليه ورَغّبه في النساء لما هو أعلم به من المصالح والحكم -جلّتْ حكمته- أو لتقتدي به أمّته فيتوفّر عددها

(١) ظ: (الخصال، للشيخ الصدوق ص١٦٥).

(٢) أنظر(الوسائل ٢: ١٤٤، الباب ٨٩ من ابواب الحمام، ح١٢).

وتقوى عدّتها، وتمحق بدعة الرهبانيّة التي ابتدعتها بعض الأمم، فهو مسوق لمزيد التأكيد والتشدّد على رفض تلك الشرعة التي تضاد حكمة الله - سبحانه - في خليقته، وتبطل ما أودع فيهم من ذراري ملكه وملكوته.

(والقصارى) أنّ هذا الحكيم الربّاني (صلوات الله عليه) كأنّه يرمزُ إلى أنّ الله سبحانه وتعالى لم يحبّبْ ويُرغّبْ إليّ شيئاً من دنياكم هذه لا من طعامها، ولا شرابها، ولا لبسها، ولا شيئاً من لذاتها، إلاّ النساء والطيب؛ فإنّهما قد حُبّبا إليّ من الله؛ ولكن الّذي أحبّه ذاتاً، وأميل إليه طبعاً، وفيه قرة عيني هو الصلاة، فلولا أمر الله - سبحانه - وحثّه لي على التحبب من النساء والطيب؛ لجعلتُ الوقتَ كلّه وقفاً عليها، ولم أدعْ منه حصّة لغيرها، ويشهد لذلك ما ورد وتأكّد وظهر واشتهر من أنّه (صلوات الله عليه) كان يصلّي اللّيل كلّه، ويحيي عامّته قائماً بالعبادة حتّى نزلت كريمة: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [سورة المزمل ١، ٢] وما يتلوها ويشبهها من الآيات الكريمة وأنّه - شَرَّفَ الله قدرَهُ - قام في الصلاة والقرآن حتّى ورمتْ قدماه ونزلتْ ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [سورة طه ١] إلى غير ذلك من الشواهد التي تشهد ولا تُجحد، وتدفع الحجّة ولا تُدفع، ويشهد لذلك من نفس الخبر بناء الفعل للمجهول وإلاّ لخلى عن الفائدة. فتدبر.

(وجرى الكلام يوماً بين جماعة من رفقتنا الكرام ونحن بين الحرمين أيضاً)، في مثل ما ورد في كثير من الأذكار، والأدعية الشريفة، كما في دعاء الأيام العشر من ذي الحجة (لا اِلـهَ اِلاَّ اللهُ عَدَدَ اللَّيالى وَالدُّهُورِ، لا اِلـهَ اِلاَّ اللهُ عَدَدَ اَمْواجِ الْبُحُورِ...)[1] الى آخر الدعاء.

---

(١) ظ: (إقبال الأعمال، للسيد ابن طاووس ٢: ٤٧ — ٤٨).

ومثل (سبحان الله ألفاً ألفاً)[١]، ومثل ما في (دعاء العشرات) من التحميدات (عدد ما في علم الله وعدد ما خلق الله)، إلى غير ذلك من الأشباه والنظائر الكثيرة الوفيرة، وموضع السؤال منه أنّ هذه هل هي لصرف المبالغات اللفظيّة؟، والتأكيدات الحرفيّة؟، أم وراءها معنى متحصّل؟، وأمرٌ بهذا القول مُتَحَقّق؛ بحيث يكون للقائل: (سبحان الله ألفاً ألفاً) من الأثر والخاصّة نفس ما للمسبّح ألفين، أو ألف ألف، أو ليس له إلاّ خاصّة المسبّح تسبيحة واحدة مؤكّدة.

ثمّ أنَّ كلَّ واحد من الرفقة الفضلاء أبدى فيه ما عنده، وسلك طريقاً، وأبدى وجهاً، أبعدها ما أبداه الفاضل المتقدّم من أنَّ المرادَ الدعاء إلى الله والسؤال منه - تعالى - أن يجعل هذا الذكر الواحد له ما لذلك العدد من الخاصّةِ والأجر، ولا يَخفى ما فيه من البُعد. والّذي أبديته في ذلك المحضر أنَّ مِلاكَ الذكر وعصارته ليس إلاّ المدح والثناء بالجميل، وتعداد المزايا والمآثر، وهو قسمٌ من مقولة الإنشاء، والإنشاء كما قيل خفيف المؤونة، وحيث إنّ أقوى حامد وذاكر لله سبحانه وَمُثْنٍ عليه بالجميل هو نفس صنائعه ومخلوقاته في أرضه وسمواته، ضرورة أنّها كلماته وآياته الدالّة على باهر حكمته وقاهر قدرته ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الاسراء من آية ٤٤] فهي بوجوداتها الصامتة ناطقة بتوحيده، وحمده، وتقديسه، ومجده، وحيث إنَّ هذه الموجودات هي كلماته التي لا نفاد لها ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف ١٠٩] فهي غير متناهية بعدم تناهي قدرته، ولازم عدم تناهي تلك الكلمات عدم تناهي محامده، ولمّا كان الإنسان أقرب الكائنات إلى

(١) ظ: (مهج الدعوات ومنهج العبادات، للسيد ابن طاووس ص٢٠٤).

الفناء والتناهي، وأراد ان يحمده - تعالى - بمحامده الغير المتناهية، لم يجدْ بدّاً من تطفيل حمده لمحامد غيره، تلك المحامد الأبديّة الغير المتناهيّة نوعاً، أو شخصاً، أو ذاتاً، وماهيته، فالذاكر حيث يقول: (لا إله إلاّ الله عدد اللّيالي والدّهور...) يريد إن كان عارفاً ملتفتاً مترفّعاً عن صرف لقلقة اللّسان إنّ كل واحدة من اللّيالي وكل واحد من الدهور يشهدُ بوجودِهِ وحدوثهِ لله بالوحدانيةِ، فإنّ أنشأ الله الشَّهادةَ بها مع كل واحدة من تلك الشواهد الأوابد، فهو من قبيل الإيجاد الواحد لموجودات كثيرة، وإنشاء فارد لمنشآت وفيرة، فالذاكر بهذه الجملة الواحدة قد ذكر الله سبحانه ذكراً بعدد تلك الوجودات المتسلسلة في الوجود، المجتمعة في اللفظ، فهو والذاكر الّذي يفرض بقائه ذاكراً مع طول تلك السلسلة سيّان، وهكذا في كلّ ما هو من هذا الباب، وما يدخل في هذه النظائر وهي على الغاية من السعة والكثرة، ومنه يظهر الوجه في أمثال (سبحان الله ألفاً ألفاً) مما جُعل الذكر فيه متطفلاً على العدد نفسه لا على المعدود، وعليك بتطبيق كلّ مورد على ما يناسبه ويليق به من هذا الأصل الثابت، والقاعدة الممهدة، والله أعلى ذكراً وأعلم بالحقائق سراً.

مناظرة مع إسماعيلي

(غريبة) أسندتُ ظهري يوماً إلى جدار (بئر زمزم) في المطاف بين الطلوعين، وأنا مشغول بالذكر والتعقيب، فجاء رجلٌ أسمر اللون، حسن البِزَّة، ظاهر الصلاح، عليه شملة عربيّة، فجلس إلى جنبي وجعل يقرأ القرآن بلهجة حسنة، فأمهلته حتّى فرغ فسلّمتُ عليه ولاطفته في الكلام، وقلتُ له: من أيّ بلاد، فقال: يماني، فقلتُ له: ومن أيّ فرق الإسلام، فقال: إسماعيلي، فقلتُ: الحمد لله الّذي

منّ بك عليّ؛ فإنّي كنتُ أتمنّى أن اجتمع برجل عربي منهم حتّى أذاكرهُ وأسأله عن بعض شؤون هذا المذهب النادر، وكنّا نجتمع في العراق بكثير منهم ولكن لا يحسنون العربية ولا أعرف شيئاً من لغتهم الهنديّة، فقال - بعد أن عرّفته تُربتي ونحلتي -: وعن أيّ شيء سؤالك، وكنتُ قد ألفتُ في نفسي مسلكاً للحجاج معه، فقلتُ: ألسنا نتّفق معكم في المبادئ والأصول حتّى ننتهي إلى كذا، ثم نختلف ونتشعّب، فما سبب هذا الاختلاف وما حجّتُكم على ما ذهبتم إليه، فقال لي: قل لي أوّلاً: ما الشجرة التي نُهي آدم عن الأكل منها؟، فقلتُ: قد اختلف المفسّرون والمؤرخون فيها، فقيل: انّها شجرةُ الحنطة، وقال: المؤوّلون هي شجرة العلم والمعرفة، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة، فقال: من هذا الاختلاف جاء بيننا الخلاف، ثم قال: وما الجنة التي أهبط آدم منها؟، وهل هي في السماء أو في الأرض؟، ثم في أيّ سماء كانت؟، فقلتُ: وأيضاً هي محلّ خلاف، فقيل: هي الجنة المعدّة لصلحاء البشر، وقيل: غيرها، فقال: وأيضاً من هذا الخلاف جاء الاختلاف، ثم أخذ يسرد ويسأل عن أمثال هذه المتشابهات حتّى أكثر، فقلتُ: يا شيخ قد أكثرتَ فيما لا دخل له؛ وكأنّك تريد الطفرة، فقال: الأمر كما قلتُ لك، ونعم أنا أريد الطفرة، ثم نهض وتركني ومضى، فبقيتُ مبهوتاً من أمره، وكلّما طلبتُه بعد ذلك في المظان لم أجده.

(عجيبة) مررنا في الذهاب إلى (مكّة الشريفة) والعود منها على أرض واسعة بين الضريبة (ذات عِرق) والغمرة وسط العقيق، وكان فيها كثير من شجر الغيلان، فوجدنا فيها كثيراً من الجماجم، وعظام الموتى من سواعد، وأسوق، وضلوع، وفقار الظهر، وهي منثورة متقاربة في تلك الأرض، ولا سيّما الهامات

فإنّها كانت بين أرجل الإبل وربّما كانت تدوسها بأخفافِها ونحن ننظر إليها من المحامل، وكان على شجر الغيلان وأشواكه كثيرٌ من الثياب والملابس قد تخرقتْ بذلك القتاد الّذي هو كاشفار المُدى، فعجبنا أشدّ العجب، وسألنا عن السبب، فقال - بعض ذوي الخبرة من المتردّدين -: إنّ جماعة من السودان (التكارنة) خرجوا بعد الحجّ مع الحمل الجبلي، وهم رجّالة لا رحل ولا راحلة، فاحتملوا من هذا المنزل بعد الفجر؛ وهبّتْ عليهم ريح فيها صرّ، فجمدوا في مواضعهم، وصاروا مأدبة للوحوش، وقيل: إنّ هناك قد وقعتْ معركة بين الأعراب؛ وعادتهم ترك القتلى على وجه البسيطة خوفاً من الدبرة عليهم، والله أعلم بالحقائق.

وممّا جرى على الخاطر في محرم جرياً على روضتنا الناهجة على المعجم، البالغة حتّى الآن لحرف الخاء[1] في رثاء سيِّدنا أبي الفضل (سلام الله عليه وعلى أبيه وأخوانه عليهم السلام جميعاً) فمن تلك البويتات ما يلي:

---

(١) (الحسن من شعر الحسين أو الحسن في شعر الحسين أو الأحسن من شعر الحسين): مجموع شعره الذي نظمه قبل عصر الشبيبة، في المديح، والتهاني، والرثاء، ورتّبه على حروف المعجم.

و(العصريات والمصريات): وهي جملة نتف ومقاطيع ، وقصائد شعرية، سَنحتْ له القريحة في أسفاره إلى الحجّ، وسوريا، ولبنان، ومصر، اندفعتْ الفكرة فيها حسب المقتضيات الخاصّة، والاتفاقات المهيّجة.

و(خماسيات روضة الحزين): رتبّها على تمام الحروف الهجائية، في كل مقطوعة خمسة أبيات، تناهز السبعين مقطوعة، تضمّنتْ بعض الشؤون الفلسفيّة، والتوجع من فجائع الدهر، ووقائع الصروف، وحال العشائر، ورثاء أولاده، والروضة في الاصطلاح ما اشتمل النظم فيه على جميع حروف الهجاء.

أبـا الفضـل ارتمـى ركـب المعـالي　　سُرىً وبغـير ربعـك مـا أنـاخـا
وقفـتَ مواقفـاً لـو مـسّ رَضـوى　　هنالـك بعـض بـلواها لسـاخـا
وواسيتَ الحسيـن فـيـا أخـاهُ　　فـدىً لـك كـل مَـنْ واسـى وآخـى
لقـد عجـب الوفـا بـوفـاك يـومـاً　　لَـوَ انّ الطفـل أبصـره لشـاخـا
أهاجـك بـأسُ حيـدر فاسـتردتْ　　لـديك قشـاعم الهيجـا فـراخـا
صرخـتَ عـلى العـدى بـالموت لّمـا　　سـمعتَ لصـبية السـبط الصـراخا
أبـدر بنـى لـويّ مَـنْ لحمـل اللـواء　　إذا الـزعـيـم بـه تـراخـى

ولقـد جـرى كثيـر مـن المنظـوم علـى أفكارنـا المنثـورة، وقـرا ئِحنـا المتشـتتة القريحـة، ولـئن أسـعف الوقـت بفرصـته تمهلنـا لإبـراز سـوادها علـى البيـاض، وإخراجها من حقيبةِ الخـاطر إلـى دبيقـة الـدفاتر، ذكرنـا شـيئاً منهـا - إن شـاء الله تعالى - تحلية لهذه الأوراق، وتفنناً في هذا المجموع، وعلى الله المعوّل في كـل أمل وهو أرحم الراحمين.

(سألنا في الشام) حضرة الفاضل ملاذ الفرقة الإماميّة في دمشق (السيّد محسـن العاملي) - دام تأييده- عن المتعاقدين المختلفين في التقليد، كما لـو كـان البـائع مثلاً مقلّداً للذاهب إلى جواز العقـد بالفارسـيّة وصـحته شـرعاً، والمشـتري مقلّـداً لمن يرى بها فساده وعدم تأثيره، ثم جرى بينهما عقد البيع بالفارسيّة، فمـا حكـم هذا العقد من النفوذ وعدمه في حق كل واحد منهما أو حقّهما معاً ؟ فقلتُ بعـد أدنى تأمّل: إنّي لا أستحضر الساعة فتاوى المشاهير فيها، ولكن مقتضـى الأصـول والقواعد الأوّليّة صحّته ولزومه في حقّ من يـرى مجتهـده الصـحّة؛ لأنّـه بحسـب

الحكم الظاهر عقد جامع لشروطه فاقد لموانعه، فيجب الوفاء به بعموم أوفوا بالعقود. فاستصوب السائل الفاضل ذلك، وقال: هذا هو الرأي الّذي يبديه كلّ مَنْ سألناه من أهل الفضل وهو الّذي يترجح في النظر، ولا نرى وجهاً غيره، ولكن العجب ممّا في العروة الوثقى[(١)] لسيّدنا[(٢)] حجّة الإسلام - أدام الله ظله - حيث اختار فساده في حقّهما مَعاً؛ معلّلاً ذلك بأنّ العقدَ متقوّم بطرفين، فاللازم أن يكون صحيحاً من الطرفين، قال: - أدام الله ظله - (وكذا في كل عقد كان مذهب أحد الطرفين بطلانه ومذهب الآخر صحّته)[(٣)].

قال السَّيد الفاضل: انّ تقوّمه بالطرفين لا يقدح في صحّته واقعاً في حقّهما، والذاهب إلى الصحّة يراه كذلك، وإنّ الذاهب إلى الفساد مشتبه مخطئ عن حكمه الواقعي، والعقد أيضاً لازم في حقّه، وإلاّ للزم عدم جواز التمتع بالكتابيّة ولا بالمُخالِفة، كيف والمخالفون لا يرتابون في فساد المنقطع، والحال أنّه لا إشكال في صحّة ذلك العقد عليها عند أحد بتة، فراجعتُ النظر ثانياً، فقلتُ له: لعلّ نظر سيّدنا الأستاذ حجّة الإسلام إلى أنّ العقد حيث كان متقوّماً بالطرفين وهو شيء واحد لا يتبعّض، وحيث إنّ القائلَ بالصحّة يعلم بفساده عند الآخر، وإنّ الأمر بوجوب الوفاء غير متوجّه إليه فهو أيضاً غير ثابت في حقّه ولا متوجّه

---

(١) العروة الوثقى: للسيد محمّد كاظم ابن السيد عبد العظيم الطباطبائي اليزدي (١٢٥٣هـ = ١٨٣٧م — ١٣٣٧هـ = ١٩١٨م)، فقه حافل للمسائل الفرعيّة، وقد طبعت من أوّل الطهارة إلى باب الحجّ في حياته، ثم طبع بعد وفاته بعض الأبواب الأخر بعنوان (الملحقات).
ظ: (الذريعة ٦: ١٤٩).

(٢) ظ: (نقباء البشر في القرن الرابع عشر ١٧: ٧١- ٧٢).

(٣) ظ: (العروة الوثقى مسألة (٥٥) ١: ٤٦).

إليه في الواقع؛ لأنّ الأمر بوجوب الوفاء لا يتوجه لأحد المتعاقدين إلاّ في العقد الّذي يعلم بتوجهه إلى الآخر ولزومه في حقِّ الآخر وإلاّ فلو علم أنّ الطرف الآخر لا يرى لزومه فما هو العقد ليندرج في قوله (تعالى) ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة من آية ١]؛ لعدم الالتزام به حقيقة من ذلك الطرف، لا يقولن الناقد أنّ الالتزام غير منوط بالصحّة، فقد يقع الالتزام حقيقة مع العلم بالفساد شرعاً، وإذا تحقق الالتزام بين الطرفين صار من العقود عرفاً، فوجب الوفاء به بناء على اطلاق العقود في كل التزام عرفي؛ لأنّا نقول ليس المانع المدّعي عدم تحقّق الالتزام لعدم الصحّة وشمول الأمر؛ بل المدّعي عدم شمول الأمر بالوفاء إلاّ للعقد الّذي هو أمر واحد كشيء بسيط، فحيث يثبتْ يثبتْ عليهما، وحيث ينتفي ينتفي عنهما، وهما متلازمان ظاهراً كتلازمهما واقعاً، فحيث لا يتوجّه الأمر بالوفاء على المشتري الّذي يرى فساد العقد ولو التزم به واقعاً، لإنتفاء بعض شرائطه أو حصول شيء من موانعه، فهو غير متوجّه أيضاً؛ حتّى في حقِّ البايع الذاهب إلى الصحّة للتلازم بينهما في كلّ مرتبة، ولا أقل من الشك، والأصل في المعاملات الفساد وعدم الانتقال.

هذا ما خطر لدي أوّل الفكرة وبادي النظر، ولا يخلو من لزوم إعادة في فكر ومراجعة في النظر، وتعويل على المصادر الوثيقة والمبادئ الصحيحة - إن شاء الله تعالى -.

(ومما سَأل عنه) دام فضله، النون في قوله تعالى ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِي﴾ [البقرة من آية ٤٤] ومقتضى الأوّليات حذفها لعدم ما يقتضي وقاية الفعل بها من الكسر بعد انفصال ضمير التكلّم. فقلتُ: لعلّه تلميحاً إلى الأصل؛ فدَلالَة على أنّ الإبدال في

حكم الثابت في محلّه كما تبقى في صورة حذف الياء بتاً وهو كثير مثل قوله (تعالى) ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة، من آية ٤٠] ونظائرها، حيث ثبتتْ دلالة على أنّها مقدرة كموجوده، أما السيّد الفاضل فلم يقتنع بهذا الرأي، واختار الحذف، أمّا بجعل الضمير المنفصل مفعولاً لمقدّر تقديره (اتّقوني، فاتقوني) فحذف الفعل الأوّل وانفصل الضمير، ثم حذفتْ الياء من الثاني، وفيه ما لا يخفى من سقوط فائدة الفاء وفوت الحصر بتقديم المفعول وفصله على سابق نظائره مثل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة، ٥] ثم احتمل الإغراء والتحذير نحو إيَّاكَ والأسد، ثم حذف الفعل وانفصل الضمير وهو عندي كسابقه.

(وسألته عن آية الوضوء) حيث إنّها ظاهرةٌ في وجوب الغسل من أطراف الأصابع إلى المرافق، كالمسح منها إلى الكعبين على سياق واحد، فإنّ ظهور قوله (تعالى) ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة، من آية ٦] قوي مؤكد في ذلك، وأمّا ما ورد في الروايات من أنّه تحديدٌ للمغسول لا للغسل، فهو مع كونه خلاف الظاهر، حيث إنّ ظاهرَ القيود كونها قيوداً للحكم لا للموضوع، لا يجدي في إثبات المفروض؛ إذ لو فرضنا أنّ العبارة هكذا اغسلوا الأيدي التي هي من أطراف الأصابع إلى المرافق، فإن هذا الكلام نصّ في كون الظرف قيداً للموضوع، وتحديداً للمغسول؛ ولكنّه أقصاه أن يبقى مهملاً من حيث وجوب الابتداء بالبداية والنهاية، فيثبتْ التخير ولا يجب الابتداء بالمرافق، كما عليه الفتوى والعمل، كيف ووحدة السياق، ومناسبة الحكم والموضوع والترتيب الذكري، كلّ ذلك يقضي ترجيح الابتداء بالكفين والانتهاء بالمرافق على حسب الذكر، وليس الغرض - معاذ الله - دفع

الرواية أو المناقشة فيها بعد وضوح دلالتها، ولكن أنّ الرواية ظاهرة في تطبيق مضمونها على القاعدة، وأنّ مدلول الآية حسب الصناعة والأصول ذلك، فنحن نسأل عن وجهه، حيث إنّ ما نعرفه من التفاهم العرفي وقواعد العربية تقضي بغيره. ولم يحصلْ لنا منه - دام فضله - ولا من غيره وجه مقنع.

زيارة مرقد عقيلة بني هاشم الكبرى

(ختام جميل) زرنا عشية يوم الجمعة ليلة ٧ صفر مرقد سيِّدتنا الحوراء زينب الكبرى كريمة أمير المؤمنين - صلوات الله عليها وعليه - وكانت موافقة ليلة وفاة أخيها السبط الحسن الزكيّ - سلام الله عليه - فوهب الله لنا ولجميع إخواننا وسادتنا الذين كُنّا بخدمتهم أو صحبتهم من الرقة والشجى، والانكسار والرقة، وصبّ الدموع، والتهاب الأحزان بين الضلوع، ما لم نكن نحتسب، وذكرنا كلّ واحد من أحبّتنا النائين، واعزّتنا الذين شملنا برّهم ولطفهم؛ حتّى عند غيبتنا عنهم حيث وجدناهم في القلوب حضوراً، وما فارقونا على بعدهم، ولم تكن زيارتهم لنا حلماً وزوراً، فبدأنا بهم قبل النفوس إذ كانوا علينا أعزَّ منها، واستلبنا أرواحنا في الزيارة عنهم والدعاء لهم برقة حالٍ ما برحت للساعة عنها، وبعد وافي قدرٍ من الزمان، خرجتُ من روضتها الزاهرة، وبقعتها الطاهرة، المملوءة نوراً ورَوحاً، التي يحتسبها الرائي قد اقتطعتْ من صحيفة السماء أو العرش لوحاً، ثم صرتُ أستدير في رواقها المباهى أروقة السماء، والزاهي في الحقيقة على مجاز منطقة الجوزاء، ثم دخلتُ إلى المسجد الّذي هو مقتطع في جهة الجنوب من رواقها الشريف لصلاة جمعة أهل السنّة والجماعة، بعد أن فتح لنا المتولّي بابه فوجدنا مسجداً أنيقاً، فائقاً، مُزيّن بأنواع الزينة، وأجناس المعلّقات والمحسّنات في طول وعرض وافيين، وقد عُلّقت

على تمام جدرانه كثير من القِطع والألواح والصحائف الموشومة، كُلّها بمدائح أهل البيت عليهم السلام من بين حديث، أو آية، أو مقاطيع غراء في مديحهم، أو موعظة، أو حكمة، وكلّها بأنفس الخطوط، وأجود الزخارف الذهبيّة، فمن عظاتها البالغة: (عزّ الدنيا بالملك وعزّ الآخرة بالأعمال) ومن منظوماتها الحَكَميّة:

يا طالب الرزق في الآفاق مجتهداً ... أقصر عناك فإن الرزقَ مقسومُ
الرزق يأتي إلى من ليس يطلبه ... وطالب الرزق يسعى وهو محرومُ[(١)]

ومن مدائح ذات تلك الحضرة الطاهرة ما هو مرقوم بالزخرفة على الباب الجنوبيّة التي تنفتح على ذلك المسجد الرواقي منظوماً:

يا داخلاً حضرة القدس التي رُفِعَتْ ... عِزّاً على هامةِ الجوزا قواعدُها
لك البشارة فيما نلتَ من نعم ... عظيمة لا ينال الخيرَ جاحِدُها[(٢)]

ومن المدائح لسادة أهل البيت وإمامهم (صلوات الله عليه وعليهم) الأبيات الشهيرة للوزير الشهير (الصّاحب بن عباد)[(٣)] - تغمّده الله تعالى برضوانه - وهي

---

(١) البيتان لأبي الفوارس سعد بن محمّد بن سعد بن الصيفي التميمي البغدادي المعروف بـ(حيص بيص ت ٥٧٤هـ - ١١٧٨م). ولم يردا في ديوانه المطبوع ببغداد سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
ظ: (حياة الحيوان الكبرى، للدميري (ت ٨٠٨هـ - ١٤٠٥م) ص١٦٦).

(٢) لم أعثر على قائله.

(٣) إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني. (٣٢٦هـ = ٩٣٨م — ٣٨٥هـ = ٩٩٥م).وزير غلب عليه الأدب، فكان من نوادر الدهر علماً وفضلاً وتدبيراً وجودة رأي، أستوزره مؤيد الدّولة ابن بويه الديلمي ثم أخوه فخر الدّولة، ولقب بـ(الصّاحب) لصحبته مؤيد الدّولة من صباه، له تصاتنيف عديدة منها: المحيط، وكتاب الوزراء، والكشف عن مساويء شعر المتنبي، وغيرها.
ظ: (الاعلام ١: ٣١٦).

مرقومة بأجود الأقلام، وأنفس الخطوط، وأبهى الزينة، وقد أنستُ بها على حفظي لها ولكن:

ذكّرتني وما نسيتُ عهودا ... لو سلا المرء نفسه ما سلاها[(١)]

ويحسن أن نختم المقام بها ضارعين إلى الله - سبحانه - أن يرزقنا وكافة المؤمنين من إخواننا حسن الخاتمة، إن شاء الله تعالى.

وهي

بأسمائك الحسنى أروّح خاطري ... إذا هبَّ من قدسِ الجلالِ نسيمُها

إذا مرضتْ نفسي فأنت شِفاؤُها ... وان شقيتْ يوماً فأنت نعيمُها

أبا حسن لو كان حبّك مُدْخلي ... جهنم كان الفوزَ عندي جحيمُها

وكيف يخاف النار من كان موقناً ... بأنّك مولاه وأنت قسيمُها

رضيتُ بأن ألقى القيامةَ خائضاً ... دماءَ نفوس حاربتك جسومُها

فوا عجباً من أمة كيف ترتجي ... من الله غفراناً وأنت خصيمُها

وواعجبا إذا أخَّرَتْك وقدّمتْ ... سواك بلا فضل وأنت زعيمُها[(٢)]

رزقنا الله وإيّاه شفاعة هذا الزعيم على هذا الولاء والخلوص، والشعر الفائق

---

(١) ظ: (ديوان الأزري الكبير ص٣٤).

(٢) الأبيات الواردة للشيخ الحافظ رضي الدين محمّد بن رجب البرسي الحلي (من أعلام القرن الثامن والتاسع الهجري) انظر: ديوانه: ص١٦٣ - ١٦٤.

ظ: (مشارق أنوار اليقين ص٢٧٠) و(مناقب آل أبي طالب ٢: ١٠، بدون نسبة البيت الثالث والرابع)، وكذا في ديوان (الصّاحب بن عباد ص٢٧٥، منسوبة إليه).

الراقي، والذكر الجميل الباقي ونسأله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت.

إنَّه أرحم الراحمين.

تمتْ بيد جامعها الأحقر محمّد حسين آل كاشف الغطاء (٩ صفر سنة ١٣٣٠هـ)[1].

(١) في الميلادي (١٩١٢م).

الفهارس الفنية

فهرس الآيات

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ ... ﴾	الإسراء	١	٢٥
﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾	الإسراء	٤٤	٢٥٦
﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ ...﴾	الكهف	١٠٩	٢٥٦
﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾	طه	١	٢٥٥
﴿لا تَرى فيها عِوَجاً وَ لا أَمْتا﴾	طه	١٠٧	٩٣
﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى ... ﴾	الحج	٢٧	٥٣
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ ...﴾	الحج	٤٦	٩١، ١٣٩
﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ ...﴾	المؤمنون	٦	١٠٥
﴿إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لم يَكَدْ يَراها﴾	النور	٤٠	٨٨
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ...﴾	الأحزاب	٣٣	١٠٦
﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾	فصلت	٥٣	٢٤٦
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّه ...﴾	الفتح	١٠	١٠٥
﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾	النجم	٣٩	١٧٣
﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾	الواقعة	٧٩	٧٥
﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾	الطلاق	٩	٢٢٣
﴿ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ ...﴾	الملك	٤	٨٨
﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾	المزمل	١، ٢.	٢٥٥
﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾	القيامة	٢٢	١٠٥
﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا﴾	المرسلات	٢٥	٩٠
﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾	النبأ	٦، ٧	٩٠

فهرس الأحاديث

فهرس الأشعار

اللام

الميم

النون

قـد هـوّن الصـبر منّـا كـل مصـعبة	الخشن	المتنبي	٧٠
مثـل الحـمار مضـى يـروم لرأسـه	أُذنان		٢٢٣
هتـف النعـي بفقـد مـن كشـف الغطـا	بيانه	الشيخ علي البازي	٣٢
وجاريـة ظنـنتُ لهـا جـمـالاً	الظنون	الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء	٢٣٩
ومـا الخـوف إلا مـا تخوّفـه الفتـى	أمنا	المتنبي	٦٤

الهاء

ذكّرتنـي ومـا نسـيتُ عهـودا	سلاها	الصاحب بن عباد	٢٦٦

الياء

أَيُّهَـا السَّـائِلُ عَـنْهُمْ وَعِنِّـي	منّي		٢١٤
روحـي عـلى البعـد منكـم كنـتُ	نائبتي	الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء	١٠٨
وهـانَ فَـما أُبـالي بالرّزايـا	أبالي	المتنبي	٧٩

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام المترجمين في الهامش

فهرس البيوتات والفرق والقبائل

فهرس الأماكن والبلدان والأنهار

(خ)

(د)

(ي)

فهرس المصادر

أوّلاً: الكتب المخطوطة:

١. (انوار العقول في أشعار وصي الرسول) مخطوط في خزانة مخطوطات المكتبة.

ثانياً: الكتب المطبوعة:

٢. أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد): للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (ت ٤٣٦هـ - ١٠٤٥م) تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

٣. الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة في السنة: للسيد رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤هـ - ١٢٦٦م)، تح: جواد القيّومي الأصفهاني. الناشر مكتب الإعلام الإسلامي. الطبعة الأولى سنة ١٤١٥هـ

٤. أسواق دمشق القديمة ومشيّداتها التاريخية: بحث ميداني بعدسة المؤلف د. قتيبة الشهابي. منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية - دمشق. سنة ١٩٩٠م.

٥. الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية: عُني بطبعه الأب لويس شيخو اليسوعي، نقلاً عن رواية النمري وكتب مشاهير الأدباء، الطبعة الرابعة. المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٩١٤م.

٦. الاستبصار في ما اختلف من الأخبار، لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان (ت ١٤٠٥هـ)، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية مطبعة النجف الأشرف سنة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

٧. آثار العباد وأخبار البلاد: زكريا بن محمّد بن محمود القزويني. دار صادر بيروت. سنة ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

٨. أعلام السياسة في العراق الحديث: الاستاذ مير بصري (ت ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م)، الناشر: دار الحكمة - لندن، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥م.

٩. البيان والتبيين: لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ - ٨٦٩م). تحقيق وشرح: عبد السلام محمّد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد سنة ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

١٠. بحار الأنوار: العلامة محمّد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ - ١٦٩٩م) تح: السيد إبراهيم الميانجي، محمد باقر البهبودي، الطبعة الثالثة. سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان.

١١. تراث كربلاء: سلمان هادي طعمة، وزارة الثقافة - العراق - بغداد، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٢م.

١٢. ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة: الأستاذ طاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، مطبعة الاستقامة القاهرة. الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩م

١٣. تاريخ مكّة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف: لأبي البقاء محمّد بن أحمد بن محمّد ابن الضياء المكي الحنفي (ت ٨٥٤هـ - ١٤٥٠م) تح: علاء إبراهيم الأزهري وأيمن نصر الأزهري، الناشر دار الكتب العلميّة بيروت - لبنان. الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٤. التذكرة الحمدونية: محمّد بن الحسن بن محمّد بن علي ابن حمدون (ت ٥٦٢ هـ - ١١٦٧م)، تح: إحسان عباس وبكر عباس. الناشر: دار صادر بيروت - لبنان الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦م.

١٥. تاريخ مدينة السلام: للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، حَقّقه، وضَبَط نَصَّه، وعَلّق عَلَيه: د. بشار عَواد. دار الغرب الإسلامي. الطبعة الأولى سنة (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).

١٦. تكملة المعاجم العربية: رينهارت دوزي، نقله إلى العربية، وعلّق عليه: د. محمّد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام سنة (١٩٨٢م).

١٧. الترياق الفاروقي أو (ديوان عبد الباقي العمري): مطابع دار النعمان - النجف الأشرف العراق. الطبعة الثانية سنة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١٨. مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمّد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني (ت ٥١٨هـ - ١١٢٤م)، تح: محمّد محي الدين عبد الحميد، مطبعة دار السعادة، الطبعة الثانية سنة (١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩هـ).

١٩. مهج الدعوات ومنهج العبادات: للسيد رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤هـ - ١٢٦٦م) منشورات شمس الضحى الطبعة الأولى سنة ١٤٣٠هـ.

٢٠. ماضي النَّجف وحاضرها، الشيخ جعفر الشيخ باقر آل محبوبة (ت ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م)، تحقيق وتعليق: د. علي خضير حجي، الناشر: قسم الشؤون الفكرية في العتبة العلوية المقدّسة شعبة إحياء التراث، الطبعة الأولى سنة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، مطبعة دار الكفيل -كربلاء المقدّسة.

٢١. شرح ديوان المتنبي: وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، مطبعة الإستقامة بالقاهرة، الطبعة الثانية سنة (١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م).

٢٢. كتاب الأغاني: لأبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ - ٩٧٦ م)، المطبعة المصرية بولاق سنة (١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م). (نسخة خزانة الحجريات العامّة في مكتبة الإمام كاشف الغطاء تسلسل ٣٣٨٨).

٢٣. ديوان علي بن الجهم: عُني بتحقيقه: خليل مردم بك (رئيس مجمع اللغة العربية)، طبع على مطابع دار السراج بيروت، الطبعة الثانية.

٢٤. موسوعة الشهيد الأوّل (ت ٧٨٦هـ – ١٣٨٥م)، الناشر: مركز العلوم والثقافة الإسلامية في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة، الطبعة الأولى سنة (١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م).

٢٥. دليل خارطة بغداد قديما وحديثا: لـ د. مصطفى جواد وأحمد سوسة. مطبعة المجمع العلمي العراقي سنة (١٣٧٨هـ – ١٩٥٨م).

٢٦. عقود حياتي: للشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء (ت ١٣٧٣هـ – ١٩٥٤م)، تح: أمير الشيخ شريف كاشف الغطاء، الناشر: مدرسة ومكتبة الإمام كاشف الغطاء العامة، الطبعة الأولى سنة ١٤٣٣هـ -٢٠١٢م.

٢٧. معجم البلدان: للشيخ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي (ت ٦٢٦هـ -١٢٢٩م) الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان، سنة الطبع (١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م).

٢٨. الدّيارات: لأبي الحسن علي بن محمّد المعروف بالشابشتي (ت ٣٨٨هـ – ٩٩٨م) على رواية، عُني بتحقيقه ونشره: كوركيس عواد، مطبعة المعارف – بغداد ١٩٥١م.

٢٩. ديوان أبو البحر الخطي: جعفر بن محمّد الخطي (ت ١٠٢٨هـ – ١٦١٩م) علّق عليه وأخرجه: الخطيب علّي بن الحسين الهاشمي، عضو جمعية الرابطة العلمية الأدبية في النجف الأشرف، مطبعة الحيدري – طهران سنة (١٣٧٣ هـ – ١٩٥٤م).

٣٠. ديوان الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)، دار صادر بيروت سنة (١٣٨٠هـ – ١٩٦١م).

٣١. ديوان خواجه شمس الدين محمّد حافظ شيرازي: باهتمام محمّد قزويني، ودكتور قاسم غني، طهران مطبعة مجلس سنة ١٣٢٠هـ.

٣٢. ديوان أبي الأسود الدؤلي: حققه وشرحه وقدّم له: عبد الكريم الدجيلي، شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة - بغداد الطبعة الأولى، سنة (١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م).

٣٣. ديوان الشماخ بن ضرار الصحابي الغطفاني: شرح أحمد بن الأمين الشنقيطي، طبع على نفقة شارحه سنة ١٣٢٧ هـ مطبعة دار السعادة بجوار محافظة مصر.

٣٤. ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس: شرح وتعليق: د. محمد حسين، الناشر مكتبة الآداب بالجماميز المطبعة النموذجية.

٣٥. ديوان الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، على الرواية الصحيحة: جمع السيد محسن الأمين الحسيني (ت ١٣٧١هـ) الطبعة الممتازة، من نشريات مكتبة دار الكتب التجارية ومطبعتها في النجف الأشرف، لصاحبها الشيخ محمد رضا الكتبي.

٣٦. ديوان الأزري الكبير: الشيخ كاظم الأزري التميمي (ت ١٢١١هـ -١٧٩٦م). تحقيق وتقديم وتكملة: شاكر هادي شكر، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، الناشر: دار التوجيه الإسلامي، بيروت - كويت.

٣٧. ديوان السيد موسى الطالقاني (ت ١٢٩٨هـ - ١٨٨٠م): جمعه، وحققه، وقدّم له، ونشره: محمد حسن آل الطالقاني، مطبعة الغري الحديثة - النجف الطبعة الأولى سنة (١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م).

٣٨. ديوان الصاحب بن عباد: تح: الشيخ محمد حسن آل ياسين، منشورات دار القلم بيروت -لبنان، مكتبة النهضة بيروت - بغداد الطبعة الثانية سنة (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

٣٩. ديوان ذي الرمة غيلان بن عقبة العدوي (ت ١١٧هـ - ٧٣٥م): شرح الإمام أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي صاحب الأصمعي، رواية الإمام أبي العباس ثعلب، حققه وقدّم له وعلّق عليه: د. عبد القدوس أبوصالح، دمشق - مطبعة طربين سنة (١٣٩٢هـ- ١٩٧٣م).

٤٠. ديوان الأرجاني: ناصح الدين أبي بكر أحمد بن محمّد بن الحسين (ت ٥٤٤ هـ - ١١٤٩م) تحقيق: د. محمّد قاسم مصطفى. منشورات وزارة الثقافة والإعلام - الجمهورية العراقية سنة ١٩٨١م.

٤١. ديوان الحافظ رجب البرسي الحلي، (من أعلام القرن الثامن والتاسع)، تحقيق: حيدر عبد الرسول عوض، إصدار مجمع الإمام الحسين العلمي لتحقيق تراث أهل البيت عليهم السلام التابع للعتبة الحسينية المقدسة، ط١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٤٢. شرح ديوان الاعشى: شرحه إبراهيم جزيني، الطبعة الأولى (سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م).

٤٣. الكنى والألقاب: للشيخ عباس القمي (ت ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م)، تح: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية سنة ١٤٢٩هـ

٤٤. صحيح البخاري: لأبي عبد الله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة البخاري الجعفي (ت ٢٥٦ هـ - ٨٧٠م)، طبعة بالاوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول، دار الفكر سنة (١٤٠١ هـ - ١٩٨١م).

٤٥. شعر دعبل بن علي الخزاعي (ت ٢٤٦ هـ - ٨٦١م) صنعه: د. عبد الكريم الأشتر، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، سنة (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م).

٤٦. شرح ديوان الحماسة: لأبي علي أحمد بن محمّد بن الحسن المرزوقي (ت٤٢١ هـ - ١٠٣٠م)، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م).

٤٧. معجم ألفاظ الفقه الجعفري: د. أحمد فتح الله، الطبعة الأولى سنة (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م)، مطبعة مطابع المدخول - الدمام.

٤٨. المستقصى في أمثال العرب: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ - ١١٤٤م)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بـ(حيدر آباد) الدكن الهند، الطبعة الأولى سنة (١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م).

٤٩. كتاب (المناسك) وأماكن طرق الحجّ ومعالم الجزيرة: لأبي إسحاق الحربي (ت ٢٨٥هـ - ٨٩٨م)، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض المملكة العربية السعودية سنة ١٩٦٩ هـ

٥٠. شرح ديوان أبي فراس الحمداني: منشورات دار الفكر - بيروت.

٥١. المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة (الرِّحلة الثالثة) تأليف: طه باقر و فؤاد سفر. أصدرتها مديرية الفنون والثقافة الشعبية في وزارة الثقافة والإرشاد بغداد سنة ١٩٦٦م.

٥٢. مرآة الحرمين والرِّحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية: تأليف اللواء إبراهيم رفعت باشا، قومندان حرس المحمل سنة ١٣١٨هـ -١٩٠١م، وأمير الحج سنة ١٣٢٠هـ - ١٩٠٣م، وسنة ١٣٢١هـ - ١٩٠٤م، وسنة ١٣٢٥هـ - ١٩٠٨م، الطبعة الأولى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة (١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م).

٥٣. المساجد والأماكن الأثرية في المدينة المنورة: تأليف عبد الله يوسف، دار المؤرخ العربي بيروت لبنان الطبعة الأولى سنة (١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م).

٥٤. معارج نهج البلاغة: علي بن زيد البيهقي (ت ٥٦٥ هـ - ١١٧٠م) تح: محمّد تقي دانش پژوه، إشراف: السيد محمود المرعشي، الطبعة الأولى سنة (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م)، المطبعة بهمن - قم الناشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي - قم المقدسة.

٥٥. الجواهر السنية في الأحاديث القدسية: الشيخ محمَّد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ - ١٦٩٢م)، مطبعة النعمان النجف الأشرف سنة (١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م).

٥٦. كتاب الذيل على طبقات الحنابلة: لابن رجب زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي (ت ٧٩٥هـ - ١٣٩٣م)، دار المعرفة بيروت - لبنان.

٥٧. العراق قديما وحديثا: السيد عبد الرزاق الحسني، الطبعة السادسة (الأوفيست) مطبعة دار الكتب بيروت - لبنان سنة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

٥٨. خزائن الكتب العربية في الخافقين: الفيكنت فيليب دي طرازي، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، مطبعة جوزف صيقلي - بيروت سنة ١٩٤٧م.

٥٩. معجم أسماء النبات الواردة في تاج العروس: جمع وتحقيق محمود مصطفى الدّمياطي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٦٥م.

٦٠. معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية: عمر رضا كحاله، مكتبة المثنى - لبنان ودار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان.

٦١. شرح مثنوي: ملا هادي السبزواري (ت١٢٨٩هـ - ١٨٧٢م) تح: د. مصطفى بروجردي.

٦٢. الخصال: لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ - ٩٩١م) تح: علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم المقدّسة سنة ١٤٠٣هـ

٦٣. الكافي: لأبي جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت٣٢٨ أو٣٢٩هـ - ٩٤١م) صححه وعلّق عليه علي أكبر الغفاري، الناشر دار الكتب الإسلامية - طهران الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨هـ.

٦٤. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي (ت ٨٧٤هـ - ١٤٦٩م)، مطبعة كوستا تسوماس، وزارة الثقافة

والإرشاد القومي.

٦٥. مستدرك الوسائل: للميرزا الشيخ حسين النوري (ت ١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م) تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث بيروت - لبنان، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م.

٦٦. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: لأحمد المقري المغربي المالكي الأشعري، المطبعة الأزهرية المصرية الطبعة الأولى سنة (١٣٠٢هـ - ١٨٨٤م).

٦٧. مشارق أنوار اليقين: للشيخ الحافظ رضي الدين بن محمّد بن رجب البرسي الحلي (كان حيّاً في القرن التاسع) تح: السيد علي عاشور، الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان، الطبعة الأولى سنة (١٤١٩هـ- ١٩٩٩م).

٦٨. الغدير في الكتاب والسنة والأدب: الشيخ عبد الحسين الأميني النجفي، مطبعة الحيدري بطهران، الطبعة الثانية سنة (١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م).

٦٩. حياة الحيوان الكبرى: لكمال الدين محمّد بن موسى الدميري (ت ٨٠٨هـ - ١٤٠٥م) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثالثة سنة (١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م).

٧٠. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: للشيخ آغا بزرك الطهراني (ت ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م) دار الأضواء - بيروت الطبعة الثالثة سنة (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م).

٧١. مستدرك نهج البلاغة: جمع الشيخ هادي كاشف الغطاء (ت ١٣٦١هـ- ١٩٤١م)، مطبعة الراعي في النجف الأشرف، الطبعة الأولى سنة (١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م).

٧٢. موسوعة الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين (ت ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م) دار المؤرخ العربي الطبعة الأولى سنة (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).

٧٣. من لا يحضره الفقيه: لأبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ - ٩٩١م) صححه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، الناشر: جماعة النشر الإسلامي في قم المقدّسة.

٧٤. موسوعة أعلام وعلماء العراق: حميد المطبعي، إصدار مؤسسة الزمان الدولية للصحافة والنشر والمعلومات - بغداد، الطبعة الأولى سنة ٢٠١١م.

٧٥. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م.

٧٦. الصحيفة السجادية: للإمام زين العابدين عليه السلام (استشهد ٩٤هـ - ٧١٣م) تقدّيم: الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر.

٧٧. شرح شافية ابن الحاجب: رضي الدين محمّد بن الحسن الاسترابادي النحوي (ت٦٨٦هـ - ١٢٨٧م) تحقيق وشرح: محمد نور الحسن، محمّد الزفراف، محمّد محي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان سنة (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

٧٨. الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

٧٩. معجم معالم الحجاز: د. عاتق بن غيث البلادي، الناشر: دار مكّة ومؤسسة الريان، الطبعة الثانية سنة (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م).

٨٠. مختصر مصباح المتهجد في عمل السنة الشهير بـ(المصباح الصغير): للشيخ أبي جعفر محمّد الحسن بن علي الطوسي (ت ٤٦٠هـ - ١٠٦٨م)، منشورات: مكتبة العلامة المجلسي رحمه الله، مطبعة عمران، الطبعة الأولى سنة (١٤٣٥هـ - ٢٠١٥).

٨١. المصطلحات العماريّة والفنيّة في العمارة التراثيّة: د. حميد محمّد الدراجي، دار الشؤون الثقافة العامّة من إصدارات بغداد عاصمة الثقافة العربية، الطبعة الأولى

(سنة ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م).

٨٢ مناقب آل أبي طالب: مشير الدين أبي عبد الله محمّد بن علي بن شهر اشوب (ت٥٨٨هـ - ١١٩٢م) الناشر المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف سنة (١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م).

٨٣ لسان العرب: لأبي الفضل جمال الدين محمّد بن مكرّم ابن منظور الأفريقي المصري الأنصاري (ت ٧١١هـ - ١٣١١م)، الطبعة الأولى، بالمطبعة الكبرى الميرية ببولاق، سنة (١٣٠٠هـ - ١٨٨٣م).

٨٤ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، مطابع دار الكتاب العربي بمصر (محمود حلمي المنياوي)، سنة (١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م).

٨٥ كتاب العين: لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ - ٧٩١م) تح: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، الجمهورية العراقية وزارة الثقافة والإعلام دار الرشيد، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

٨٦ الذخائر الشرقيّة: جمع وتقديم وتعليق: جليل العطيَّة، دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩م.

٨٧ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ - ١٣١٧م)، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان.

٨٨ الدين والإسلام أو الدعوة الإسلامية: للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء (ت١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م)، طبع في مطبعة العرفان صيدا سنة (١٣٣٠هـ - ١٩١٢م).

٨٩ الدين والإسلام أو الدعوة الإسلامية: للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء (ت١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م)، تح: محمّد جاسم الساعدي، الناشر المجمع العالمي لأهل

البيت عليهم السلام الطبعة الأولى سنة ١٤٣٢هـ

٩٠. العروة الوثقى فيما تعم به البلوى: للسيد محمد كاظم اليزدي (ت ١٣٣٧هـ - ١٩١٨م)، طبعت بمطبعة الحيدرية في النجف الأشرف سنة (١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م).

٩١. الآثار الإسلاميّة في مكّة المكرمة، د. ناصر الحارثي، الطبعة الأولى الرياض سنة (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

٩٢. المغانم المُطَابة في معالم طَابة: لمجد الدّين أبي الطاهر محمّد بن يعقوب الفيروزابادي (ت ٨١٧هـ - ١٤١٥م)، تحقيق: حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى سنة (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).

٩٣. مجمع البحرين، للشيخ فخر الدين الطريحي (ت سنة ١٠٨٥هـ - ١٦٧٤م)، تح: السيد أحمد الحسيني، مطبعة الاداب في النجف الأشرف.

ثالثاً: الدوريّات:

٩٤. سومر: مجلة علمية تبحث في آثار العراق وتاريخه، تصدرها مديرية الآثار العامَّة - وزارة الإعلام - الجمهورية العراقية - بغداد.

٩٥. مجلة العرب: مرة بن محكان السعدي حياته وما تبقى من شعره، جمع وتحقيق د. عباس هاني الجرّاخ، ج ١١- ١٢، س ٣٣، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٩٦. صحيفة الرياض اليومية الصادرة من مؤسسة اليمامة الصحفيّة، العدد (١٦١٨٨)، الجمعة ٣ ذو الحجة ١٤٣٣ هـ - ١٩ اكتوبر ٢٠١٢م.

فهرس المحتويات

الرحلة الحجازية

نهزة المسافر ونزهة المسامر

بين يدي القاريء الكريم رحلة احسب أنّها من أهم كتب أدب الرِّحلات عن مدينة النجف الأشرف - ينبوع العلماء والمجتهدين ومدرسة الشيعة الكبرى - وقد رأيتُ من واجب الوفاء أن أقدمها لما أجتنحت بين دفتيها من معلومات علميّة وأدبيّة وأخرى عقائديّة.

9 781988 150536

مكتبة الإمام كاشف الغطاء العامة

الإصدار (٢)